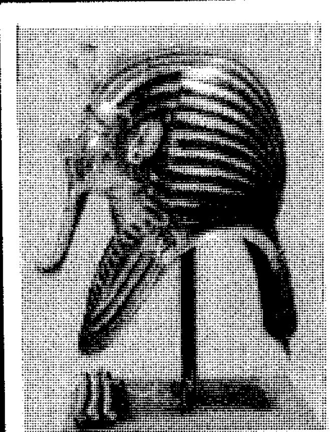
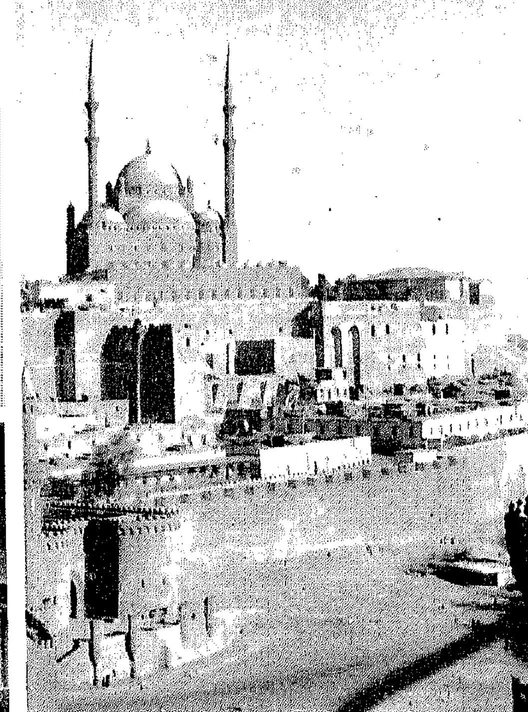
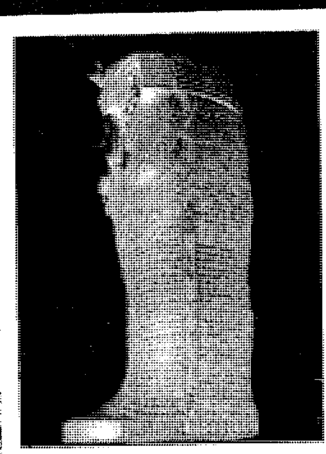
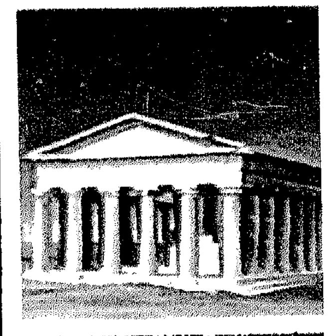
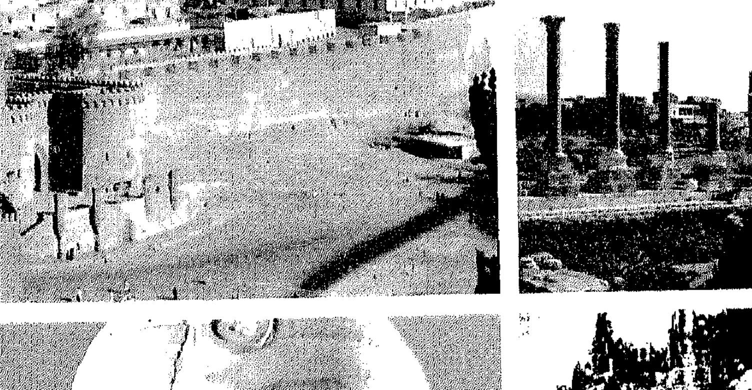
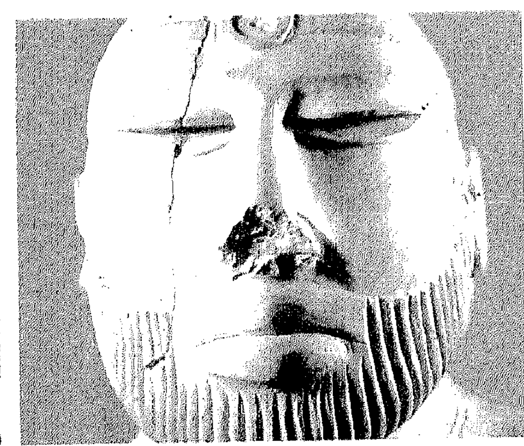
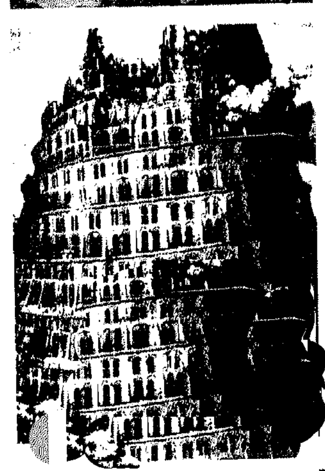
الدكتور حسان حلاق

ملامح من

تاريخ الحضارات

السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعسكري والديني

١٩٩١م

الدار الجامعية

ملامح من

تاريخ الحضارات

السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعسكري والديني

ملامح من

تاريخ الحضارات

السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعسكري والديني

الدكتور حسان حلاق

١٤١١هـ ١٩٩١م



بيروت - تجاه جامعة بيروت العربية - شارع عفيف الطيبي - بناية البعلكي - الطابق الرابع
تلفون: ٣١٦٣٦٦ - ص.ب: ٩٣٣٣ - فاكسميلي: ٣١٧١١٨ برقياً: ميمكاوي تلكس: LE 23059 MAKKAWI

الكويت - شارع فهد السالم - عمارة البسام - الدور الأول تلفون: ٢٤٣٥٦٧٧ / ٢٤٢٤٨٨٤
ص.ب: ٨٢٦٠ برقياً: الطلبة فاكسميلي: ٢٤٢٦٠٦٩

الاسكندرية - الابراهيمية - ١٠ شارع علي عباس الحلواني - الدور الأول - رقم ١ - ص.ب: ٢٨٩
برقياً - ميكاوي - تلفون: ٥٩٦٠١٢١ فاكسميلي: ٥٩٦٩٥٠٢

فهرس الموضوعات

مقدمة ٩
الفصل الأول: عوامل الحضارة ١١
الفصل الثاني: الحضارة المصرية القديمة ٢٧
الفصل الثالث: حضارة بلاد ما بين النهرين ٤٣
الفصل الرابع: الحضارة الفينيقية ٥٧
الفصل الخامس: الحضارة الهندية ٨١
الفصل السادس: الحضارة الفارسية الأخمينية ١٠١
الفصل السابع: الحضارة اليونانية ١١٣
الفصل الثامن: الحضارة العربية والإسلامية ١٣٧

«إن تاريخ الحضارات لا يمكن أن يكون تاريخاً منفرداً لبلد ما أو لحضارة ما، ولا يمكن دراسة الاقتصاد أو السياسة أو العلوم أو الأديان أو الآداب أو الفلسفة والموسيقى والفن كل منها على حدة وبمعزل عن الأخرى، إنما العلم يحتم دراسة كل جوانب الحضارة لتعرف حضارة البلد كما أنه يجب دراسة كل حضارات البلدان لتعرف الحضارة الإنسانية مجتمعة. وإن علم تدوين التاريخ في صورته المثلى لا بد أن يهدف إلى تصوير مجموعة عناصر ثقافة الأمة مشتبكة لا منفردة».

ول ديورانت

ارنولد توينبي

«ثم أن الحضارة ليست مظاهر حضارية تتمثل بالظواهر مجتمعة، أو بالعلوم والاختراعات والابتكارات فحسب، لأن مثل هذه المظاهر الحضارية قد تسعد الانسان وقد تدمره. فبعض العلوم والصناعات والاختراعات الحربية مثلاً، قد توظف للقضاء على الانسان وعلى حضارته العامرة منذ آلاف السنين. وهناك من العلوم والصناعات والابتكارات التي قد توظف في سبيل سعادة الانسان وراحته وتطوره ورقيه. لذا فالعامل الأخلاقي والانساني يبقى العامل الرئيسي للحضارة، والمحرك الفاعل لطبيعة ولاتجاه سيرها: في إتجاه الخير أم الشر، في اتجاه النماء أم التقهقر، في اتجاه البناء أم التدمير، فى اتجاه السلم أم الحرب. فالأخلاق والعلوم المستثمرة في سبيل سعادة الانسان، هما العاملان الرئيسيان في تكوين وتطور الحضارة الاقليمية والعالمية».

حسان حلاق

مقدمة

إن الحضارة هي انعكاس لمجمل النشاط الانساني، وهي تمثل النشاطات الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والسياسية والعسكرية والدينية. وهي صورة نابضة للتقدم العلمي في مجالات العلم والثقافة. بل إن الحضارة بمفهومها الايجابي، هي الوجه الأمثل للتطور والرقي والتقدم. كما أن الحضارة هي الوجه الآخر للمدنية، وهي نقيض الهمجية والتقهقر والتدمير. والحضارة والمدنية وجهان لمفهوم واحد.

والواقع فإن تاريخ الحضارات يمثل العامل الأساسي في فهم التطور الحضاري والبشري لمختلف الحضارات منذ فجر التاريخ حتى اليوم. ذلك أن دراسة التطور الحضاري يبرز لنا الأسباب التي كانت مدعاة لهذا التطور، ويبين لنا النتائج المختلفة التي أسفرت عنها تلك التطورات الحضارية.

لقد شهدت الحضارات القديمة نماذج من الرقي والتطور الحضاري، كما شهدت الكثير من الحروب وعوامل التدمير والروح اللاأخلاقية. وبالرغم من ذلك فإن الانسان كان ينتقل من عصر إلى عصر، ومن قرن إلى قرن في خطى ثابتة نحو التطور الحضاري، فأصبح في موقع مميز وممتاز لا سيما في القرن العشرين. وبالرغم مما نشهده في بعض مناطق العالم من صور ونماذج بربرية ولا حضارية، فإننا لا نستطيع أن نهمل دراسة التطور التاريخي للحضارة، ولا يمكننا أن ننبذ أعمال الشعوب السابقة. ولكي نتعرف إلى التاريخ الحضاري للشعوب،

لا بد من الاستفادة من تجارب هذه الشعوب لبناء الحاضر والمستقبل، استناداً إلى مبدأ «نفعية التاريخ»، وذلك حتى نطلق الطاقات الحضارية في سبيل تقدم ورقي الفرد والجماعة والأمة.

لقد استأثرت هذه المادة باهتمامي الشديد منذ أن عكفت على تدريسها في كلية الأعلام والتوثيق في الجامعة اللبنانية بين أعوام ١٩٨١ - ١٩٨٦. ثم رأيت من الفائدة العمل على تطويرها والاضافة إليها ونشرها في كتاب، لتكون بمثابة مقدمة في تاريخ الحضارات. ولا أدعي أني وفيت الموضوع حقه، لأن الكمال لله وحده، ولأن تاريخ الحضارات يحتاج إلى مجلدات وموسوعات ودراسات قد لا تنتهي.

والله من وراء القصد
حسّان حلاّق
فردان - بيروت ١٩٩٠/٥/٣٠

الفصل الأول

عوامل الحضارة

الحضارة نظام اجتماعي مؤلف من عدة عناصر في مقدمتها، الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والعلوم والفنون، والتقاليد الخلقية. والحضارة ليست وليدة عصر معين أو حقبة معينة، إنما هي نتيجة تاريخ سابق وحضارات سابقة وجدت فيها العوامل السابقة الذكر، وقد يكون تواجدها بنسب مختلفة ومتفاوتة ما بين منطقة ومنطقة.

والتعددية الحضارية ممكن أن توجد في امبراطورية كالأمبراطورية الرومانية أو الفارسية أو العربية ولكن من الصعب وجودها في بلد واحد لأن مئات وآلاف السنين هي الكفيلة بدمج الشعب في بوتقة واحدة من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والفكرية واللغوية وإن كان هذا الشعب يدين باديان مختلفة، إلا أن عوامل اللغة والاقتصاد والعادات والتقاليد تجعل منه في الغالب شعباً واحداً. بينما تتسع الامبراطوريات عادة إلى شعوب متعددة ومتناقضة القوميات واللغات، فالامبراطوريات الفارسية والبيزنطية واليونانية والفرعونية ضمت بين ارجائها العديد من الشعوب التي لم تشكل في الغالب شعباً واحداً، وإن وقع بعض التمازج الحضاري في بعض الأحيان وفي بعض الفترات.

ومما لا شك فيه إن العوامل الطبيعية من جيولوجية وجغرافية والعوامل السياسية والعسكرية تؤثر بشكل بارز في تكوين الحضارات أو في انعدامها، فالمناطق التي تكثر فيها الحروب والزلازل والبراكين والأعاصير لا تهيء للدول وللشعوب أن تقيم حضاراتها وأن تتابع مدنيتها، ذلك لأن هذه العوامل المحيطة بالإنسان لا تجعله مستقراً وبالتالي لا تساعد على إيجاد حياة متطورة مستقرة،

لأن عامل الاستقرار والسلم من العوامل الفاعلة في بناء المجتمعات والحضارات. وعلى العكس فإن المناطق المستقرة من الناحية الطبيعية والتي تتوفر فيها المياه تساعد على تكوين حضارة مدنية بينما المناطق الصحراوية والتي يغلب عليها الجفاف تتباطىء فيها خطى الحضارة. وفيما يختص بالواقع السياسي فإن المناطق التي ينتشر فيها السلام مؤهلة للتطور الحضاري أكثر من المناطق التي تجتاحها الحروب والفتن والاضطرابات العسكرية.

ولا بد من الإشارة إلى أن الزراعة هي كمؤشر من مؤشرات الاستقرار وهي بالتالي من مؤشرات الحضارة الإنسانية، وفي هذا الإطار الإنساني المستقر باستطاعة الانسان البناء والإنتاج والتصنيع، وكل ذلك يستتبع بناء المناطق التي قد تتحول إلى مدن أساسية ولا ريب فيه بأن المدن هي المكان التي تتواجد فيه القوى الفاعلة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وليست بالضرورة أن تكون هذه القوى من أهل المدن أساساً، فالمعروف أن المدينة تجمع أدمغة وعقول أهل الريف والقوى الطموحة منهم والنازحة الى المدينة. وبالتالي فإن المدينة تصبح تلقائياً تجمعاً لمختلف الاتجاهات ومركزاً للتمازج الحضاري، وهي بدورها توفر لساكنيها الالتفات إلى قضايا العلم والاداب والفنون أكثر من سواهم.

والحضارة تحتاج إلى عوامل أخرى لوجودها، فوحدة اللغة ضرورية في الإقليم أو في الدولة أو المجتمع الواحد كأسلوب أساسي لتبادل الآراء والأفكار والعلوم، غير أن وحدة لغة العالم ليست ضرورية، ولكن ما هو ضروري تبادل معرفة اللغات بين شعوب العالم ليسهل التبادل الثقافي والحضاري، وبذلك يمكن تبادل الحضارات والتجارب العالمية بين شعوب العالم، لتكون عبر العصور حضارة عالمية وإن كانت لها بعض الأنماط والنماذج المتباينة بين دولة وأخرى.

أما فيما يختص بالمفاهيم الأخلاقية فإنها ضرورية في مختلف المجتمعات ذلك أنه لا يمكن بناء مجتمع انساني دون مفاهيم أخلاقية تسمو بالانسان ليكون فعلاً إنساناً وتسمو به ليطبق مفاهيم أخلاقية قد تتبلور بتبلور الأزمنة وتكون هذه المفاهيم بمثابة ضوابط اجتماعية لتصرفات المواطنين. إذ أن القوانين الوضعية

ليست رادعة في كل الأحوال. ولكن لا بد من الإشارة إلى أن المفاهيم والتقاليد الأخلاقية تختلف من بيئة إلى بيئة ومن مجتمع إلى مجتمع، فما يراه مثلاً الأوروبي عادة يراه الشرقي عيباً، غير أنه تبقى هناك مفاهيم حضارية ثابتة في المجتمعات الدولية اتفق عليها على أوجه التقريب فالكذب مثلاً أو السرقة أو القتل هي من جملة العوامل الممنوعة والمكروهة عالمياً وهي عيوب لدى كل المجتمعات. ومن هنا ضرورة الإشارة إلى أهمية تعميق المفاهيم الأخلاقية التي تشكل قواعد ثابتة في المجتمعات لتكون عاملاً من عوامل حضارتها.

التطور الحضاري

عاش الانسان القديم وفق الظروف البيئية المحيطة به، فأثَّر فيها وتأثَّر بها. فالعوامل الطبيعية اضطرته لأن يبدل في طريقة حياته ومكان سكنه، كما إن الانسان استطاع أن يستفيد من محيطه، فاستغل الأرض والبحر، فانتقل من الاعتماد في حياته على الصيد إلى الزراعة حيث الاستقرار، ورأى الانسان أنه لا بد أن يتعاون مع الانسان للحصول على مبتغاه المعيشي، فكان ذلك بمثابة البدايات لنظام سياسي بدائي، الأمر الذي استتبع وجود مسؤول عن انجاز أو مراقبة عمل ما، وكل ذلك كان تطويراً للنظام السياسي البدائي.

لقد استمر الانسان فترة طويلة قبل انتقاله إلى حياة الاستقرار يعتمد على الصيد، فسكان تاهيتي مثلاً كانوا يلقون في البحر سائلاً مخدراً ممزوجاً مع طعام السمك، فتتخدر الأسماك وتطفو على السطح. والاستراليون القدماء كانوا يسبحون تحت الماء ويتنفسون من خلال قصبات من الغاب، وذلك ليخدعوا البط فيجذبوه إليهم ويمسكون به. ومن هنا يلاحظ مدى التطور الحضاري، ففي الوقت الذي كان فيه الصيد يشكل عاملاً من عوامل الحياة أو الموت، لدى الشعوب القديمة، نراه لدى الشعوب المعاصرة عاملاً من عوامل اللهو والهوايات. والصيد لدى الشعوب القديمة لم يكن عاملاً من عوامل الحياة أو الموت بهدف الغذاء فحسب، بل لأن تلك الشعوب كانت تدافع عن وجودها وبقائها لاسيما عند صيد أو محاربة الحيوانات المفترسة. كما إن الانسان عندما

حارب الانسان إنما كان للسببين السابقي الذكر ـ الحصول على الغذاء والصراع من أجل البقاء ـ وهنا يمكن القول بأن الإنسان المعاصر إذا رأى فخامة وفن البناء في أوروبا وفي أميركا وآسيا، إنما هذه الفخامة وهذا الفن كلها واجهات حضارية متقدمة تخفي وراءها أشلاء من القتلى وعصارة من الجهد البشري المتواصل منذ آلاف السنين.

ولعل انتقال الانسان إلى مرحلة الرعي هي من المراحل المتقدمة في حياة القبائل والمجتمعات الأولى. لا لأن الإنسان غير من نمط حياته بل لأنه بدأ باستئناس الحيوان الذي كان يقتله أو يلاحقه قبل فترات، فاستفاد منه في عمليات النقل وفي الاستفادة من لحمه وحليبه ومن تناسله المتزايد، وبذلك ضمن الإنسان مورداً غذائياً جديداً. كما ان جني الحبوب الزراعية والتعرف إلى زراعتها من جديد يعتبر تطوراً هاماً في حياة الإنسان، لأنه استطاع بهذه الوسيلة ضمان مورد غذائي آخر نباتي إلى جانب المورد الحيواني. وبذلك ساعدت الزراعة والنار أيضاً على تحرير الإنسان من اعتماده على الصيد.

والانسان مر بمراحل عديدة في حياته المعيشية معتقداً أنه اكتشف أو استخدم مواد جديدة للحفاظ على حياته، فبعد اعتماده على الأسماك والطيور والمواد الزراعية والحيوانية اتجه نحو لحوم البشر، فقد تبين أن أكثر القبائل القديمة البدائية اعتمدت أكل لحوم البشر مثل سكان ايرلندة والدانمرك، وهذه الشعوب وسواها لم تكن تعرف الجنائز. فكل إنسان يموت لم يكن يدفن إنما يؤكل، وعرفت قبائل الكونغو بيع وشراء الرجال والأطفال والنساء على اعتبار أنهم سلع غذائية. وفي جزيرة بريطانيا كان اللحم البشري يباع في دكاكين كما يبيع اللحامون اللحم الحيواني في عصرنا الحاضر.

ومن الأهمية بمكان القول أن الإنسان بفعل ظروفه واحتياجاته استخدم النار التي اكتشفها ربما صدفة. وكانت النار أساساً مهماً ورئيساً في الصناعة وبلغت النار شأواً في حياة الأقدمين أن جعلوها إلهاً، فبدأوا في صناعة الآلات البدائية من خناجر وأسلحة وسهام ومناشير وفؤوس واستغل الإنسان

كل ما أحاط به من مواد حجرية أو نباتية أو حيوانيـة فاستخـدمها في صنـاعاتـه المتعددة والمطلوبة.

وتطورت الصناعة البدائية حينما تعرف الإنسان إلى نسج ملبوساته وبسطه وأغـطيته. ثم استغـل رمال وطـين الأرض فصنع منهـا الخوابي والجـرار والأواني الفخارية.

ولا بد من الإشارة أيضاً أن اكتشاف الإنسان وصناعته لمثل هذه الأمور لم تحصل في كل المناطق دفعة واحدة أو في نسبة واحدة من التطور، فإن المواد الأوليـة الموجودة في هذه المنطقة قد لا توجد في تلك وهكـذا. ولهذا كـان نظام المقـايضة البدائي من الأنظمة الاقتصادية الأولى التي استخدمها الإنسان في حيـاته فـما هو متوفر في هذه المنطقة يقايض مع ما هو متوفر في منطقـة ثانيـة. وكانت المقـايضة أحد الأساليب التي تمت بواسطتها تبادل المعـرفة الحضـارية. وبعـد تطور الحيـاة البشرية وقيام الحروب بين المناطق، تبين بأن هذه الحروب بما تشمل من سرقات ونهب وفرض جزيات كانت أيضاً من جملة عوامل التبادل الحضـاري والصناعي بين المناطق. ولم يستطع الإنسان في فترة قصيرة اختراع وسائل النقل التي كـانت نقلة أخرى بل ثورة حضاريـة وعامـل رئيسي من عوامـل التبادل الحضـاري بين الشعوب ذلك لأن التجارة كانت أكبر عامل متحرك لنقل السلع والصناعـات، بل والمفاهيم الإنسانية ذاتها مع ما يرافقها من عادات وتقاليد ولغات.

التنظيمات الاقتصادية والسياسية لدى الشعوب القديمة

لم تشهـد الشعوب البـدائية والقـديمة أنـظمة سيـاسيـة اقتصـاديـة بـالمعنى الصحيح فقبل انتشـار الملكية الخـاصة كـانت هناك مسـاحات شـاسعة عـامة لا تخص فئـات معينة، ولمـا انتشرت الزراعـة وبناء المنـازل الخاصـة شعر الانسـان بضرورة التملك كـأن تكون هـذه الأرض أو تلك خاصـة به. وبـالرغم من أن الإنسان عرف (العمل الجماعي) في الأراضي الزراعية غير أن ذلك لا ينطبق على تملك الموارد الغذائية فقد مال الإنسان القديم إلى تخزين حصته من الغذاء أو ما ينتجـه من أرضه أو من العمـل الجماعي. ولا يعني ذلـك أن الشعـوب القـديمـة

كانت تستأثر طمعاً في ملكية الانتاج، إنما عرفت في فتراتها الاقتصادية الصعبة توزيع بعض المنتجات المدخرة على سواها من الأفراد الذين كانوا يعانون من قلة الانتاج. وقد عرفت شعوب أميركا الشمالية وقبائل الهنود وسكان البيرو هذه الأنماط من الحياة الاقتصادية.

والجدير بالذكر أن التطور الاقتصادي والإنتقال من المجتمعات الطوطمية إلى الحياة المدنية أدت إلى بروز عامل التنافس لدى الأفراد والجماعات. وكان هذا العامل حافزاً لتقدم الأفراد وفي الوقت نفسه عاملاً من عوامل عدم الاستقرار. لذا فقد اتجهت المجتمعات نحو ملكية فردية أكثر ونحو انتاج فردي أكثر في إطار تعاون المجتمع ككل نظراً لأهمية العلاقة الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الواحد. وكانت خطوات الانتقال من النظام الجماعي إلى الفردي قد مر عبر قنوات اجتماعية منها: التحول من الملكية القبلية إلى ملكية الأسرة، ثم بدأت الأسرة ذاتها تتخذ صورة عائلية أبوية حيث تتركز السلطة كلها في أكبر الذكور سناً، وكان ذلك تحولاً جديداً بتركز الملكية تباعاً بين الأفراد. ثم اتبع نظام الوراثة من شخص إلى شخص، ولما ضاق المجال ببقية أفراد الأسرة فإنهم كانوا يضطرون في بعض الأحيان إلى التوجه إلى مناطق خارج نطاق الأسرة والقبيلة بحثاً عن أرض عامة يمتلكها وهو بدوره يورثها لسواه.

ونظراً للتطور الزراعي ومن ثم الصناعي برزت في المجتمعات قوى مستغلة وقوى مستغلة وساد نظام القوي والضعيف والغني والفقير وشهدت المجتمعات نظام الرق والاستعباد، ولذا فإن تطوراً كهذا كان يستتبع قيام قوى متصارعة في المجتمع: صراع الفرد مع الفرد وصراع الجماعات مع الجماعات وكل ذلك استتبع قيام الدولة.

الجذور الأولى لقيام الدولة

لقد كانت القبيلة النظام الاجتماعي والسياسي الأول للشعوب، وكانت القبيلة بمثابة اسرات متعددة ترتبط ببعضها بأواصر القربى والنسب، وتحكم فيما بينها وفق قوانين قبلية وعادات متوارثة. أما الخطوة الثانية في الإطار السياسي

للقبيلة فهو اتحادها وتعاونها مع قبائل أخرى قد تلتقي معها من حيث المصالح والمنافع ولرد الأخطار، فتتكون إذ ذاك العشيرة، فالعشيرة هي المرحلة الثانية نحو تكوين الدولة، لكن التطور في هذا المضمار كان بطيئاً لأن الكثير من الجماعات لم تقبل نظام الرئيس المسؤول الواحد في إطار العشيرة. ولا غرابة في ذلك ففي العهود القديمة أي في العصور اليونانية مثلاً شهدت اليونان نظام الرئيسين في المجتمع الواحد والقائدين في الحروب كما أن بعض الشعوب لم تعترف بالقوانين الوضعية المستحدثة، بل حاربتها واستمرت في الاعتراف بتقاليدها وعاداتها ومن هذه الشعوب ـ قبائل الهنود لاسيما قبائل (ياراكوا) أما هنود (اوماها) فقد أوجدوا (مجلس الحكماء السبعة) حيث يبقى الأعضاء يتشاورون في مشكلة ما حتى يصلوا إلى اجماع في الرأي. كما أن قبائل أخرى لم يتهيأ لها إيجاد زعيم إلا في زمن المحن والحروب. وما أن تنتهي الحرب حتى تنتهي مهمة الزعيم أو الرئيس، وقد عرفت قبيلة (ساموا) الهندية هذا النظام.

وهنا لا بد من الإشارة أيضاً إلى أن الحروب كانت من جملة العوامل التي شجعت على قيام الدولة، فكما أشرنا إلى أن صراع القبائل والمجتمعات أدى بكل فريق إلى العمل لما فيه تثبيت وجوده القبلي والسياسي في مواجة الفريق الآخر، واستتبع ذلك بالضرورة صناعة الآلات الحربية وإلى اكتشاف واتباع فنون الحرب وفنون السلم أيضاً، وبالتالي شعرت القوى المتصارعة إلى ضرورة قصوى في تنظيم أوضاعها وأفكارها السياسية والحربية سواء قبل الحرب أو في أثنائها أو بعدها.

ويرى (نيتشه) مثلاً، أن جماعة من الوحوش الكاسرة الغزاة بكل ما لهم من أنظمة حربية وقوة منظمة، ينقضون بمخالبهم المخيفة على جماعة أخرى قد تكون أكثر عدداً لكنها لم تتخذ بعد نظاماً يحدد أوضاعها. . . . ذلك هو أصل الدولة. ويرى آخرون أن الدولة تبدأ مختلفة عن النظام القبلي عندما يغزو جنس من الناس جنساً آخر. ويرى (اوبنهايمر) بأنه «أينما وجهت البصر قبيلة مقاتلة تعتدي على حدود قبيلة أخرى أقل منها استعداداً للقتال ثم تستقر في أرضها مكونة جماعة الأشراف فيها ومؤسسة لها الدولة». ويقول (راتزنهوفر) بأن «العنف

هو الأداة التي أوجدت الدولة». وأشارت أراء أخرى مؤكدة أيضاً بأن الدولة هي نتيجة للغزو وهي في قيام المنتصرين كطبقة حاكمة على المهزومين وأن الدولة هي نتيجة القوة وهي تظل قائمة بسند من القوة.

والدولة بمعنى آخر هي للحاكم ولمن استطاع السيطرة وليس لذوي القربى أو للقبيلة أو للعشيرة. ومن هنا تكمن أهمية القوة في بناء الدول وفي الحفاظ على كيانها ووجودها، غير أن الحكم المستبد لا يستطيع الاستمرار طويلاً في حكم الشعب، ولاسيما إذا تطورت وسائل الإنتاج وأدوات الثورة وتطورت المفاهيم السياسية، وهو ما حصل فعلاً بعد فترات من تكوين الدول في المجتمعات السياسية.

والجدير بملاحظته أن الشعوب التي عرفت الدولة شعرت بأهميتها نظراً لاتساع العلاقات الإقتصادية بين الأفراد والجماعات ولم يعد طابعها عائلياً بل أصبح في إطار المجتمع ـ الدولة، ومن هنا نشأت العلاقات بين الأفراد والجماعات في إطار القوانين. والحاجة إلى القوانين أدى إلى توسيع صلاحية حكومات الدول. ورأى المواطنون أنه: «خير لهم أن يدفعوا الجزية للص واحد عظيم من أن يدفعوا الرشوة والخوة لجميع اللصوص، وخير لهم دفع الضرائب للدولة من التقاتل بعضهم مع بعض، وخير لهم أن يتسلط عليهم ظالم واحد من أن يتسلط عليهم مجموعة من الظالمين».

ولقد تبين من أن الدولة خير من النظام القبلي، ويكفي أن نذكر مثلاً على ذلك جماعة (الباجندا) التي اضطر كل رجل فيها أن يسلح نفسه حين مات ملكها، لأن الخارجين على القانون اظهروا اظفار الفوضى والقتل والنهب في أرجاء البلاد. وتبين للشعوب أيضاً بأن القوة لا تكفي لاستمرار الدولة لهذا لجأت الدول الحديثة في تلك الفترات إلى بث روح المواطنية والأخلاق والاهتمام بالعائلة والمدرسة، لتبني مواطناً ولاؤه للدولة وليس للقبيلة.

ومهما يكن من أمر فقد عرفت الشعوب بأن القانون في الدولة يبقى عاملاً هاماً من عوامل استقرارها. ولقد استمد هذا القانون أساساً من العادات

والتقاليد السائدة التي كانت أقوى من القانون نفسه. ولهذا كانت المميزات الحميدة والشريرة في التقاليد تتبع وكأنها القانون، فالهنود مثلاً من سكان كاليفورنيا السفلى كانوا هم بمثابة القضاة لحل مشاكلهم، وكانت قوتهم الأداة التنفيذية للثأر مثلاً أو للاقتصاص من الجاني. ولكن تاريخ الحضارات أشار إلى تطور القوانين من الثأر إلى دفع التعويض، فرئيس الجماعة كان كثيراً من الأحيان يقنع أهل المقتول على استبدال الثأر بالذهب أو المتاع، ومن هنا ضرورة الإشارة إلى قانون حمورابي الذي وضع نظاماً يتضمن دفع التعويضات مقابل قتل انسان أو بتر ساقه أو يده أو ما شابه ذلك.

وبانتشار المشكلات الاجتماعية كانت الضرورة إلى نظام التحكيم أو ما عرف فيما بعد باسم (المحاكم) التي كانت تقاضي الناس المتخاصمين، وكان كلما ازداد وتوسع المجتمع في خصوماته كانت الحاجة أكثر إلى استحداث قوانين جديدة فالحاكم في المحكمة أو القاضي أصبح في الوقت نفسه مشرعاً وقانونياً، لذلك وجدت إلى جانب قوانين العرف والتقاليد قوانين وضعية، كانت التطورات الاجتماعية أحد أهم أسباب وجودها. ومن هنا كان لا بد من وضع قانون العقاب ضد المعتدي وحماية المواطن من الاعتداءات والمعتدين.

وللحضارة عوامل كثيرة أخرى لا تقل أهمية عن التي ذكرناها ويمكن اختصار هذه العوامل على النحو التالي:

١ ـ الأسرة ووظيفتها في المجتمع وأثرها في التكوين الحضاري.
٢ ـ الزواج وأثره الاجتماعي في تكوين المجتمعات والحضارات.
٣ ـ المبادىء والمثل والأخلاق.
٤ ـ الأديان السماوية وما قبلها وبعدها من أديان ومعتقدات.
٥ ـ الآداب والعلوم والفنون وسواها.

الانتقال إلى العصور التاريخية

من المرجح أن انتقال الإنسان من عصور ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية إنما يعود تاريخه إلى حوالي ستة آلاف عام، وإن عصر اكتشاف المعادن

حدده بعض العلماء حوالي سنة (٤٠٠٠ ق. م.). ولذا فإن النقلة الإنسانية إلى العصور التاريخية تبدأ في نهاية العصر الحجري الحديث.

١ ـ المعادن

إن استخدام المعادن من المميزات الهامة للعصور التاريخية فمعدن النحاس أول معدن يلين في الصناعة القديمة، وقد اثبتت الآثار والحفريات الأثرية عن استخدام المعادن في بلاد ما بين النهرين في حوالي ٤٥٠٠ ق. م.... ويرى علماء المعادن أن تطويع الإنسان للنحاس قد وفر الكثير على ذلك الإنسان نظراً لما كان يلاقيه من صعوبة في استخدام الأحجار في أدواته، بينما استطاع بواسطة النحاس أن يكيف الأدوات وفق ارادته ومتطلباته.

ومن المرجح أن انسان مصر الفرعونية هو الذي استطاع أن يطور صناعة النحاس وذلك بواسطة صب النحاس المصهور في إناء من الطين أو الرمل حيث يحصل على الشكل الذي يريده وهو ما دلت عليه النقوش النحاسية الناتئة في بعض المقابر المصرية لاسيما مقبرة رخ ـ مارا، وذلك في حوالي ١٥٠٠ ق. م. وبواسطة ليونة النحاس استطاع الإنسان أن ينوع صناعاته مما فتح أمامه السبل والآفاق الجديدة سواء بالنسبة للتجارة أو الصناعة.

وتبعاً للاحتياجات الصناعية والحربية فقد اضطر الإنسان أيضاً أن يدخل مواد جديدة على مادة النحاس لكي تعطي صلابة وقوة أكثر، لذا فبعد أن اكتشف القصدير والزنك أضافهما إلى النحاس فحصل على البرونز أو ما يعرف أيضاً باسم النحاس الأصفر، وقد وجدت مثل هذه المواد في مصر وفي بلاد ما بين النهرين وفينيقيا وكريت. غير أن شعوباً أخرى عرفت مادة الحديد قبل سواها لاسيما شعوب فنلندة وشمال روسيا وشمال أميركا وأوستراليا واليابان وإفريقيا الوسطى وجنوب الهند.

والحقيقة فإن القصدير والزنك اللازمين لتقوية النحاس كانا من المواد القليلة ولهذا كان لا بد للبحث عن مادة قوية جديدة، فكان اكتشاف الحديد واستخدامه. ففي بلاد ما بين النهرين كانت المادة المفضلة لدى السكان هي

مادة الحديد بل إنهم اعتبروها المادة النادرة الثمينة. لاسيما في بابل حوالي ٢١٠٠ ق. م. وقد وجدت الكثير من الأدوات الحديدية في بلاد ما بين النهرين وفلسطين حدد بعضها بتاريخ ١٣٥٠ ق. م. وبعد هذا التاريخ اكتشف الحديد في مصر في عهد الملك رمسيس الثاني، ثم ظهر في بحر إيجه، أما أميركا فلم تعرفه إلا عندما أدخله الرحالة كريستوف كولومبوس في التاريخ الحديث.

٢ ـ الكتابة والتوثيق

إن إهم ثورة ونقلة في تاريخ الحضارة البشرية هي في انتقال الانسان إلى دور الكتابة. فقد بدأت الكتابة أولاً بواسطة الرموز والزخرفة الصورية. وكانت كل منطقة من مناطق العالم القديم تختلف في درجة توصلها للكتابة أو الرموز.

ففي مصر استخدم المصريون الكتابة الهيروغليفية (الكتابة المقدسة أو البطولية)، وكانت هذه الكتابة تصويرية، فالصورة تعبر عن الشيء المراد التعبير عنه. وقد مرت هذه الكتابة بعدة مراحل وانتقلت فيما بعد إلى الكتابة القبطية المعروفة. وقد وجدت الكتابات الهيروغليفية في أكثر المعابد والقصور المصرية القديمة، وكانت أشهر هذه الكتابات الكتابة التي عثرت على (حجر رشيد) وبواسطة فك رموز هذا الحجر أمكن التعرف إلى تاريخ الحضارة المصرية.

أما في بلاد ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) فقد استخدم السكان هناك أشكال الأشياء للتعبير عن أفكارهم، واستخدموا في هذا المجال أدوات حادة تشبه المسامير، كما إن الأشكال الكتابية كانت محفورة في الألواح. وكانت الكتابة السومرية تبدأ من اليمين إلى اليسار ومن أعلى إلى أسفل، ثم أدخل عليها الكثير من الإضافات وهي التي سميت بالكتابة المسمارية.

أما فيما يختص باللغة العربية القديمة فقد يرجح أنها مشتقة من الحروف السينائية (سيناء) ذات الأصول الهيروغليفية، هذا فيما يختص بلغة أهل الجنوب (سبأوحمير) أما لغة عرب الشمال فقد استخدموا العربية ذات الحروف الأرامية وبالخط النبطي.

وهناك آراء تشير إلى أن الفينيقيين اعتمدوا أيضاً على الحروف السينائية أو

الكريتية نظراً للعلاقات التجارية المتبادلة بين فينيقيا ومصر وكريت، غير أن الفينيقيين أنفسهم كانت لهم أيضاً لغة وحروفاً خاصة بهم بدأوا بتطويرها تباعاً من الرسوم والأشكال إلى أن اتخذت شكل الأبجدية المعروفة، ويذكر بأن الأبجدية الفينيقية نظراً لأهميتها واستيعابها فقد انتشرت في العالم واصبحت لغة عالمية. غير أن عالم الحضارة (ديورانت) يعتبر بأن الفينيقيين لم يوجدوا الأبجدية إنما نقلوها عن مصر وكريت ثم صدروها إلى الخارج، وبذلك على حد قوله اصبحوا وسطاء لأحرف الهجاء يأخذونها من أصحابها ليذيعوها وينشروها.

هذا وقد وجدت نقوش تصويرية في مناطق عديدة من العالم كانت بداية لكتابات تلك المناطق ففي عيلام (فارس - إيران) وجدت مثل هذه النقوش الشبيهة بالنقوش البابلية نظراً لقرب المنطقتين وارتباطهما ببعض، كما وجدت نقوش أخرى متقاربة في بلدان البحر المتوسط مما يشير إلى تبادل الفكر والتمازج الحضاري بين هذه البلدان.

لا بد من الإشارة أيضاً إلى أن هناك ملامح أخرى حضارية تميزت بها بعض المناطق بالإضافة إلى استخدام المعادن والتوصل إلى الكتابة، فعلى سبيل المثال فإن الملامح المميزة للنقلة إلى التاريخ في مصر القديمة فإنها تتميز في تحقيق الوحدة السياسية بين الجنوب والشمال وتكوين دولة متحدة في كافة المجالات السياسية والحضارية والفكرية. وهذه الوحدة السياسية إنما هي مدلول على بدء استقرار الإنسان المصري وتوطيد كيانه السياسي.

كما إن تزايد الاتصالات الدولية بين مختلف بلدان منطقة الشرق الأدنى القديم تعتبر نقلة تاريخية هامة نظراً لأهميتها الحضارية والاقتصادية والفكرية والعلمية. وقد أدت الكتابة بطبيعة الحال الى التوثيق بصورة أو بأخرى.

التوثيق عامل حضاري

إن التدوين والتوثيق والفهرسة والتأريخ كلها من العلوم القديمة التي مرت بمراحل تعود بعصور بعيدة إلى العصور المعروفة بالعصور التاريخية أي منذ نشوء الكتابة. وقد عرفت مناطق الشرق الأدنى القديم واليونان هذه العلوم بسبب

الحاجة إلى التدوين وحفظ المعلومات والخوف عليها من الضياع، واتخذت أهمية بعد انتشار الكتابة وتداولها في العالم القديم.

ففي بلاد ما بين النهرين عثر على نصوص وسجلات محفوظة على ألواح من الطين، ذلك لأن مادة الطين كانت الأكثر شيوعاً وانتشاراً في بلاد ما بين النهرين، ثم لأنها أكثر ديمومة بعد جفافها من أوراق البردى التي كانت بدورها تحفظ ولكن بسبب جو مصر الجاف وليس بسبب طبيعة الأوراق. وقد عمد سكان بلاد ما بين النهرين إلى حفظ الوثائق العامة لعدم التلاعب بها، مما اضطرهم إلى وضعها في مغلفات أخرى من الطين. وقد وجدت الآلاف من الوثائق الخاصة بالملوك والكهنة والقادة ووثائق ذات طابع عام شعبي، ويعود بعضها إلى العام ١٥٠٠ ق. م. وكان هذا التدوين والتوثيق أداة هامة لحفظ التراث السومري والكتابة السمارية التي فكت رموزها وأفادت عن معالم الحضارة في بلاد ما بين النهرين.

ولا بد من الإشارة إلى أن مادة الطين بالرغم من أهميتها في حفظ ألواح السجلات المسمارية غير أنها جعلت السومري مقيداً سواء من حيث الكتابة أو الحجم. فطبيعة الطين أدت إلى عدم وجود الكتاب بمفهومه الصحيح، ثم إن الألواح الطينية أخذت أحجاماً كبرى وعديدة لكتابة القوانين والملاحم، مما اضطر السومري أحياناً إلى استخدام الألواح المقعرة والمجوفة للكتابة في داخل الألواح وعلى جوانبها بينما نجد المصريين أكثر تحرراً من هذه القيود، فاستخدامهم لأوراق البردى جعلهم يكتبون الكتابات الطويلة أو القصيرة دون حرج أو صعوبة، لأنه كان باستطاعتهم أن يلفوا ورقة البردى بعد انتهاء الكتابة عليها، ومجموعة من أوراق البردى كانت تكون كتاباً مصرياً، وساعد جو مصر الجاف على حفظ هذه الأوراق من التلف.

والأمر الملاحظ بأن عدم توصل السومريين إلى «الكتاب» أدى إلى ضياع بعض الألواح أو تناثرها أو عدم ترتيبها بالتتابع وكان لهذا فائدة لأنهم اضطروا إلى إنشاء دور السجلات وخزانات الألواح لحفظها من الضياع، وقد سبقوا في ذلك المصريين واليونانيين لاضطرارهم إلى ذلك. في وقت شعر فيه المصريون بأن

وجود «الكتاب» بحد ذاته يحفظ ما كتب عليه من علوم وفنون. وقد وجد في معبد مدينة «نفر» السومرية على خزانة ضمت آلاف من الألواح الطينية تضمنت نصوصاً علمية وأدبية ودينية. وكانت هذه المدينة من أهم مراكز الديانة السومرية وكان يوجد فيها معبد الإله «أنليل». وتبين بأن هذه الألواح قد وضعت على رفوف توزعت بين الخزانة والمكتبة ودائرة السجلات الموجودة في المعبد، كما وجدت مئات أخرى من الألواح الطينية في مدرسة مدينة «نفر» تضمنت نماذج من ألواح التعليم الذي أعدها المعلمون ونماذج أخرى أعدها الطلاب، وبالمقارنة تبين بعض الأخطاء في ألواح الطلاب. وذكر بأن المدارس السومرية، بل مدرسة حمورابي تكاد تكون أقدم المدارس في العالم القديم.

والحقيقة فإن أهداف هذا التدوين والتوثيق إنما يعود أسبابه إلى حفظ العلوم والفنون، بل إلى حفظ اللغة ذاتها، لأن عدم كتابة اللغة لا يؤدي إلى عدم تطورها فحسب، بل إلى ضياعها. وكان عامل الاهتمام بحفظ اللغة والاهتمام بها قد أدى إلى وضع قوائم لغوية أو ما يعرف اليوم «بالقواميس اللغوية» فقد عثر في مدينة «أورك» (الوركاء) على مجموعة من هذه القوائم ـ القواميس تعود إلى ما قبل ٣٠٠٠ ق. م. تضمنت عدداً كبيراً من الكلمات السومرية ومرادفاتها وكلمات حيثية ومرادفاتها البابلية وهكذا. . .

وشهدت بلاد اليونان والرومان وبلاد المسلمين فيما بعد الكثير من وجود الفهارس والمكتبات والمخطوطات وتنظيم الكتب والوثائق. ففي العهد الروماني مثلاً بالإضافة إلى وجود المكتبات وجدت المحفوظات والنشرات اليومية. واحتفظ مجلس الشيوخ بمجموعات من الوثائق والقرارات الحكومية وقد وجد في المجلس مكان لحفظ هذه القرارات يعرف اليوم باسم «الأرشيف» كان الشيوخ يعودون إليها لقراءتها أو لتعديلها على غرار ما حدث بعد اغتيال اغسطس قيصر.

وفي عهد القنصل قيصر سنة ٥٩ ق. م. صدرت صحيفة رسميه يومية عرفت باسم «الأعمال اليومية» (Acta diurna) وقد اشتملت على ذكر عدد المواليد والوفيات في روما والأخبار المالية والكميات الغذائية وقرارات المحاكم

والحكام الجدد ووصاياهم. كما تضمنت وقائع ومضابط مناقشات مجلس الشيوخ (Acta senatus) والمنشورات القضائية. والأمر الملاحظ أنه كان لهذه الصحيفة بعض النسخ توزع على المعنيين في روما والولايات.

بالإضافة إلى «الأعمال اليومية» عرفت روما دار السجلات في معبدي فينوس وليبتينا التي كانت تخص بتدوين عدد المواليد والوفيات، كما إن كبار القادة والزعماء اعتمدوا على المذكرات الخاصة والعامة، فلم يكتفوا بالصحيفة الرسمية، بل اعتمدوا على مذكراتهم ومذكرات مساعديهم وامنائهم وعرفت روما أيضاً «الصحيفة العامة» التي كانت تنشر الأخبار العامة التي من المفروض أن يعرفها المواطن، وكانت تكتب على لوحات للإعلان عرفت باسم (Alba) توضع في الأماكن العامة. وكان يمكن للمواطن أن يقرأ الأخبار الجديدة تباعاً، بل لم تمانع الحكومة من نسخها على أيدي المواطنين إذا شاؤوا بهدف نشر الأخبار بشكل أسرع وأوسع.

للمريد من التفصيلات حول عوامل الحضارة أنظر المصادر والمراجع التالية:

- أندريه ايمار، جانين أوبوايه وآخرون: تاريخ الحضارات العام، أجزاء ١ ـ ٧، باشراف موريس كروزيه، تعريب: فريدم داغر، فؤاد ج. أبو ريحان، يوسف أسعد داغر وآخرون، منشورات عويدات ـ بيروت ١٩٦٤ ـ ١٩٧٠.
- أربولد توينبي: تاريخ الحضارة الهلينية، تعريب: رمزي جرجس، مراجعة: د. صقر خفاجة، مكتبة الانجلو ـ المصرية القاهرة ١٩٦٣.
- أمين سلامة: التاريخ الروماني، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٩.
- الفرد زيمّرن (A. Zimmern): الحياة العامة اليونانية السياسية والاقتصاد في أثينا في القرن الخامس (The Greek commonwealth) تعريب: د. عبد المحسن الخشاب، مراجعة: أمين مرسي قنديل، لجنة البيان العربي ـ الطبعة الخامسة ـ القاهرة ١٩٥٨.
- جورج كونتنو: المدنيات القديمة في الشرق الأدنى (les civilizations anciennes du proche - orient) تعريب: متري شماس، المنشورات العربية ـ بيروت (لا. ت.).
- جورج كونتنو: الحضارة الفيقية (la civilization phénicienne)، تعريب: د. محمد عبد الهادي شعيرة، مراجعة د. طه حسين، شركة مركز كتب الترق الأوسط، القاهرة (لا ت.) (سنة التأليف ١٩٤٨).
- حسان حلاق: مقدمة في مناهج البحث التاريخي، دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨٦ =

....

= ـ سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، تعريب: د. السيد يعقوب بكر، مراجعة د. محمد القصاص، دار الكاتب العربي للطباعة، والنشر ـ القاهرة (لا. ت.).

ـ د. محمد عبد القادر محمد: الساميون في العصور القديمة، دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٦٨.

ـ د. مصطفى العبادي: مكتبة الاسكندرية القديمة. مكتبة الانجلو ـ المصرية ـ القاهرة ١٩٧٧.

ـ ملرش، ايج. أي. ايل: قصة الحضارة في سومر وبابل، تعريب: عطا بكري، مطبعة الارشاد ـ بغداد ١٩٧١.

ـ ول ديورانت: موسوعة قصة الحضارة، أجزاء ١ ـ ٢٠، تعريب: محمد بدران، جامعة الدول العربية، الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٥٦ ـ ١٩٥٩.

ـ وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم. أجزاء ١ ـ ٨، تعريب: د. محمد مصطفى زيادة، د. عبد المنعم أبو بكر وآخرون، مكتبة النهضة المصرية ـ مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، القاهرة (لا. ت.).

- Frankfort, H; the Birth of civilization in the Near East, London 1951.
- Glover, T. R; The Ancient world, Pelican Book 1948.
- Parsons, E A, The Alexandrian Library, London 1952.

الفصل الثاني

الحضارة المصرية القديمة

مر السكان المصريون القدماء بمرحلة (التحدي والاستجابة) إذ أنه لو لم يتحدوا الطبيعة ويطوعوها وفق احتياجاتهم، وانهم لو لم يستغلوا المواد التي وجدوها لما كانت تكونت لديهم حضارة.

فالسكان المصريون مثلاً تحدوا مناطق الجفاف بتغيير سكناهم ومكان إقامتهم وطريقة معيشتهم، وكان رد فعلهم هذا هو من جملة العوامل التي أدت إلى إيجاد حضارتهم ومن ثم حضارات سواهم أيضاً. ولقد تمثل تغيير أسلوب هؤلاء السكان في تغيير طريقة معيشتهم وتحولهم من جامعي وملتقطي طعام ومن صيادين إلى زراع. فعلى سبيل المثال فعندما وجد المصريون مستنقعات الأدغال الموجودة في وادي النيل فإنهم اقتحموها وحولوها إلى مناطق زراعية هامة، واختفت المستنقعات وحلت محلها مجموعة من القنوات والحقول والمدرجات الزراعية. وبعد مضي ما يقرب من ستة آلاف عام على عمل المصريين ترك الطابع المصري على الأرض المصرية. وفي عهد الدولتين القديمة والوسطى كانت رؤية التمساح وفرس النهر مثلاً من الحيوانات المألوفة في وادي النيل كما يستدل على ذلك من النقوش والرسوم. وفي النص التالي وصف بلاد السودان التي اعتبرت موحشة بعكس وادي النيل: «إن مشهد بحر الجبل في كل مكان من مجراه على طول منطقة السد المليئة بالغاب رتيب نوعاً ما. إذ ليست هناك شواطيء البتة اللهم إلا عند قليل من النقط المنعزلة، ولا توجد شبه ضفة على حد المياه وتنتشر المستنقعات في كلا الجانبين... فإذا فاض نهر وارتفعت مياهه بمقدار نصف متر غمرت البحيرات مسافات هائلة... ويندر جداً مشاهدة أية

علامة تدل على الحياة البشرية في جميع أنحاء المنطقة وخاصة بين بور وبحيرة نو. . . . وتتسم المنطقة جميعها بمظهر الخراب الذي تعجز الكلمات عن وصفها ولا يمكن إدراك حقيقتها إلا برؤيتها عن كثب». وهذه المنطقة غير مأهولة لأن الشعوب التي عاشت في تخومها لم يواجهها ذلك الاختبار الذي واجه سكان مصر.

هذا ويذكر توينبي من أن السلالات السودانية القديمة لا تزال تعيش معيشة أسلافهم القدماء بعكس الوضع عند المصريين. ومما يذكر في هذا الصدد من أنه «تعيش على ضفاف أعالي النيل اليوم شعوب تتصل بالمصريين القدماء من حيث المظهر والقد ونسب الجمجمة واللغة والملبس. ويحكم هذه الشعوب سحرة صانعوا أمطار أو ملوك مؤلهون كانوا حتى وقت قريب يذبحون في شعائر دينية وتنتظم القبائل في عشائر طوطمية. وفي الحق يبدو كما لو كان التطور الاجتماعي بين هذه القبائل المقيمة على ضفاف أعالي النيل، قد توقف عند المرحلة التي عبرها المصريون قبل أن يبدأ تاريخهم».

ويمكن القول بأن الحضارة المصرية ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالأرض المصرية وبالبيئة التي عاش المصري بين ظهرانيها. وكما قال هيرودوت (مصر هبة النيل). ومن هنا فإن خصوبة الأرض المصرية إنما تعود الى النيل وفيضان مياهه التي تحمل الطمي الخصب لاسيما في أوائل فصل الصيف، لذا كان من الطبيعي أن يقدس المصريون نهر النيل ويقيمون له الحفلات والأعياد السنوية، كما نظموا له الأغاني. ولا بد من الإشارة إلى أن بعض العلماء يرون بأن المصريين لجأوا في فترة الفيضانات إلى المناطق الداخلية وبعض المرتفعات القريبة من النيل ريثما تنتهي فترة الفيضانات التي كانت تمتد أحياناً إلى أربعة شهور. وبعد انتهاء الفيضانات كانت تقام الاحتفالات لاعتقاد المصري إنه أصبح بالإمكان استغلال الأراضي الخصبة. وبذلك استطاع الفلاح المصري من التحول إلى منتج للغذاء بصورة منتظمة، وبدأ المصري يتجاوب مع متطلباته البيئية الزراعية ببناء مساكن له في أماكن زراعته، ومن ثم رأى أنه لا بد من صناعة بعض المعدات اللازمة في الزراعة. ولم يأت العصر الحجري الحديث حتى أصبح

الإنسان المصري يعيش في قرى صغيرة. وقد عثر المنقبون على إحدى القرى المصرية القديمة المعروفة باسم «مرمدة» وهي تقع على حافة الدلتا الغربية واعتبرت بأنها كانت مركزاً من مراكز الحضارة المصرية القديمة. وقد تميز سكان هذه القرية القديمة بتوصلهم إلى الزراعة واستخدامهم أدواتها الزراعية بعكس سكان منطقة الخرطوم.

ومن القرى التي وجدت من عصور ما قبل التاريخ (٤٤٠٠ ق. م.) قرية البداري إحدى قرى الصعيد على الضفة الشرقية للنيل وهي معاصرة لحضارة مرمدة فقد عرف سكان البداري الملابس الكتانية والجلدية كما استخدموا الأساور والعقود والأمشاط العاجية وصنعوا الفيروز والعقيق، كما عرفوا الأسرة الخشبية. ولقد اعتقد سكان البداري بالحياة بعد الموت فدفنوا موتاهم بطريقة جيدة قرب منازلهم، ودفنوا معهم بعض حيواناتهم وأدوات الصيد والحرب.

وفي عصر ما قبل الأسرات برزت الحضارة المصرية بشكل أساسي، ففي هذا العصر وضعت أسس الديانة المصرية وظهرت أصول تقاليد الحكم وعادات المجتمع ثم الانتقال من حياة العزلة إلى حياة التمازج الحضاري مع الحضارتين السومرية والبابلية. وكانت التجارة أهم عوامل هذا التمازج. وعلى هذا فقد بدأت الحضارة المصرية عبر آلاف السنين ترسم خطوطها وأنظمتها الرئيسية السياسية والإدارية والاجتماعية والعسكرية والدينية والاقتصادية...

١ ـ النظام السياسي في مصر[1]

أ) ـ الملكية

كانت الملكية في مصر رمزاً لوحدة البلاد، وكان الملك (مينا) أول من حقق الوحدة السياسية للأقاليم المصرية. ونظراً لسلطة الملك وارتباطها بالقوة

(١) لن نشير في هذا الكتاب إلى العلوم التي عرفتها الحضارات القديمة لأننا خصصنا لها كتاباً منفصلاً تحت عنوان: مقدمة في تاريخ العلوم والتكنولوجيا، الدار الجامعية ـ بيروت ١٩٩٠.

والسيطرة فقد ألّه المصريون ملوكهم، فالملك مثلاً هو إلّه السماء وابن اوزريس كما أن الملك رعمسيس كان إلهاً نسبة للإلّه (رع) إلّه الشمس. وكان الملك أو الفرعون المصري إلهاً في حياته ومماته فهو مصدر الخير والإرتزاق والماء وبفعله تخصب الأرض وتستمر الحياة للمصريين.

وكان الابن الأكبر هو الوريث الشرعي لوالده الملك، وبعد وفاة والده يتوج في مدينة ممفيس وتجرى طقوس دينية في حفل التتويج تدل على وحدة البلاد المصرية أي مصر السفلى ومصر العليا. وقد وجد في بعض المقابر المصرية الملكية مقابر الملوك وجدت فيها الصولجان وهي إشارة من إشارات الملك. وباعتبار الملك المصري ذات صفات إلهية بنظر المصريين القدماء فإنه كان حريصاً على الظهور باستمرار بمظهر الأبهة والشعارات المقدسة وتقلد المجوهرات الذهبية كما اظهرت الرسوم الملوك وهم يصطادون التماسيح والفيلة وفرس النهر والأسود وهي للدلالة على مدى قوة الملك.

وكان على الملك واجب الدفاع عن رعيته وحماية مصر من الأخطار الداخلية والخارجية على غرار ما حدث في مصر من ثورات داخلية أو هجمات خارجية كهجمات الهكسوس. لذا فإن الملك يتوسم فيه أن يكون شجاعاً قوياً.

أما فيما يختص بسلطات الفرعون فهو يعتبر مصدر السلطات وقراراته ملزمة لا لأنها تصدر عن فرعون فحسب لكن لأنه كان لها صفة الوهية مقدسة ومن هنا انبعثت فكرة السلطة القائمة على «الحق الإلّهي» وكان الملك هو الذي يفصل في القضايا الكبرى.

وكان على الفرعون أن يؤمن لمصر إدارة ملكية عادلة غير أن مشيئته وإرادته هي القانون ولها ما للعقيدة الدينية من قوة، ذلك لأن الذائع وقتذاك أن الإرادة الملكية لم تكن تهدف إلا لخير مصر. ويمكن القول بأن الملك في مصر هو المرجع الأعلى والأساسي لكل أمور مصر، وإليه وحده ترفع الأمور والبت فيها.

ب) ـ الحكومة والإدارة

عثر في بعض المواقع المصرية الأثرية على عدد من البرديات والفخاريات تضمنت بعض المراسيم والتشريعات والتقارير والقرارات والحسابات الملكية. وقد أثبتت الدراسات الحضارية بأن الملك كان يتولى أمور الحكومة المركزية ويتقصى أحوالها وكان يطلع على التقارير والمراسلات، غير أنه كان يتقبل الاستشارات والإرشادات من أعوانه من ذوي الخبرة والإدارة.

إلى جانب الملك، عرفت مصر وزراء ومعاونون للملك كان عليهم تنفيذ الأوامر وإطلاعه عليها، وقد أشارت النصوص الرسمية إلى هؤلاء الوزراء فتصفهم أحياناً بـ (فم الملك) أو (لسان الملك) أو (عين الملك) أو (أذن الملك) وكان يوجد من بين الوزراء «الوزير الأول» أو الوزير المميز، ويكون عادة موضع ثقة الملك. وفي عهد الأسرة ترأس الوزير الأول المجلس الأعلى للوزراء في حال اضطرار الملك إلى التغيب أو في حال إصدار الملك أمراً لعقد مثل هذه الاجتماعات.

أما فيما يختص بالإدارة المحلية والإقليمية، فإنها لم تكن على الدوام قادرة على فرض النظام في كل المناطق، ذلك لأن عدم انتشار وسائل النقل والطرق المعبدة كان يؤخر إقرار النظام لاسيما في المناطق التي كانت تتأثر مباشرة بفيضانات النيل، حيث لم تكن الطرقات قائمة في تلك المناطق. بالإضافة إلى أن استخدام الحصان لم يكن أمراً ميسوراً في تلك الفترة إلا للأغنياء وعلية القوم. غير أن مصر شهدت تقسيم المناطق إلى وحدات إدارية وصلت في بعض الأحيان إلى أربعين وحدة أو مديرية. وكان يتولى إدارة هذه الإدارات أو الوحدات موظف يمثل الفرعون في الإقليم، وكان هذا الموظف يعين بدوره صغار المسؤولين في وحدته وكانوا بدورهم مسؤولون أمامه، وهو بدوره يُسئل أمام الفرعون. وقد شهدت الإدارات المراقبين والمفتشين والسعاة والكتاب. كما إن كاهن الوحدات كان يعتبر من أصحاب المناصب الكبرى وله نفوذ كبير لما يتمتع به من قدسية. ولا بد من الإشارة إلى أنه بالرغم من بعض فترات الفوضى في الإدارة المصرية، غير أن التاريخ المصري القديم شهد دقة في التنظيم

الإداري لاسيما في الأمبراطورية الوسطى، وقد جرى احصاءات دقيقة حول عدد أفراد الجيش وأفراد الأسر وتبيان ما تملكه الأسرة من ماشية وعقارات والمراقبة على عمليات البيع والشراء والإرث التي خضعت للتسجيل في الدوائر الحكومية.

وكانت الإدارة تسهر على جباية الضرائب وتحدد أحكام الخراج والميرة ورسوم الماشية وضريبة الأعشار. وكان من نتيجة تنظيم الجهاز الإداري ورعايته للوضع المالي إن نعمت مصر بغنى كبير، وكان هذا الغنى الملكي من الأسباب التي دفعت بشعوب وغزاة في مناطق أخرى من العالم للتوجه نحو مصر لاحتلالها. كما إن الغنى الذي تيسر لملوك مصر هيأ لهم أسباب تكوين جيش كبير منظم وإدارة منظمة وإنشاء قصور فخمة.

٢ ـ النظام الاقتصادي

أ) ـ الزراعة

تعتبر الزراعة المورد الأساسي لمصر، والنيل، هو المورد الوحيد لهذه الزراعة، ولقد كتب الرحالة الإغريق عن العمل الزراعي في مصر وكيفية العمل وطبيعته وغنى الأرض المصرية. وكان الفلاح المصري يعاني الكثير من التعب بسبب طبيعة البلاد الزراعية لاسيما فيما يختص بوقت فيضانات النيل، كما إن العوامل السياسية والاجتماعية التي أحاطت بالفلاح جعلته أكثر تعباً وضيقاً. وبالرغم من ذلك فإن ما شهدته مصر من تطور زراعي إنما يعود فضله إلى هذا الفلاح.

وكانت الحبوب لاسيما القمح والشعير من أهم المحصولات الزراعية يرافقها تربية الماشية والصيد. وكانت المواد والماشية والطيور الأسس الغذائية للشعب المصري.

ب) ـ الصناعة

كانت مصر تفتقر إلى الحديد وخشب البناء ولم ينتشر الحديد إلا نتيجة

التجارة الخارجية قبيل الألف الأول ق. م. بينما أشجار النخيل المتوفر، في مصر لم تكن صالحة للصناعة الخشبية، ولهذا استورد المصريون الأخشاب من بلاد النوبة ومن فينيقيا أخشاب الأرز والصنوبر، وكانت كلها نواة لصناعة السفن.

أما الأحجار الصلبة الصالحة للبناء فكانت متوفرة بكثرة في مصر، ولهذا ازدهر فن البناء لاسيما الضخم منه، كما أن وجود الطمي الناجم عن الفيضانات سهّل مهمة البنائين المهندسين الذي وجدوا مادة أولية للبناء. كما صنع المصريون الكثير من الأدوات النحاسية نظراً لتوفر النحاس في سيناء وقاموا بصناعات أخرى مثل الحلى والأساور والعقود بسبب توفر الزمرد والفيروز في سيناء والنوبة.

ولوحظ بأن المصريين توصلوا إلى الصناعات النسيجية الكتانية، وتوصل الصانع المصري إلى صناعات متعددة سواء في مجال التجارة أو الصناعة أو النقش على الأحجار أو على النحاس أو على الذهب.

ج) ـ التجارة

انقسمت التجارة في مصر إلى قسمين: التجارة الداخلية والتجارة الخارجية. فقد كانت الصناعة المصرية كلما ازدادت نمواً كلما ازدادت حاجة إلى التجارة لتصريف هذا الانتاج بين المصريين أنفسهم أو للخارج. ولقد عثر في الأماكن الأثرية المصرية لاسيما في أواخر القرن الثامن ق. م. على عملات أجنبية غير مصرية مما يشير إلى اتساع نطاق التجارة الخارجية مع الإشارة إلى إن نظام المقايضة كان لا يزال معمولاً به أيضاً. وكان الملك هو السيد الحقيقي للتجارة الخارجية، خاصة وان البلاط الملكي كان هو أحد الأماكن التي تحتاج إلى موارد ومستهلكات لا يوجد منها في مصر، لذا كان الملك يقرر إرسال بعثات تجارية إلى الخارج لغاية ملكية، ثم تطور هذا الهدف من نطاق ملكي إلى نطاق عام.

وكانت العلاقات المصرية ـ الفينيقية إحدى العلاقات المميزة في تاريخ التجارة المصرية والفينيقية لاسيا مع مدينة بيبلوس (جبيل) وقد وجدت آثار

مصرية متعددة في جبيل تؤكد هـذه العلاقـات، وبين هـذه الآثار وجـود تماثيـل لآلهة مصرية ولصناعات مصريـة متعددة كـما وجدت في مصر بعض الصنـاعات الفينيقية. كما أقامت مصر علاقات تجارية مع شبـه الجزيـرة العربيـة عبر البحـر الأحمر وخليج السويس.

٣ ـ النظام الاجتماعي

أ) الرق

شهد التاريخ المصري القديم نظام الرق (العبيد) الذين كانوا في الغـالب من الأجـانب ومن أسرى الحـروب أو ممن تم شراؤهم من الخـارج بـواسـطة العمليات التجاريـة. ولم يكن عدد هؤلاء العبيـد كبيراً بـالنسبة إلى عـدد سكان مصر، وكان الملك يحتفظ بأكثر هؤلاء العبيد في قصره ليقـوموا بتـأدية الخـدمات للملك ولحـاشيته، واستغـل عدد منهم في تكـوين الجيش المصري. لذا فقـد رقي الممتازون منهم إلى رتب عالية في الجيش وانتقل عدد منهم من رتبة العبـودية إلى رتبة الأحرار.

ب) ـ المرأة

حلت المرأة المصرية في مركز مرموق بسبب طبيعتها والنظرة إليهـا وبسبب دورهـا في المجتمع المصري. غـير أن النـظام الاجتـماعي المصري سمـح بتعـدد الزوجات، ويذكر في هذا المجال بأن رعمسيس الثاني رزق بأكثر من مـائة وستـين ولداً، وبالمقابل فإنه منع على الزوجة تعدد الأزواج ومما يدل على أن تاريخ مصر شهد بروز نابغات مصريات ما اشتهر عن الملكة حتشبسـوت في منتصف الألف الثـاني ق. م. من قدرة عـلى الحكم، كما بـرزت نساء الإلـه آمون حيث تـولين أموراً دينية وسياسية على السواء. وسمح لهن بالتملك والأرث.

ج) ـ الفلاح

الفلاح المصري هو النمـوذج الحي للإنسـان المصري عبر العصـور، وهو يمثـل الغالبيـة لسكان مصر، وقـد ارتبط الفلاح بـالأرض المصرية التي اعتـبرها

المصريون القدماء أنها الرمز لحياتهم فمنها ارتزاقهم وحياتهم، والفلاح هو وسيلة هذا الارتزاق وهذه الحياة.

وكان الفلاح المصري مسؤولاً عن تنظيم الأراضي وتمهيدها وفلاحتها وزراعتها وجني المحصول منها، ولم يكن بالضرورة هو المستفيد من هذه الأراضي فقد تكون تابعة للملك وللبلاط الملكي أو لكبار رجال الدولة. كما إن منزله الذي شيده بالطين والقصب لم يكن سوى وسيلة لابقائه في الأرض التي يعمل بها وبالرغم من واقع الفلاح المصري غير أن النقوش أشارت إلى سعادته ومرحه خاصة وإن المعتقدات الدينية السائدة دعته للإعتقاد بأن ما آلت إليه حاله إنما هي إراده إلّهية يجب الخضوع لها. غير أن مصر شهدت مظاهر من الثورات والانتفاضات ضد الملوك والمسؤولين في المناطق، وبينها ثورة الفلاحين والعمال أثناء تفاعل المجاعة التي شهدتها مصر في تاريخها القديم.

د) ـ العامل

أوضحت الآثار والرسومات والنقوش المصرية إلى وجود مهن عديدة وعاملين في أكثر الميادين الصناعية وبين هؤلاء النجار والنقاش والحلاق والنحات، والحائك والحداد... وكانت أحوالهم الاجتماعية سيئة، بخلاف عمال القصور والبلاط الملكي الذين كانت أوضاعهم أفضل من بقية العمال. وقد شهد عهد اخناتون تطوراً ملموساً في تحسين المستوى الاجتماعي للعمال لاسيما النقاشين منهم.

هـ) ـ الجندي

كان الجيش المصري عماد الحكم الفرعوني وإدارته العسكرية ولذا فقد حرص ملوك مصر على الاعتناء بالجيش لمعرفتهم بأنه حامي عرش الفرعون والمدافع عن مصر من الأخطار الداخلية والخارجية. ولوحظ بأن بعض الجنود الممتازين تدرجوا في سلك الجندية فأصبحوا ضباطاً وتولوا مناصب قيادية كبرى.

أما فيما يختص بقومية عناصر هذا الجيش فإنه لم يكن مصرياً خالصاً، بل

التحق فيه العديد من الأجانب الغرباء عن مصر وبعض المرتزقة، لذا فقد كان الملك حريصاً على إعطاء كل مرتزق قطعة من الأرض يعني بزراعتها واستثمارها تأميناً لحاجياته وحاجيات عائلته. وقد ذكر هيرودوت بأن عدد الجنود بلغ ما يقارب ٣١ ألفاً وقد اقطع كل منهم ٣$\frac{1}{4}$ هكتار في الدلتا. ولا بد من الإشارة إلى أن الجنود غير المصريين تمصروا بمرور الزمن خاصة بعد أو ورثوا أولادهم الإقطاعات الزراعية وسلك الجندية.

٤ ـ النظام الديني

ارتبطت المعتقدات الدينية المصرية ببقية مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في مصر، إذ ما من ظاهرة إلا وكانت تفسر وفق المعتقدات الدينية الكهنوتية ولهذا وجدنا أثر الدين في الفن والهندسة والطب والعمارة والحكم والزراعة.

والجدير بالذكر أن مصر قلما شهدت إلهاً واحداً، بل الطابع الديني المميز لها هي في تعدد الآلهة وتعدد الولاءات لها، بل مما يلاحظ في هذا المجال بأن مصر شهدت طبقية في العبادة، فبعض الآلهة خصصت للطبقات الخاصة بينما خصصت آلهة أخرى للطبقات العامة. بالإضافة إلى وجود آلهة حيوانية وطبيعية كالشمس والقمر والنيل أو كالأفعى أو الفيل أو البقرة، وهي من الآلهة المرتبطة باستمرار الحياة على غرار ما شهدته بعض مناطق الشرق الأدنى القديم من عبادات. وقد وجدت تماثيل تؤكد صحة هذا القول وذلك لارتباطها باستمرار الحياة. (آلهة الخصوبة).

غير أن أوزريس يبقى الإله الأكثر شعبية في مصر، فهو ابن الأرض الآلهة وابن السماء الالهة يموت ويبعث حياً، وكان الهاً لزراعة النبات لاسيما زراعة القمح. وكانت عبادته املاً بالبعث لجميع من اعتقدوا به فإله الزرع وإله الأرض والسماء والقمر كلها أسماء مختلفة لإله واحد هو أوزوريس، ويدل على تجدده واستمرار حياته، وحياة المزروعات واستفاقتها وتجدد الفيضان كل عام.

بالإضافة إلى هذا الإله هناك المذاهب الدينية التي انتشرت في

(هليوبوليس) بالقرب من منف، فقد كانت الشمس هي الإلّـه المميز في المنـطقة فهي خالقة كل شيء حتى ذاتها، وكـان هذا الإلّـه يسمى أيضاً الإلّـه (رع) أي الشمس بالمعنى المصري ولعل الإلّه الوحيد ـ باستثناء اوزريس ـ الذي استـطاع بين الآلهة العـظام أن يحافظ عـلى استقلالـه هو (فتـاح إلّه منف) ـ كـما أن مصر شهدت آلهة أخرى هامة مثل (آمون) و (آمون رع). وكـان آمون الإلّـه العائـلي للملوك، وقد استقرت عبادته في طيبة في مصر العليا.

وشهدت الديانة المصرية تطوراً جديداً بوجود الإلّـه (آتون) إلّـه الشمس الذي قام بثورة دينية لتوحيد الآلهة المصرية، فعمت عبادته والغى في كل المناطق العبادات الأخرى، فما كان من كهنة آمون إلا أن رفضـوا هذا التـوحيد مصرين على ديانتهم، ثم ابدل فرعون اسمه (آمنـوفيس) باسم (اخنـاتون) وحـذا حذوه كل رجال بـلاطه والمقـربين إليـه بأن أبـدلوا أسـماءهم الأمونيـة بأسـماء أخرى. وبذلك فقدت طيبة مركزهـا كعاصمـة وحلت محلها مـدينة (اخنـاتون) في مصر الوسطى.

وحـول علاقـة المصريين بـالديـانات والآلهـة المصرية القـائمـة لا بـد من الإشارة إلى أن هذه الديانات تضمنت معتقدات بـالحياة بعـد الموت، لـذلك فـإن جثث المـوتى أحيطت بعنـاية خـاصة ووضعت أمـامها الأدوات المنـزلية والصـور وأدوات السـلاح والصيـد. ولا بـد من القـول بـأن مصر عـرفت أيضـاً عبـادة الأموات بالإضافة إلى آلهتها التقليدية. والحقيقة فإن المصريين أخلصوا إخلاصـاً متفانياً لمعتقداتهم الدينية وما هندسة العمارة المصرية سـوى الدليـل الحقيقي على ذلك الإخلاص.

للمزيد من التفصيلات عن الحضارة المصرية أنظر المصادر والمراجع التالية:

- أتيين دريوتون، جاك ڤانديبه: مصر، تعريب: عباس بيومي، مراجعة: محمـد شفيق غربـال بك، عبد الحميد الدواخلي، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة (لا. ت.).
- د. أحمد فخري: مصر الفرعوبية، مكتبة الانجلوـ المصرية، الطبعة الثالثة ـ القاهرة ١٩٧١.
- ادولف أرمان، هرمان رانكه، مصر والحياة المصرية في العصور القديمة، تعريب ومراجعة: د. عبد المنعم أبو بكر، محرم كمال، وزارة المعارف العمومية ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة (لا. ت.). =

....

= - استينـدُرف الألماني. ديـانة قـدماء المصريـين، تعريـب: سليم حسن، مـطبعـة المعـارف - القـاهـرة ١٩٢٣.

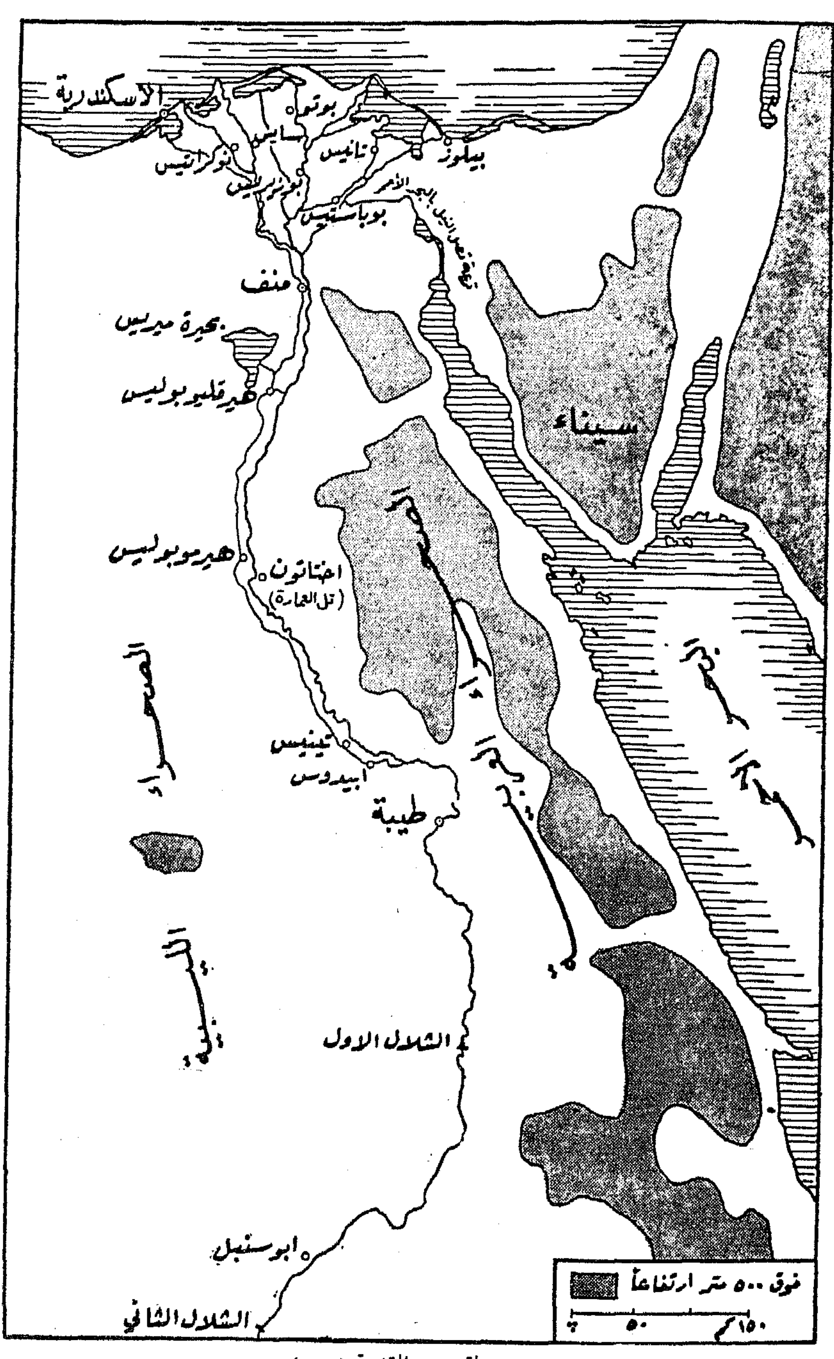
- أندريه ايمار، جانين أو بوايـه: تاريـخ الحضارات العـام، مجلد ١، القسم الأول، اشراف موريس كروزيه، تعريب: فريدم داغر، فؤاد ج. أبو ريحان منشورات عويدات - بيروت ١٩٦٤.

- ايقابر. أ ح: هيرودوت، تعريب. أمين سلامة، مراجعة. كمال الملاّح، الدار القـومية للطبـاعة والنشر - القاهرة (لا ت)

- سليم حسن. موسوعة مصر القديمة، أجزاء ١ - ١٦، مـطبعة الكـوتر (مـطابع أخـرى) الى مطبعـة كوستاتسوماس - القاهرة (لا ت).

- فلنـدرز بتري. السـير و م: الحياة الاجتـاعية في مصر القـديمة، تعـريب: حسن محمد جـوهـر، عبد المنعم عبد الحليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٥

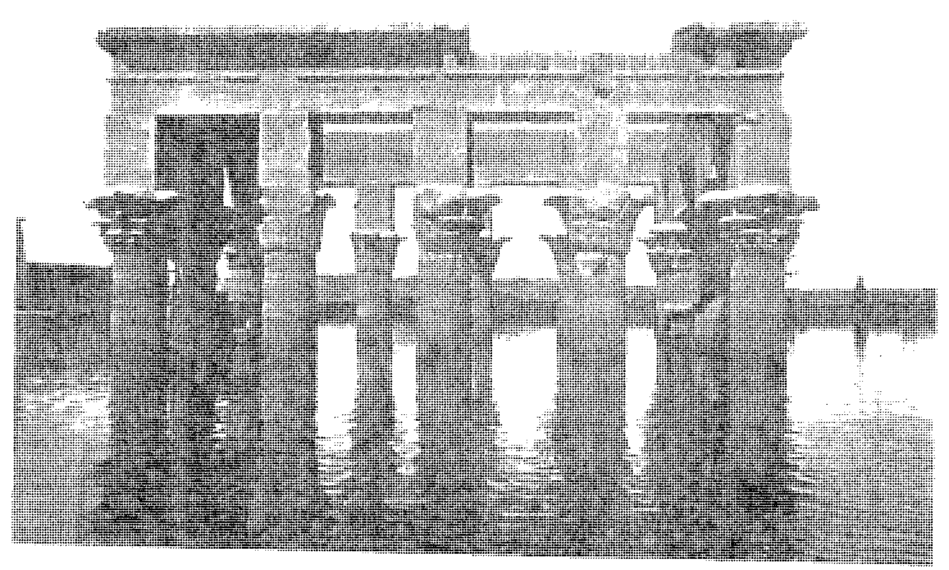
- Breasted, j.H; Ancient Records of Egypt. Vols 1 - 5 Chicago 1906 - 1907
- Cerny, J, Ancient Egyptian Religion, London 1952.
- Pirenne, J; Histoire de la civilization de L'Egypte Ancienne, Paris 1961



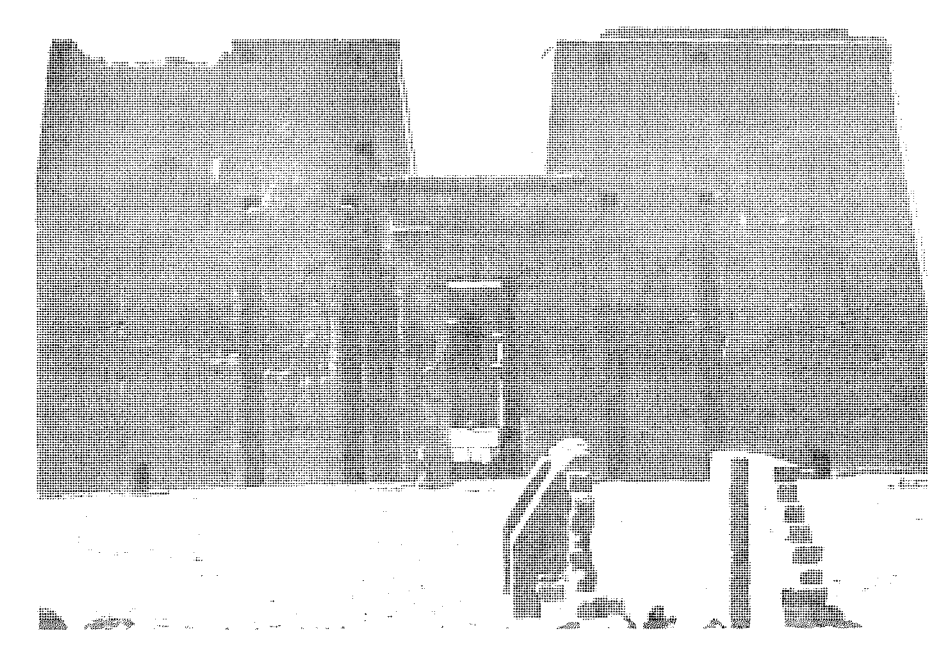
خريطة مصر القديمة (مصر)



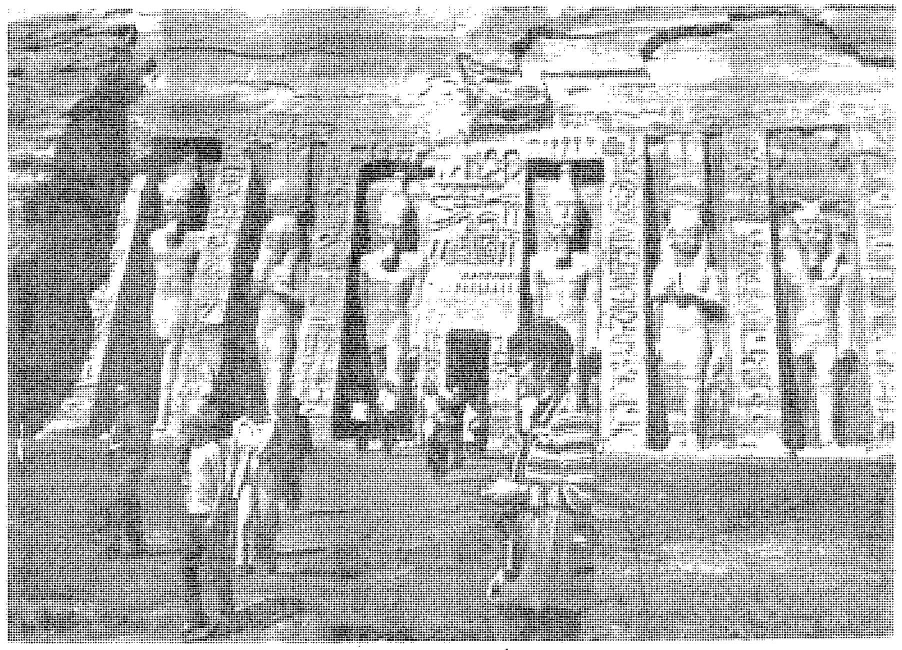
الكرنك ـ بيلون السابع (مصر)



أسوان ـ منظر عام لمعبد إيزيس تحيط به مياه النيل (مصر)



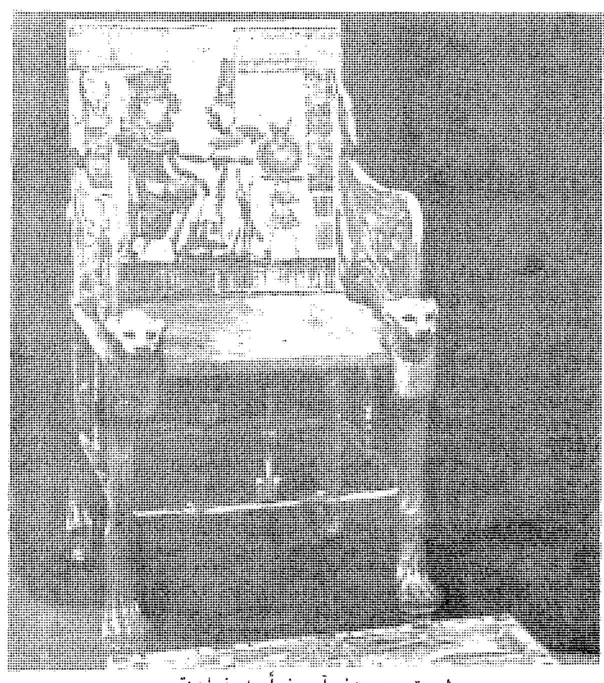
ادفو ـ معبد الإله حورس (مصر)



معبد أبو سمبل (مصر)



أبو الهول وإهرامات الجيزة (مصر)



عرش توت عنخ آمون أحد فراعنة مصر

الفصل الثالث

حضارة بلاد ما بين النهرين

لم تشهد بلاد ما بين النهرين تطورات سياسية مشابهة لما شهدته مصر وإن كـانت طبيعة العصر استلزمت في بعض الفـترات مـظاهـر مشـتركـة أو متـأثـرة بسواها. كما أن العوامل الجغرافية في بلاد ما بين النهرين لها طابعها الخاص إلى حد كبير. والحقيقة فإن هذه البلاد شهدت موجات غازية من الخارج كما أن شعـوبها بدورها غزت مناطق أخرى كالغزو البابلي والأشوري لبلاد فينيقيا مثلاً. . .

١ ـ النظام السياسي في بلاد ما بين النهرين

أ) ـ الملكية

أصبح النظام الملكي في بلاد ما بين النهرين أسـاس الإدارة السياسيـة كما هي الحـال في مصر، غير أن النـظام الملكي في بلاد مـا بين النهـرين كـان أكـثر صعوبة في إدارته للبلاد نظراً لأنها لم تكن كلها موحدة عـلى غرار مصر بـل وجدت فيها عدة دويلات مستقلة.

بالنسبة إلى النظام الملكي والسياسي فإنه كـان مختلفاً بـين عصر وآخر كـما أن الألقاب التي كان يحملها الملوك تظهر مفهوم الدولة في هـذه البلاد. ففي مـدن أور وأوروك ولاغاش برز لقب ملك البلاد بينما ظهر في عصور أخرى لقب ملك المناطق الأربع التي يعني ملكاً على سومر واكاد وأمور وسوبارتو.

وكـان الملك يستند في حكمـه على أسـاس إلٓهي، ولذا كـان يسمى الملك أحياناً (نائب الآلهة) فالملوك الأشوريـون بالإضـافة إلى ألقـابهم (الملوك) اعتبروا أنفسهم أيضاً بأنهم (نواب الإلٓه أشور).

أما فيما يختص بتعيين وتنصيب الملك، فاللاعتبارات الدينية أهميـة كبرى في هذا المجال، ودور رجال الدين والكهنة واضح في مـوضوع تنصيب الملك، لأن المعتقـدات البابليـة يفترض فيهـا أن تنظر إلى الآلهـة كصـاحبـة الحق في تنصيب الملك، وكـان الملك عادة من أصـل ملكي لأن النظام الـوراثي هو الـذي كـان سائداً في منطقة الشرق الأدنى القديم.

والحقيقة فإن الملك عنـدما يتـولى منصبه لا يتمتـع بالامتيـازات فحسب، وإنمـا على عـاتقه واجبـات دينية واجتـماعية وعسكـرية، فعليـه أن يتصف بالتدين والورع والقيام بالواجبات الدينية والطقـوس، واعتبر في وقت من الأوقـات بأنـه الكاهن الأكبر للدولة.

كما إن عليه واجبـات إدارية تختص بـإدارة البلاد وصيـانة أمـوالها وإقامة العدالة والمساواة والقضاء على الشرور، ولعل قـانون حمـورابي يمثل قمـة التنظيم الإداري والاجتماعي في بابل بل وفي المنطقة. ومن واجباته أيضاً حماية الشعب لأنه يعتبر القائد الأعلى للجيش.

ب) ـ الإدارة

كانت الإدارة متمركزة في يد الملك فهو الحاكم المطلق في تدبير أمور البلاد غـير أنه اضـطر للاستعـانة بـإدارة مكونـة من عـدد من الموظفين لإدارة شؤون المقاطعات والأقاليم. وكانت أمور الدولـة تدار من قبـل الموظفـين وكأنها أمـلاك خـاصة للملك، وفي الـوقت الذي فشلت فيـه الإدارة الأشوريـة في تنظيم وإدارة البلاد نرى أن الإدارة البابلية كانت أكثر دقة وتنظيماً لاسيما في عهد حمورابي فقد استطاعت السلطة المركزية البـابلية اخضـاع كافـة الأقاليم والمقـاطعات لإرادتهـا وأبقت ولاتها كحكام تابعين للملك مبـاشرة، فهو الـذي يعينهم ويعزلهم. وقـد استـطاع حمورابي استغـلال سلطاته القضـائية ليـدعم نظامـه المركـزي وسلطاتـه المركزية.

٢- النظام العسكري

كان الجيش من رموز الدولة وقوتها، وكان الملك هو القائد الأعلى للجيش، وارتبط هذا النظام العسكري بالنظام الديني السائد، حيث كانت الآلهة تؤيد الملوك وتعدهم بالنصر، وكان على الملك أن يقدم الولاء للآلهة قبل قيادته للجيوش كما كان عليه أن يقدم التقارير العسكرية لها. وكان من العادة أن يخوض الملك الحرب في كل عام تقريباً لإثبات قوته وقدراته. ويلاحظ بأن للملك معاونون عسكريون في مقدمتهم نائبه الذي كان ينوب عنه في المعارك، ولكن توليه لقيادة الحروب كانت قليلة إن لم تكن نادرة، والنائب كان يبقى على الدوام إلى جانب الملك في المعارك.

وكان الجيش الأشوري في القرنين الثامن والسابع ق. م. من أقوى الجيوش المعاصرة لتلك الفترات، ويستدل على ذلك من أدواته الحربية، ومن الحروب التي انتصر فيها.

وكان جيش المشاة هو الأكثر عدداً من فرق الرماة وحاملي الحربات وقد ضم المشاة رماة المقلاع، كما وجدت فرقاً عسكرية بحرية. ويمكن القول بأن الأشورين أوجدوا نظاماً عسكرياً قوياً. لا سيما وأن الأشوريين فرضوا نظام الخدمة الإلزامية في الجيش، ويلاحظ أيضاً بأن الممارسة العسكرية أوجدت لديهم الخبرة والجدارة وكان هؤلاء يقبضون رواتب أيام الحرب، وكان النظام العسكري الأشوري لا يمانع من أن يتوجه الجنود في أيام السلم إلى ذويهم أو لزراعة أراضيهم الزراعية واستثمارها ولكن في فترة السلم تتوقف الدولة عن إعطاء الرواتب للجنود المسرحين.

٣ - النظام الاجتماعي

أ) - العبيد

عرفت بلاد ما بين النهرين نظام الرق والعبيد وقد أشار قانون حمورابي إلى كيفية التعامل مع العبيد وكيفية القوانين المطبقة من حيث تطبيبهم أو الأذى

الـذي يلحق بهم أو إذا ألحقوا هم الأذى بـالغير. ولم يكن المجتمـع يقبل عـادة عبداً هارباً من عند سيـده لئلا يعـاقب لاسيما إذا كـان العبد من عبيـد القصر الملكي وعليـه القوم، وكـان العبد يعتـبر كالأدوات المعـدنية المتـوسـطة الثمن أو الحيوانات الأليفة، هو مثل الأدوات يباع ويشرى ويستبدل ويرهن.

ومن العادة أن تتكون طبقة العبيد من جراء الحروب أو من جـراء التجارة والشراء من خارج البلاد. غير أن النظام البابلي سمح بعتق العبيد مقابل مبـالغ من المال أو شهادة من سيده تقدم له كمنحة.

ب) ـ المرأة والأسرة

مما يسترعي الانتباه أن المرأة حصلت على حريتهـا بإدارة أمـلاكها الخـاصة المنقـولة أو الثـابتة. وإذا كـان الزوج جنـدياً أو طلب للخـدمة العسكـرية فـإن باستطاعة الزوجة حق إدارة أملاكه في حال وجودها، إن كان أكبر أولاده لم يبلغ سن الرشد بعـد. وتضمنت القوانـين البابليـة حقوقاً للمرأة بحيث أن القـانون يحميها من تعسف زوجها لاسيما في موضـوع طلاقهـا سواء هـو الذي اتخـذ هذا القرار أو هي اتخذته، فالمحاكم تقف معها في حال التحقق من أن الزوج ظلمهـا. ولكن يلاحظ من جهة أخرى بأن عقم الزوجة أو مرضها المستعصي يكون مبرراً للزوج ليطلقها، ويحق للزوجة العاقر أن تقدم لزوجها عبدة تكون بمثابة العبدة ـ الخليلة. كما يحق للزوج إن لم ينجب من زوجته أو خليلته أن يتزوج من الدرجة الثانية. وينص القانون في هذا المجال أن تقوم الزوجة الثانية بغسل رجلي الزوجـة الأولى إذا لم يكن قد طلقها بعد.

ويتضمن القانون قواعد الأرث، فكل ما تملكه المرأة يعود إلى أولادها كـما أن أمـوال الأب تعود إلى أولاده، فتـوزع عليهـم بالتسـاوي، ويحرم من المـيراث أولاد العبـدة الخليلة إلا إذا أصبحوا احـراراً في حياة والـدهم، وتحرم البنـات من الأرث إن كن أخذن البائنة وإلا فلهن حق استثمار حصصهن. والجدير بملاحظته في أمر العادات والتقاليد الأشـورية هـو إعطاء الـزوجة المـطلقة الحق بـالبقاء في منزل زوجها على أن يزورها زوجها ويقدم لها كل ما تحتاج إليه.

٤ ـ النظام الاقتصادي

أ) ـ الزراعة

تشكل الزراعة نظاماً اقتصادياً هاماً في بلاد ما بين النهرين كما أن الفلاح قام بدور بارز في هذا المجال، وقد نص قانون حمورابي على موضوع الزراعة والفلاح. وقد بلغ الاهتمام بالزراعة حدا ان مسحت الأراضي الزراعية وقسمت واستثمرت بطريقة جيدة فحفرت قنوات التجفيف والرى. وشهد نظام الزراعة أعمال السخرة، واستغل العبيد في هذه المجالات، كما وجدت تصاميم أحواض وخزانات المياه. ويحدد القانون شروط الزراعة وواجبات الزارع واجرته وأجرة الأراضي المستأجرة.

بالإضافة إلى ذلك فقد عرفت بلاد ما بين النهرين نظام الملكية العقارية الصغرى، ونظام توزيع ملكية الأراضي الزراعية. ونظراً للاهتمام الشديد بالأراضي الزراعية أصبحت الأرض مصدراً ومظهراً لثروة البلاد، ومما زاد في أهميتها خصوبة تربتها التي تماثلت مع أرض مصر إن لم تكن تفوقها من حيث الخصوبة. وقد عرفت هذه البلاد إلى جانب الزراعة تربية الحيوانات والطيور.

ب) ـ الصناعة

تميزت الصناعة في بلاد ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) بالدقة وحسن التصنيع، وتدل الآثار والبقايا الموجودة في مختلف المناطق الأثرية على صحة هذا الرأي. وقد أسفرت الحفريات عن أن الصانع استخدم عدة معادن في صناعاته منها: النحاس والقصدير والرصاص والفضة والذهب. . . كما قام بصناعات خشبية متعددة لاسيما في الألف الثالث ق. م. ومن الصناعات الأخرى صناعة النسيج المطرز والنقش والحفر، وقد ساعدت حركة بناء القصور والهياكل على تطور الصناعات المعدنية أو الخشبية والنسيجية.

ولقد توفرت للصناع البابليين المواد سواء من الداخل أو بواسطة الاستيراد من الخارج، ومن بين المواد المستوردة من الخارج، العاج والحجارة الكريمة من الهند والقصدير من القفقاس والنحاس من قبرص وأرمينية وآسية

الصغرى. وكانت سبل الاستيراد أو القصدير تتم عبر وسيلتين، الطرق البحرية (المائية) والطرق البرية.

ج) ـ التجارة

استطاعت بلاد ما بين النهرين تحسين أوضاعها الاقتصادية بواسطة الاستيراد والتصدير، وقد أقامت علاقات جديدة مع الكثير من البلدان المجاورة والبعيدة. وقد اثبتت الوثائق التاريخية بأنه كان للتجار الأشوريين محطات ومستعمرات تجارية في أواخر الألف الثالث ق. م. في وسط آسية الصغرى، عمل هؤلاء في مختلف الأعمال التجارية والسمسرة. وبالمقابل فقد وجد تجار من بلاد عديدة في بلاد ما بين النهرين.

ونظراً لتطور المبادلات التجارية فقد شهدت البلاد نظاماً مصرفياً ومالياً، فعرفت البلاد القروض والديون والفوائد المالية نقدية أو عينية (أموال أو مواد زراعية). كما عرفت البلاد الايجار أو الرهن والكفالة، ودلت المستندات التجارية على هذا الواقع، وظهر عليها اختام خاصة لأصحاب العلاقة. وكانت مادة الذهب والنحاس أداة للتعامل النقدي لاسيما مع التجار الأجانب.

٥ ـ النظام الديني

إن الديانات التي عرفتها منطقة الشرق الأدنى القديم متأثرة بعضها بالبعض الآخر، ولهذا فهي متشابهة، وربما يعود ذلك إلى طبيعة المنطقة الواحدة ومن ثم إلى تبادل العلاقات التجارية وتأثر المناطق ببعضها سواء من حيث الأنظمة السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الدينية، غير أنه تبقى لكل منطقة طابعاً مميزاً عن المناطق الأخرى.

ومن خلال الدراسات المقارنة في موضوع الديانات في منطقة الشرق الأدنى القديم يتبين مدى التشابه، فلشعوب بلاد ما بين النهرين إلّه للزرع (دوموزي) وهو الإلّه تموز أي أدونيس عند الفينيقيين والسوريين ولهم إلّه للعاصفة وللنجوم وللكواكب وهو ما عرفته بقية المناطق الشرقية. ويلاحظ على النظام الديني في بلاد ما بين النهرين ما يلي:

أ) ـ الآلهة

ألّـه الناس في بـلاد مـا بـين النهـرين القـوى الـطبيعيـة بشكـل بـارز مثـل العواصف والنار والأنهار والجبال والزراعـة ذاتها. أمـا الآلهة الأكـثر عظمـة فهو الإِلّه (أنو) إلّـه السماء والإِلّـه سن إلّه القمـر والإِلّه (شمش) إلّـه الشمس والإِلّه (اشتار) إلّه كوكب الزهرة.

ويلاحظ بأن البلاد، عرفت الكثير من الآلهة السومرية والأكادية والبابليـة مما يشير إلى عدم توحيد الديـانات في المنـطقة. غـير أن السكان اهتمـوا بآلهتهم وخافوا منها وسلكوا سلوك الإذعـان لها تبعـاً لمعتقداتهم. ولكن المـدن عرفت في بعض الأحيان عبادة مشتركة لإلّـه واحد مثـل الإلّه أشتـار مثلاً، كـانت تضيف اسمها عليها تمييـزاً عن المدن الأخرى. ومن الملاحظ أيضـاً أن هذه الشعـوب لم تعرف عبادة الإلّه ـ الحيوان على غرار ما عرفته مناطق أخرى، أما الثـور المجنح الذي عرفتـه البلاد فليس هـو إلا أداة للقوة. وهـذا الثور المجنـح الذي يحمـل وجهاً بشرياً ليس هو إلا روحاً للحماية يتمتع بسلطة محـدودة. وفي هذا المجـال يمكن القول بأن النقوش أضفت على الآلهة والأرواح الصالحـة والشريرة مظهـراً إنسانياً بحتاً.

ب) ـ معتقدات الحياة والموت

لقـد اثبتت الدراسـات والحفريـات الأثريـة في بلاد مـا بين النهـرين بـأن سكان المنطقـة اعتقدوا بـالحياة بعـد الموت، فقـد وجدت كـل الجثث في مدينـة (اور) مثـلاً وإلى جانبهـا الأدوات التي تستخدم في الحيـاة من ملابس وخنـاجـر والات واوان وأسلحـة وخوذ وأدوات الـتزيـين والحـلي بـل والأدوات المـوسيقيـة. والأمـر اللافت للنـظر بأن أدوات قبـور الفقراء كـانت مختلفـة عن أدوات قبـور الأثرياء وهذا ظهر واضحاً في مختلف المقابر التي تم التنقيب فيها.

وافرزت المعتقدات الدينية في البلاد الكثير من الملاحم والأساطـير المتعلقة بـالحياة الأخـرى بعد المـوت ومنها اسـطورة (نزول اشتـار في الجحيم) وملحمـة (جلجامش) ومسألة عبور الميت الأبواب السبعة بعد أن تنزع جميع ملابسه حيث

يصبح باستطاعته اجتياز الأسوار السبعة. وتورد هذه الملاحم تفصيلات حول حياة الإنسان بعد الموت وما هي الأدوار التي يمر بها سواء كان في صف الاتقياء أم الأشرار.

واقترنت هذه المعتقدات الدينية بل والأديان في البلاد كلها ببناء الهياكل وممارسة الطقوس والشعائر الدينية وممارسة السحر والفلك وارتباطها بالدين كما أدت هذه المعتقدات إلى بروز طبقة من زلجال الدين الكهنة الذين قاموا بدور بارز في المجتمع الميزوبوتامي.

ومن بين الهياكل التي شهدتها البلاد هياكل الإله مردوخ. وهيكل الإله انليل. وقد لزم لبناء هذه الهياكل أموالاً طائلة والعديد من العمال والمهندسين والمواد الأولية الصناعية. وقد أقيم لهذه الآلهة احتفالات خاصة بها ترأسها رجال الكهنة وكانت تتضمن الطقوس الدينية صلوات وأناشيد وابتهالات وذبح حيوانات ونثر البخور وحرقه. وكان الكاهن الأعظم هو المسؤول الأول عن ترؤس هذه الاحتفالات الدينية، وله مساعدون من المنشدين والسحرة والمنجمين والمبخرين. ويمكن القول بأن النظام الديني عرف ما يقارب أربعين وظيفة كهنوتية.

للمزيد من التفصيلات عن حضارة بلاد ما بين النهرين أنظر المصادر والمراجع التالية:

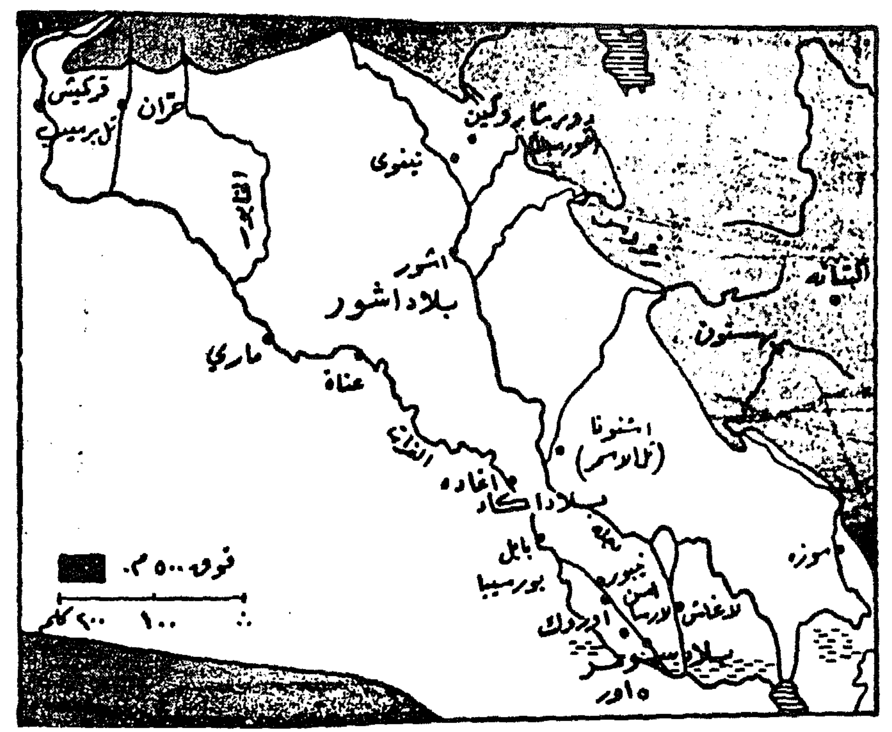
- د. أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، القاهرة ١٩٥٨.
- د. أحمد فخري: بين آثار العالم العربي، مكتبة الانجلو ـ المصرية، القاهرة ١٩٥٨.
- أندريه ايمار، جانين أو بوايه: تاريخ الحضارات العام مجلد ١، القسم الثاني اشراف موريس كروزيه، تعريب: فريدم. داغر، فؤاد ج. أبو ريحان، منشورات عويدات ـ بيروت ١٩٦٤ ـ ١٩٧٠.
- جورج كونتنو: المدنيات القديمة في الشرق الأدنى (les civilizations Anciennes du Proch - Orient) تعريب: متري شماس، المنشورات العربية ـ بيروت (لا. ت.).
- جوستاف لوبون: حضارة بابل واشور، تعريب: محمود خيرت المحامي، المطبعة العصرية (الياس أنطون الياس) القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٩٤٧.
- ديلا بورت. ل: بلاد ما بين النهرين (la Mesopotamie) تعريب: محرم كمال، مراجعة: د. عبد المنعم أبو بكر، مكتبة الآداب ـ القاهرة (لا. ت.).

=

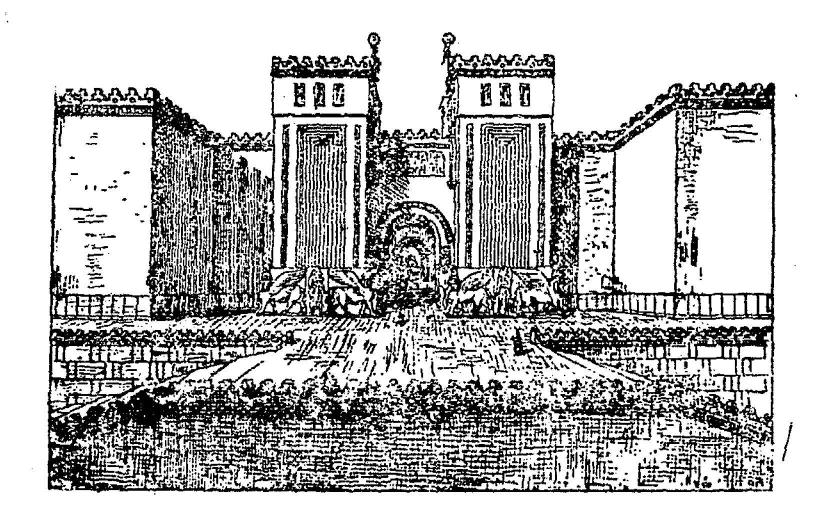
....

= ـ رُويستن بايك. اي: قصة الآثار الأشورية، تعريب: يوسف داوود عبـد القادر، مـراجعة: لـطفي الخوري، جمعية المتخرجين العراقيين ـ بغداد ١٩٧٢.
- ساندرز، ن. ك: ملحمة جلجامش (The Epic of Gilgamesh) تعريب· محمد نبيل نوفـل، فاروق حافظ القاضي، دار المعارف ـ مصر ١٩٧٠
- ملرش، ايج. اي ايل: قصة الحضارة في سومر وبابل، تعريب: عطا بكـري، مطبعـة الارشاد ـ بغداد ١٩٧١.

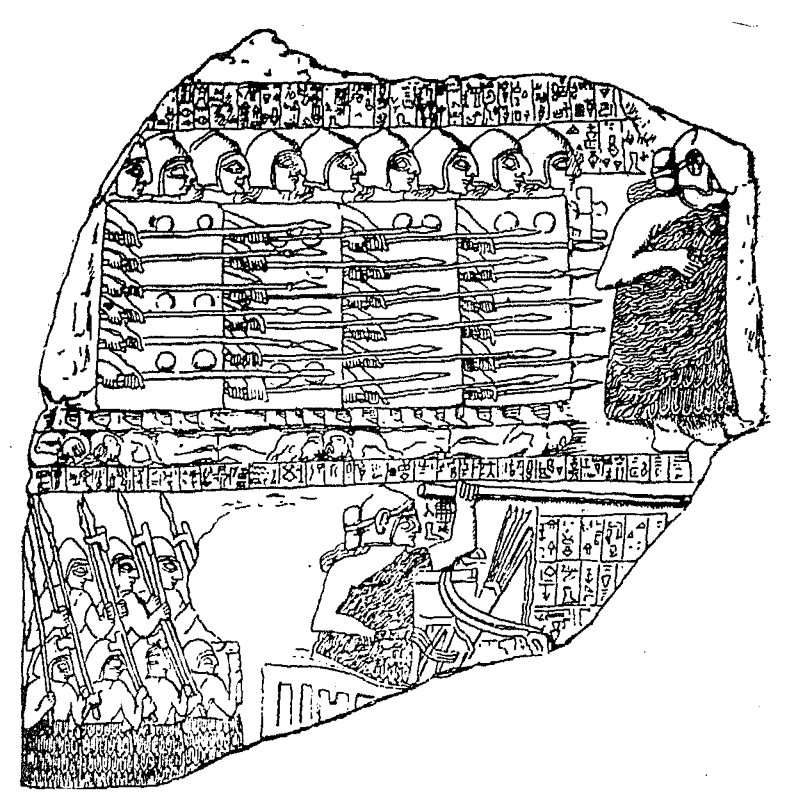
- Jacobson, T; Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia, journal of Near Eastern studies vol. 11, no. 3.
- Kramer S. N; History begins at Sumer, New york 1959.
- Kramer S. N, The sumerians, Chicago 1963.



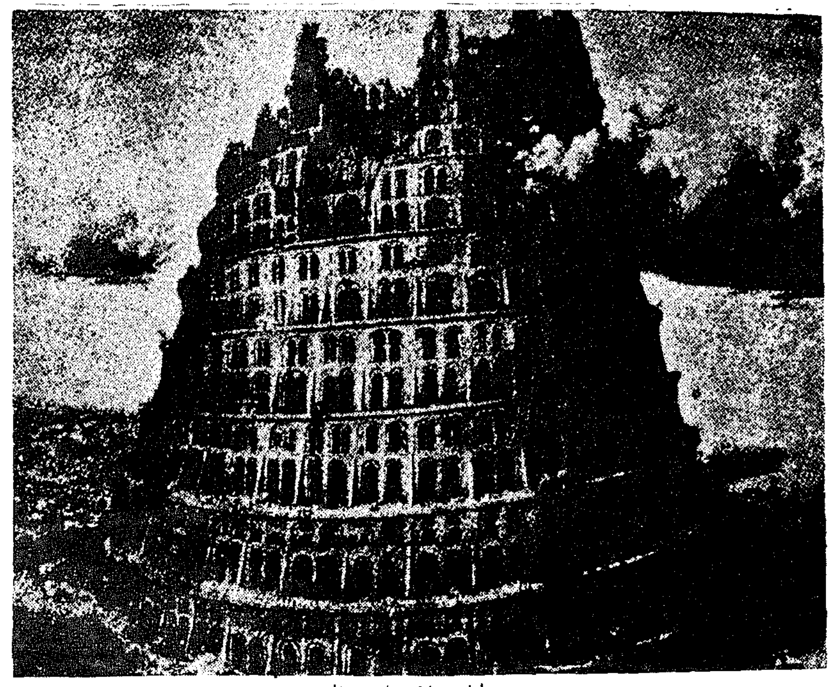
خريطة (بلاد ما بين النهرين)



قصر سرجون (بلاد ما بين النهرين)



قطعة من لوحة العقبان تمثل الجيش السومري ومعداته (بلاد ما بين النهرين)



برج بابل (بلاد ما بين النهرين)



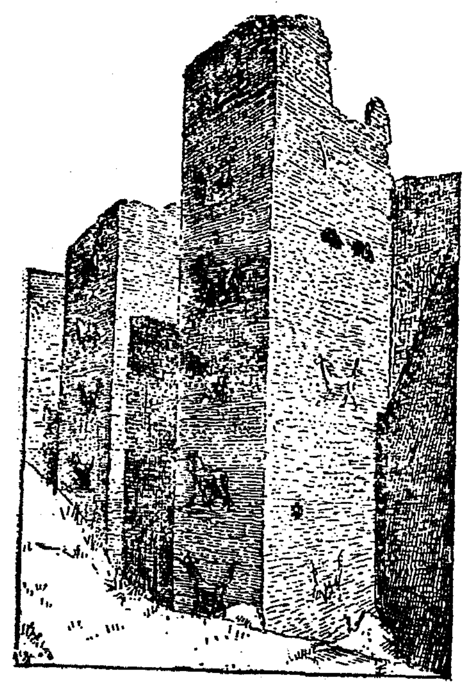

لوحات تمثل بعض المعتقدات الاجتماعية والدينية، وتسمى كودور أو نارو (بلاد ما بين النهرين)



الملك حمورابي يتلقى القانون من الإله شمس (بلاد ما بين النهرين)

الإله مردوخ (بلاد ما بين النهرين)





بوابة عشتار في بابل (بلاد ما بين النهرين)

الفصل الرابع

الحضارة الفينيقية

الفينيقيون شعب سامي عربي على غرار الشعوب العربية القاطنة في البلاد السورية، ومن الثابت أنهم نزحوا من شبه الجزيرة العربية بعد حدوث الجدب في المنطقة في الألف الرابع ق. م. وتوزعت جماعات منهم فوصلت إلى فلسطين ومجموعة أخرى وصلت إلى ما عرف فيما بعد باسم فينيقيا. ولهذا يرى الدارس أن المدن التي أقاموها في فينيقيا اتخذت أسماء متشابهة للمدن التي كانوا يعيشون فيها في الجزيرة العربية وقد أكد صحة هذه المعلومات هيرودوت. ففي شبه الجزيرة العربية يرى الدارس مدن صيدا وصور وجبيل وسواها وهي اسماء المدن نفسها التي أسسها الفينيقيون في فينيقيا.

والملاحظ أن الشعب الفينيقي تميز بالنشاط والقدرة على الانتاج والإبحار والاتجار مع الخارج وتأسيس المستعمرات الفينيقية في الساحل الأفريقي، كما استطاعوا أن يكونوا مدناً هامة في الداخل تمتد إلى أوغاريب (رأس شمرا) كما أسسوا كياناً لهم لفترة في فلسطين، وأقاموا علاقات طيبة مع السوريين. ولوحظ أنهم في البدء لم يحاولوا السكن في المناطق الجبلية الشرقية التي عرفت فيما بعد باسم جبل لبنان، تبعاً لطبيعتهم البحرية والصحراوية، وتبعاً لمواقعهم الأساسية.

وفي ضوء ذلك فإننا سنحاول دراسة بعض الجوانب التاريخية في «فينيقية لبنان وعروبته» معتمدين على المصادر العلمية الأساسية. فقد رأى علماء الهجرات والشعوب والسلالات القديمة بأن الهجرات من شبه الجزيرة العربية كانت على النحو التالي:

١ ـ الأكاديون، وقد استقروا في وادي الرافدين في الألف الرابع ق. م.
٢ ـ الكنعانيون والفينيقيون والأموريون، وقد استقروا في المناطق السورية ووادي الرافدين خلال الألفين الثالث والثاني ق. م.

٣ ـ الأراميون (السريان) وقد استقروا في كل مناطق الهلال الخصيب. والعبرانيون الذين استقروا في المنطقة السورية في النصف الثاني من الألف الثاني ق. م.

٤ ـ الأنباط وبعض القبائل العربية الجاهلية، وقد استقروا في منطقة الهلال الخصيب بين القرن الثاني ق. م. والقرن السادس الميلادي.

٥ ـ العرب المسلمون، وقد استقروا في منطقة الهلال الخصيب ومصر وبقية شمالي إفريقية منذ القرن السابع الميلادي.

ويرى العلماء، بأن هذه الموجات انطلقت من شبه الجزيرة العربية نتيجة للجفاف الذي حل بها، بعد أن كانت مناطق خضراء مزدحمة بالسكان. وقد عثر هؤلاء على قواقع متحجرة أو جافة لا تعيش عادة إلا في المياه العذبة، كما عثروا على بقايا عظام وأدوات حجرية تعود الى عصور ما قبل التاريخ، مما يشير إلى وجود المياه والحياة في هذه المناطق الصحراوية في الماضي السحيق. ومن بينها عدد من الوديان الجافة في الوقت الحاضر مثال: وادي الدواسر، ووادي الرمة، ووادي السرحان.

ثم إن الكتاب الكلاسيكيين (اليونان والرومان ٥٠٠ ق. م. ـ ٥٠٠ م.) والكتاب العرب أوردوا أسماء عدد من الحيوانات والأشجار التي كانت معروفة في شبه الجزيرة ولكنها قلت أو اندثرت في الوقت الحاضر، وهو أمر يدعم نظرية استمرار الجفاف. ومن ثم زحف الأقفار على المنطقة حتى في العصور التاريخية.

ولقد حدد علماء آخرون المكان الذي انطلقت منه هذه الهجرات من شبه الجزيرة العربية، فرأوا أنها وسط شبه الجزيرة وخاصة منطقة نجد، لأنها هي المنطقة التي تمثل الصفات الأساسية التي تجمع بين الشعوب السامية. ويرى البعض الآخر بأن اليمن كانت نقطة انطلاق لهجرات سامية أيضاً، ويعتمدون

في ذلك على أن الخط الممتد الذي عرف في اليمن هو الذي اشتقت منه سائر الخطوط التي كتبت بها الشعوب السامية الأخرى ومنها الخط الفينيقي. أما بعض الباحثين، فرأى أن موطن الهجرات السامية هي منطقة البحرين في شرقي الجزيرة العربية. وقد أقام هؤلاء رأيهم على بعض الدراسات التي تثبت أن الفينيقيين قد هاجروا إلى الساحل الفينيقي من هذه المنطقة. علماً أن هناك علاقة وطيدة بين البحرين والفينيقيين. اعتماداً على النص والاستنتاج. أما النص فهو للمؤرخ الرحالة الجغرافي سترابون (Strabo) الذي كتب في أواخر القرن الأول ق. م. وأوائل القرن الأول الميلادي، وفيه يتحدث عن الخليج الذي تطل عليه منطقة البحرين فيشير فيه إلى جزيرتين هما: ارادوس (Arados) وصور (Tyros) ويشير بأن في هاتين الجزيرتين معابد تشبه معابد الفينيقيين. وأن أهل الجزيرتين يؤكدان أن جزيرتي أرواد وصور في فينيقيا هي مستوطنات بحرانية تابعة لهم. أما الاستنتاج فهو أن الفينيقيين حين ظهروا لأول مرة على الساحل السوري، ظهروا كملاحين مهرة، وقد اختاروا المناطق الساحلية ولم يسكنوا المناطق الجبلية، لأن موطنهم الأصلي على الساحل، وقد مارسوا فيه شؤون الملاحة، التي تطورت لديهم أكثر من ذي قبل بعد وصولهم وتجاربهم في الساحل الفينيقي. وفي ضوء النص الذي أورده استرابون تبرز منطقة البحرين كموطن أصلي محتمل هاجر منه الفينيقيون إلى الشاطيء السوري. خاصة وأن «نيارخوس» أمير البحر عند الاسكندر المقدوني، زار مدينة تسمى صيدا تقع على شاطيء الجزيرة العربية الشرقي.

ويرى د. فيليب حتي، بأن الموجة التي أتت بالشعب الأموري من الصحراء العربية إلى الهلال الخصيب هي الموجة ذاتها التي أتت بالشعب الكنعاني الفينيقي ورجح بأنه دخل فينيقيا قبائل بدوية مع ماشيتها وقطعانها عن طريق سهل البقاع وشمالي سورية. واسم البقاع في النقوش المصرية امورو (Amurru). وهذه التسمية «اموريون» اطلقها عليهم جيرانهم إلى الشرق. أي السومريون. والأموريون العرب هم الذي أسسوا ملكاً عظيماً في وادي دجلة والفرات. كان من ملوكه العظام حمورابي (المتوفى حوالي عام ١٧٠٠ ق. م.)

أول مشرع في التاريخ. وقد تكون اللاحقة في «أن» التي تـظهر في اسم «لبنـان» و «عسقلان» و «ون» التي تظهر في اسم صيدون لاحقة امورية. وليس هناك من فروق عرقية أساسية بين الشعب الكنعاني الفينيقي وبين الأموريين.

ويمكن القول بأن شبه الجزيرة العربية بما كـانت تزخـر من تضخم سكاني يمكن اعتبـارها المـوطن الأساسي لكـل الشعوب السـامية التي تـوطنت في الهلال الخصيب أو البلاد السورية. فالبـابليون والأكـاديون والأشـوريون والكلدانيـون والأموريون والكنعانيون والفينيقيون والعبريون. هي شعوب تربطها أواصر قربى شديدة، ولغاتها ذات أصول وجذور واحدة.

ولقـد استعمل المصري القـديم كلمة «فنخـو» منذ عهـد الدولـة القديمـة للدلالـة على شعب من سكـان الإقليم السوري. كـذلـك ورد اسم الفينيقيـين (Phoivikes) كشعب، واسم فينيقيـا (Phoivikn) كبلاد أو منـطقة في كتـابـات اليـونـان منـذ أيـام هوميروس أو قبـلٍ ذلـك حيث استعمـل لفظ فينكس (Phoenix)كدلالة جنسية، وإن كان أصلاً يعني اللون الأحمر القاتم أو الأرجوان (Phoinos) أو (Phoiviex) المستخـرج من صـدف المـوريكس، المـوجـود عـلى الشواطيء الفينيقية. كما تعني «فونكس» (Phoinix) باليونـانية «النخلة». ولقـد عثر على نقـود فينيقية تحمـل رسماً للنخلة. قـد يكون هـذا الرسم من مؤشـرات النخل والبيئة في شبة الجزيرة العربية.

ويؤكد كونتنو (G. Conteanu) إنه من المسلم به منذ العصور القديمـة أن الفينيقيين ليسوا أهـل فينيقيا الأصليـين. وإنهم نزحـوا مهاجـرين إلى البلاد التي نـزلوهـا. ويردد العهـد القديم (الفصـل العاشر، سفـر التكوين) هـذه الروايـة ويؤكدها وورد في ذلك الفصل قـائمة نسب للشعـوب المختلفة المعـروفة في تلك الفترة، مبتدئاً بأولاد نوح الثلاثة: سام وحـام ويافث. وهم أيضـاً أسماء لثـلاثة شعوب كبيرة هم: الساميون، الحاميون، واليافيثون واسم صيدا الوارد في قائمة العهد القديم يمثل فينيقية كلهـا في شخص رجل واحـد، وهو الـولد البكـر من أبنـاء كنعان (Canaan) وكنعـان من أبناء سـام. فالفينيقي يـدخل في مجمـوعـة الكنعـانيـين، واللغـة الكنعـانيـة بحسب خـواصهـا هي من ضمن المجمـوعـة

السامية. وقد أشارت رسائل تل العمارنة إلى بلادهم باسم «كيناهو» (Kinahnu) أو (Kinahhu).

ويرى هيرودوت وجوستان وماسبرو، بأن الفينيقيين عرباً، وأن الأمة السورية مكونة من الفينيقيين. وأن الشاطيء الفينيقي كان غير آهل بسكان كثيرين. بينما كانت هجرة الفينيقيين بنسبة كثيفة جداً بحيث غطت على السكان البدائيين. ولما زار هيرودوت فينيقية حوالي عام (٤٥٠ ق. م.) أكد له الناس بأن صور أسست قبل زيارته بحوالي ٢٣٠٠ سنة ومعنى ذلك أن عام ٢٧٥٠ ق. م. هو عام تأسيس مدينة صور، وهو تاريخ راجح يتفق مع ما اكتشف من آثار بيبلوس.

هذا، وإن مقابر بيبلوس (جبيل) في الألف الثاني ق. م. تؤكد أهمية العنصر السامي بالبلاد، فإن الملك «ابشيموابي» (Ypshemuabi) ملك بيبلوس ملك سامي بأصله واسمه. وفي منتصف الألف الثاني تشير مراسلات تل العمارنة السابقة الذكر إلى الساميين النازلين في كل البقاع الفينيقية. كما أن قبر احيرام الملك السامي (بعد حوالي قرنين) وجد على قبره شاهد مكتوب باللغة السامية الفينيقية. وفي الواقع فإنه يوجد سلسلة من الوقائع العلمية تتيح للدارس تتبع وجود العنصر السامي في فينيقية إلى بدء العصر التاريخي، مما أكد أن الحضارة الفينيقية حضارة عربية بأصولها، سامية بمنابعها، آسيوية بملامحها. ولهذا نرى أن الكثير من الألفاظ والعادات والتقاليد وأسماء الأيام والأشهر والأعياد في فينيقيا يتشابه ويتقارب مع ما كان موجوداً في الجزيرة العربية وبقية البلدان التي هاجر إليها الساميون في المنطقة.

أما فيما يختص بلغة الفينيقيين، فهي في الواقع، كانت نتيجة تطور لغوي قديم، فقد تأثرت الفينيقية باللغة السينائية القديمة (نسبة إلى سيناء) وباللغة العربية الجنوبية، وبالهيراطيقية وهي الهيروغليفية المبسطة. علما أنه وجد في بلاد العرب شاهد قبر «ميزا» وعليه كتابات بلغة مؤاب وهي لغة عربية قريبة من الفينيقية. ويرى د. أنيس فريحة خلافاً لأراء الفكر اللبناني والفينيقي التقليدي، بأن فينيقيا كانت تقطنها مجموعات بشرية تنتمي إلى العرق الأرامي وبرأيه أن

هؤلاء هم سكـان لبنـان الأصليـون، وكـانت لغتهم الأراميـة. وإن السكـان اللبنـانيين فيـما بعد تكلمـوا اللغة العـربية بـتركيب سرياني ومفـردات عـربيـة، وأضاف قوله، بأن الإغريق والرومان حاولوا ما بوسعهم أن ينزعـوا عن الشعب اللبناني الصيغة السامية فلم يفلحوا. وهذا تأكيد على أن الشعب اللبناني كـانت جذوره وأصوله سامية عربية، بما في ذلك الأراميين السريان. وأضاف د. فريحة قائلاً: «لا ينحصر الأثر السامي في اللغة، بل يتعداها إلى العقلية كما تبدو لنا في فولكلوره وعاداته. ومآكله ومشاربه وملابسه، وتتمثل الذهنيـة الساميـة أيضاً في بعض المثل الصحراوية في الفروسية والكرم والولاء القبلي. وبـالرغم من تـأكيد د. فـريحة من أن الآراميـين هم السكان الأصليـين للبنان، غـير أنه من الثـابت أيضاً، بأن الآراميين هم من جملة الشعوب السامية التي نـزحت قبل سـواها من شبه الجزيرة العربية إلى الساحل السوري.

أما فيما يختص باسم لبنان فـيرى الأب مرتـين اليسوعي، بـأنه أطلق عـلى اسم فينيقيا أيضاً اسم لبنـان، وأن البعض يرى أنـه سمي كذلـك لكثرة الثلوج البيضاء على غرار جبل «بلان» (Blanc). كما إن اليـونانيـين الذين اطلقـوا اسم فينيقيا على المنطقة، هم أنفسهم اطلقوا على جبـاله «انتي ليبـان» (Anti-liban) بينـما أطلق عليه العـبريون (العـبرانيون) اسم «لبنـون» و«هلبن» وهـو مشتق من فعـل «لبن» أي أبيض. بينـما رأى البعض الآخـر بـأن اسم لبنـان اسم سـامي مشتق من اسم شجرة عطريـة مشهورة عنـد الساميـين بشجيرة اللبـان (البخور) ويـرى د. كمال الصليبي وسـواه من المؤرخـين بـأن عبـارة «لبنـان» لم تستخـدم استخداماً رسمياً محدد المضمون، إلا بعد إنشاء المتصرفية اللبنانية. بل أن أمراء الجبل عرفوا بأمراء الدروزوليس بأمراء لبنان.

من جهة ثانية، فإن «روبنسـن» (Robinson) في كتابه «تـاريخ اسرائيـل» يذكر بأن العرب جـاؤوا إلى بلاد الشـام قبل ثـلاثة آلاف سنـة من ولادة السيد المسيح، وذلك عـلى موجـات متتابعـة، فكانـوا في داخلها يعـرفون بـالأموريـين (العموريين) وفي ساحلها بالكنعانيين الفينيقيين. وقـد أكدت التنقيبـات الأثريـة صحة ما رواه «روبنسن»، كما أكدتها الكتابات العربيـة الأثريـة التي وجدتهـا في

الستينات بعثة جامعة متشيغن الأميركية على جدران خزان للمياه بالقرب من عمان وهي تعود إلى القرن الخامس ق. م. وقد ورد ذكر العرب باسمهم الصريح في رقيم أصدره الملك الأشوري شلمناصر بمناسبة حملته على دمشق عام ٨٥٤ ق. م. كما ورد اسمهم في تاريخ الاسكندر المقدوني الذي جاء فيه: أثناء ما كان الاسكندر يحاصر صور في سنة ٣٢٨ ق. م. رغب في الترفيه عن نفسه بالصيد. ولما توغل في طلبه وجد نفسه بين قوم من العرب. ثم أن التوراة أتت كثيراً على ذكر العرب بالشام خلال القرنين السابقين للسيد المسيح. خصوصاً في الأصحاح ١١ و١٢. العدد ١٣ و٢٠. . . . وأراميا الأصحاح ٣ والأصحاح ٢٥ وكذلك في سفر أيوب. كما أن تاريخ المسيحية يشير إلى وجود العرب في فلسطين في عهد السيد المسيح عليه السلام. وقد أشار إلى ذلك الأب يوسف قوشاقجي، حيث روى أن العرب كانوا بين الحاضرين في أورشليم يوم نزل الروح القدس على الرسل، وإن الرسوليين العظيمين بطرس وبولس تكلما باللغة العربية، اعتماداً على ما جاء في الفصل الأول من سفر أعمال الرسل.

ثم أن التاريخ حفل بذكر دول للعرب أسست في فينيقيا وخارجها كالأنباط في البتراء (الأردن) وتدمر بسوريا عام ١٠٦ ق. م. ومملكة الإيطوريين العرب في لبنان في القرن الثاني ق. م. وفي نهاية القرن الأول الميلادي. وكانت عاصمتهم عنجر في البقاع، وذكر الاب هنري لامنس، بأنه عندما زحف بومبيوس على لبنان وجده في قبضة أحد الايطوريين. وأضاف بأن كل الأعلام الإيطورية الواردة في الكتابات القديمة أما عربية وأما آرامية من أصل سامي عربي، ومن القبائل العربية القديمة التي وطأت جنوب لبنان هي قبيلة بني عاملة. وبذلك يقول «ديمونبيين» (Demonbygne) في كتابه:

«بان بني عاملة سلالة سبأ العربي هم اليمنيون الذين أتوا عقب انهيار سد مأرب وسكنوا جبلاً دعي باسمهم «أي جبل عامل». ثم أن العرب بالمعنى التاريخي الشائع اليوم وجدوا في لبنان قبل الإسلام، بدليل ما كتبه أبو عبيدة بن الجراح إلى أهل بعلبك حيث خاطبهم بالقول: إلى أهل بعلبك رومها وفرسها وعربها.

ولا بد من الإشارة إلى أن الجذور والأصول العربية لا تزال تظهر واضحة في اللهجة العامية اللبنانية سواء لدى أهل الجبل أو أهل الساحل أو الداخل أقول الأصول العربية وليس السريانية. والمسيحيون أنفسهم ينهجون نهج العرب في الكثير من كلماتهم الواضحة والمميزة عن المسلمين لاسيما الكلمات التي تنتهي بتاء مربوطة (ة) فيلفظونها تاء مفتوحة (ت). وهذه لهجة عربية أصيلة من شبه الجزيرة العربية كقولهم (بقرت) (سياست) (حكمت) (لهجت). وقد عرف عن العرب في الجزيرة من يقول: يا أهل سورت البقرت (سورة البقرة) وللشاعر العربي أبي النجم بيت من الشعر يقول فيه:

صار نفوس القوم عند الغلصمت وكادت الحرة أن تدعى أمت

وفي الجبل اللبناني المسيحي والدرزي معاً تلفظ (القاف) واضحة في: قال، قلنا، قوي، دون تمييز بينهما. كما أن بني تميم كانوا يبدلون السين صادا مثال (عالسور) فنقولها (عالصور)، و(المسيطبة) فتلفظ (المصيطبة) و(السمطية) فتلفظ (الصمطية)، وكقول ابن الجبل أيضاً (راص) بدلاً من (راس)، وأحياناً يحول (الذال) إلى سين كقوله (اس كان) بدلاً من (اذا كان) ويحولها إلى (دال) كقوله دهب بدلاً من (ذهب). ولغة بني تميم تظهر في لهجة اللبناني الذي يقول (لاء) بدلاً من (لا) وتظهر لهجة أهل الحجاز في جنوب لبنان بقولهم (مننا) بدلاً من (منا) كما تظهر لهجة أهل نجد في الجنوب أيضاً في مثل (باب وكتاب) فيقولون (بيب وكتيب). وتظهر لهجة بكر بن وائل في كسروان وبعض مناطق لبنان في مثل الكلمات المضخمة (ضهر) بدلاً من (ظهر) و (عباية) بدلاً من (عباءة). أما أهل الشمال المسلمين والمسيحيين وأهل إقليم الخروب، فتظهر فيهم لهجة قبيلة طيء كقولهم: (افعو) بدلاً من (افعى). والعرب اعتمدوا هذا الأسلوب في اللهجة حتى ظهر واضحاً في أسماء بعض العائلات اللبنانية، فآل سنو مثلاً هم في الأصل آل سنه، وكنيعو هم في الأصل كنيعه، واستخدمت مشاقه ومشاقو معاً وبرى وبرو وهكذا. والحقيقة فإن ما من منطقة في لبنان إلا وتظهر فيها آثار اللهجات العربية سواء في المناطق الإسلامية أو المسيحية على السواء.

والحقيقة فإن هذا الشعب السامي استطاع أن يتأثر ويؤثر بالحضارات المحلية والدولية وأقام نظاماً متكاملاً سياسياً، واقتصاديا واجتماعيا يمكن دراسته على النحو التالي:

١ ـ النظام السياسي

أ) ـ الملكية

عرفت المدن الفينيقية الرئيسية، جبيل وصيدا وصور وأوغاريت النظام الملكي الذي تميز عن سواه من الأنظمة السياسية في منطقة الشرق الأدنى القديم فلم يكن النظام الفينيقي نظاماً استبدادياً، ولم يكن نظاماً إلهياً، على أن الملك يجب أن يكون من خيرة الناس ويتصف أحياناً بالقداسة. والنظام الملكي الفينيقي كان نظاماً وراثياً يحق للملك أن يختار أحد أبنائه الذكور ليحكم من بعده.

وكان على الملك الفينيقي مسؤوليات تتضمن حماية المدينة ورعاية شؤونها والدفاع عنها ولذا فهو يعتبر قائداً للجيش الفينيقي كما عليه مهمة إقرار القوانين والعمل بموجبها وإقامة العدل بين المواطنين وفي حال تقصيره في القيام بواجباته يحاسب أمام الآلهة ومجلس الشيوخ الذي أقيم فيما بعد.

ب) ـ المجالس السياسية

تأثر النظام الفينيقي بالنظام اليوناني في بعض الفترات التاريخية، فقد عرفت المدن الفينيقية النظام الثنائي، كأن يحكم المدينة قاضيان على غرار حكم القنصلان اليونانيان. وهذا النظام ساد في فينيقيا في الأيام الصعبة، لاسيما عندما يتوفى الملك دون وريث، أو في حال وجود وريث غير كفء. مما يشير حقيقة إلى وجود المميزات الديمقراطية في الحكم الفينيقي.

وعرفت فينيقيا أيضاً المجالس التمثيلية وفي مقدمتها مجلس تمثيلي مؤلف من طبقات الشعب، قام بدور بارز في إصدار القرارات التشريعية وإقرارها، لما فيه خدمة المواطنين الفينيقيين.

أما مجلس الشيوخ، فكان بطابعه السياسي يمثل إرادة المواطنين، لأنه مجلس منتخب من قبل مجلس الشعب، وإن كان غالبية اعضائه من الطبقة الارستقراطية. وكان هذا المجلس يتألف من ثلاثمائة عضو، وكانت مهامه تنفيذية وتشريعية والاهتمام بالمدينة في زمن الحرب والسلم.

ومن الأهمية بمكان القول بأن الأنظمة السياسية الفينيقية لم تستطع أن تتطور كثيراً تطوراً استقلالياً بفعل الغزوات الأجنبية المستمرة التي فرضت انظمتها السياسية على المدن الفينيقية وصبغتها بصبغتها. ثم أن التناحر والتنافس الداخلي المستمر بين صيدا وصور وجبيل أدى إلى تقسيم فينيقيا وتفتيت قواها السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وهذا التناحر الداخلي كان سبباً رئيسياً من أسباب خضوع فينيقيا للغزوات الخارجية وسبباً من أسباب عدم قدرتها على مواجهة هذه الغزوات.

٢ ـ النظام الاجتماعي

لم تعرف فينيقيا النظام الطبقي المتشدد، بل كان نظاماً طبقياً مرناً، حيث أن الفقير من العامة باستطاعته أن ينقل إلى طبقة الإشراف والارستقراطية والبورجوازية في حال تحويله إلى رجل غني أو تاجر ثري. وشهدت فينيقيا طبقات اجتماعية عديدة، فبالإضافة إلى طبقة العائلة الملكية التي سبق أن تحدثنا عنها هناك طبقات أخرى منها:

أ) ـ النبلاء

تعتبر طبقة النبلاء من الطبقات الثرية في المجتمع الفينيقي، سواء الثرية بالوراثة أو الثرية بالحداثة. وكان النبلاء ممن يعملون في ميدان التجارة والصناعة وكافة الأمور الاقتصادية. وقد توصل عدد منهم إلى مناصب سياسية في المدن الفينيقية لاسيما في المجالس التمثيلية ومجالس الشيوخ وكان إلى جانب النبلاء فئات تعود بأساسها إلى طبقة العامة مثل الأطباء وكبار التجار والصناعيين وهذه الطبقات عرفت بالطبقة البورجوازية.

ب) ـ العمال

أنشأ العمال في المدن الفينيقية تجمعات تشبه النقابات فكانت هناك نقابات للنحاسين والزجاجين والخزافين والنجارين والصاغة. وحرص العامل ـ كالطبيب على أن يعلم مهنته لأبنائه من بعده حتى لا تتسرب قواعدها وأسرارها إلى سواه، ولوحظ بأن العامل الفينيقي تحسنت أحواله الاقتصادية لاسيما بعد تطور النشاط التجاري المحلي والدولي، فكان عليه أن يزيد في انتاجه ويطوره خاصة بعد إقبال المصرين واليونانيين على الصناعات الفينيقية.

ج) ـ الفلاحون

لم يعتمد الفينيقيون اعتماداً كلياً على الزراعة كالمصريين مثلاً، وذلك بسبب طبيعة البلاد وضيق الرقعة الزراعية، فعمل بعض السكان في الزراعة وأوكلوا جزءاً من النشاط الزراعي إلى العبيد الذين عوملوا معاملة طيبة وكان هؤلاء العبيد من خارج المدن الفينيقية، أما صغار الفلاحين الفينيقيين فكانوا من طبقة الفقراء في فينيقيا.

د) ـ المرأة

قامت المرأة الفينيقية بدور بارز في المجتمع الفينيقي سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية، فقد تأكد بأن بعض النساء نالت السلطة والحكم في فينيقيا لاسيما عند وفاة زوجها الملك الذي لم يترك وريثاً ذكراً أو ترك وريثاً قاصراً، ومن بين هذه النسوة (اليسا) ملكة قرطاجة. وكانت الملكة الفينيقية تتمتع بامتيازات الملك ذاتها، فلها مساعدون وحاشية، وهي تحترم كالآلهة واعتبرت بأنها مقدسة.

وكانت المرأة الفينيقية العادية تساهم في أعباء العائلة الفينيقية، فتساعد زوجها في الميادين الصناعية والزراعية. وكان يحق لها أن ترث وتورث وتملك الأراضي والمنازل. وشهد المجتمع الفينيقي تعدد الزوجات عند الرجل رغم أن هذه الحالة لم تكن منتشرة كثيراً في الأوساط العائلية. وبالرغم من أن المرأة الفينيقية لقيت الاحترام والتقدير من زوجها ومجتمعها، ولكن المجتمع الفينبقي

شهد النساء العبيدات الأجنبيات اللاتي خدمن في قصور الملك والاشراف والنبلاء، غير أنهن كان باستطاعتهن الزواج من الرجال الأحرار بعد عتقهن.

٣ ـ النظام الاقتصادي

تركز النشاط الاقتصادي في المدن الفينيقية في عدة ميادين خاصة الزراعية والصناعية والتجارية، وهذه الأنشطة صبغت الحضارة الفينيقية بصبغة خاصة ميزتها عن بقية حضارات الشرق الأدنى القديم، أما الخطوط الرئيسية للنشاط الاقتصادي فيمكن تلمسها فيما يلي:

أ) ـ الزراعة

بالرغم من عدم اعتماد الفينيقي كلياً على العمل الزراعي، غير أن الفلاحين الفينيقيين اهتموا بتحسين وسائل وطرق الانتاج، فأقاموا المدرجات الجبلية والساحلية وزرعوا فيها الحبوب والخضار والعنب والزيتون، كما قاموا بتربية المواشي. وأفادت الحفريات الأثرية على أن الفلاحين الفينيقيين استخدموا المحراث الخشبي الذي كان يجره العبد الفلاح أو الثيران في حال توفرها. وقد وجد في المناطق الساحلية الزراعية بعض الأواني التي كان يجمع فيها بعد أنواع من الحبوب وذلك بهدف التموين.

ويبدو أن الأشجار غير المثمرة مثل أشجار الغابات التي لم تكن من زراعة الفلاحين الفينيقيين إنما هي غابات برية، ولكن لقيت اهتماماً من الفينيقيين لأنها أصبحت مادة تجارية وصناعية تستغل في الصناعات الخشبية وفي بناء السفن وفي بيعها لمصر وفلسطين.

ب) ـ الصناعة

تعددت الأنشطة الصناعية عند الفينيقيين من صناعات معدنية وخشبية وزجاجية وخزفية غير أن الصباغ الأرجواني الأحمر هو أحد المميزات الكبرى في تاريخ الصناعة الفينيقية حتى ذكر بأن اليونانيين اسموا شعب المنطقة (فينيقيين)

نسبة الى الفنيكس[1] ويعني اللون الأحمر المستخرج من صدف (الموريكس) الموجود عند الشواطيء الفينيقية.

وقد جمع الصانع الفينيقي بين صناعة المنسوجات وبين صناعة واستخراج اللون الأحمر القاني البنفسجي ولهذا ازدهرت هذه الصناعة التي أضحت تجارة فينيقية هامة بدليل أن ملوك وأباطرة اليونان والرومان ارتدوا اللباس الملكي الأرجواني الذي صنعه الفينيقيون.

بالإضافة إلى هذه الصناعة، فقد صنع الفينيقيون السفن التجارية والحربية وساعدهم على ذلك توفر عاملين: وجود الغابات، والخبرة الفينيقية في مجال البحار والتجارة. وقد ازدهرت هذه الصناعة الفينيقية بدليل أن بعض الرحلات الجغرافية التي قام بها اليونانيون اعتمدوا في قيامها على سفن فينيقية وعلى بحارة فينيقيين.

كما صنع الفينيقيون أنواع عديدة من الأواني الفخارية المنقوشة والمرسوم عليها عدة رسومات، كما وجدت أوانٍ صنعت من المعادن، وعثر في بعض المناطق الأثرية مثل جبيل وصيدا وصور على أدوات من الحلي والخزف والأساور وأدوات الكحل والتزيين. كما استخدم الفينيقيون في صناعاتهم النحاس والحديد والقصدير والذهب وقد استوردوا بعض المواد الأولية من أرمينيا واليونان وايطاليا واسبانيا فصنعوها ثم صدروا جزءاً منها إلى الخارج والجزء الآخر باعوه في مناطقهم. كما إنهم استخرجوا الزيت من الزيتون والخمور من الكرمة، وقد ازدهرت الصناعات واشتهرت في الداخل والخارج.

ونظراً للصلات والعلاقات المتبادلة بين فينيقيا والمدن اليونانية والمصرية وسواها، فقد اقتبس الفينيقيون بعض الصناعات وعملوا على تطويرها وصبغها بالصبغة الفينيقية، فالزجاج نقلوا صناعته عن المصريين، ولكن أضافوا على الأواني الزجاجية الرسوم والأشكال ذات الطابع الفينيقي، كما قاموا بتلوينه عدة ألوان مما ساهم في إضفاء مسحة جمالية صناعية عليه. أما الصناعات العاجية فقد اعتمدت بشكل أساسي على العاج المستورد من الهند وإفريقيا، ولم يصل

كل التجار الفينيقيون إلى تلك المناطق لشراء العاج، إنما جرى في بعض الأحيان أن قاموا بشرائه من خلال محطات تجارية أخرى مثل مصر أو بلاد ما بين النهرين.

ج) ـ التجارة

كان الفينيقيون تجاراً أكثر مما هم زراعاً أو صناعاً، ولعل الموقع الجغرافي الساحلي ساعدهم كثيراً على مد آفاقهم إلى الخارج. فعملوا في التجارة الخارجية بعد أن ضاق بهم العمل التجاري المحلي، وبدأوا بالبحث عن المواد الخام فصنعوا وباعوا وتاجروا وسمسروا أيضاً، فتعاملوا مع المصريين منذ الألف الثالث ق. م. وتعاملوا مع اليونانيين والكنعانيين والعبريين على السواء.

وكانت الملاحة من المميزات الهامة الأخرى في الحضارة الفينيقية، وقام بعض الملاحين الفينيقيين بجولة حول إفريقيا عام ٦٠٠ ق. م. لحساب فرعون مصر (نخاو) وقد دارت الرحلة حول إفريقيا والبحر الأحمر وجبل طارق وقد استغرقت الرحلة ما يقارب ثلاث سنوات. كما أرسلت قرطاجة بعض الملاحين الفينيقيين لاكتشاف مناطق مجهولة في إفريقيا وأوروبا، وأهم هؤلاء (حنون) و (هملكون)[٢].

والواقع فإن تطور حركة التجارة والملاحة الفينيقية أدت إلى تكوين محطات ومدن تجارية خاصة للفينيقيين ومنها محطات في قبرص، ومدينة أخرى أقاموها على الشاطيء المتوسطي الإفريقي وهي مدينة (قرطاجة)[٣] كما أقاموا محطات في صقلية وسردينيا واسبانيا وإفريقيا الشمالية. ولم يكن لهذه المحطات أثر اقتصادي فحسب، وإنما كان لها نتائج حضارية وسياسية حيث بواسطتها تم نشر الحضارة الفينيقية، كما استطاعت هذه الحركة التجارية الفينيقية أن تنقل معها من الخارج إلى الشرق الحضارة الإفريقية والأوروبية وسواهما، بالإضافة إلى المعادن والعاج والذهب والقصدير.

ولا بد من الإشارة إلى أن التجارة الفينيقية لم تكن تجارة بحرية فحسب بل قامت أيضاً على الطرق البرية، وقد قام التجار الفينيقيون بنقل تجارتهم أو

استيراد بضائع عبر الطريق الساحلي الفينيقي جنوباً إلى فلسطين حتى سيناء ومنها إلى الجزيرة العربية أو إلى داخل مصر والسودان والحبشة وشمالاً إلى المدن السورية وقليقية (تركيا) وارمينيا وآسيا الصغرى.

٤ ـ النظام الديني

تعتبر الديانة الفينيقية مزيجاً من ديانات المنطقة، فقد نقلوا معهم من الجزيرة العربية معتقداتهم القديمة، وأضافوا إليها معتقدات المنطقة التي جاءوا إليها وسكنوا فيها، كما تأثروا بالديانات المصرية والسومرية واليونانية. وعرفت الديانة الفينيقية بوجه عام تعدد الآلهة نظراً لتعدد الكيانات السياسية، فكان لكل مدينة إلّه خاص بها وكانت معتقدات المدينة تتميز بطقوسها وشرائعها الدينية عن سواها من المدن الأخرى مع وجود مميزات دينية مشتركة.

وكان الإلّه الفينيقي يسمى (ايل) (El) وقد رأوا فيه خالق السماء والأرض وكل شيء وسيد الآلهة ولعل اسم (جبيل) مشتق من لفظتين (جب) و (ايل) أي منطقة الألّه أو الأرض المقدسة. «والجب» تعني المكان العميق عادة، بينما «ايل» تعني الإلّه[٤].

أما التسمية الثانية للإلّه الفينيقي فهي بعل وتعني (السيد)[٥] وهو إلّه الصاعقة والرعد والمطر. وقد اطلق اسمه على كثير من القرى والمناطق الفينيقية مثل بعلبك وبعلشمية ولا تزال آثار اسمه ماثلة حتى اليوم في مناطق عديدة من لبنان وسوريا.

وهناك آلهة فينيقية أخرى مثل الإلّه (اليان بعل) وهو ابن الإلّه بعل وهو إلّه الآبار والينابيع والمياه الجوفية. وكان (دافون) إلّه القمح و(موت) إلّه الحصاد والأثمار، وأصبحت عشتروت آلهة الخصوبة وهي لا تختلف عن عشتار في بلاد ما بين النهرين.

أما الإلّه (ملك) أو (ملكارت) أي (ملك المدينة) فقد أضحى إلّه مدينة صور، وازدهرت عبادته زمن الملك احيرام ملك صور الذي بنى له هيكلاً ضخماً. وكانت تقدم الأضاحي له باعتباره إلّهاً للشمس والبحر، وقد وصلت

عبادته إلى قرطاجة. كما عرفت فينيقيا معابد للإآله (رشف) و(اشمون) إآله صيدون إآله الصحة.

أما الإآله (ادون) أدونيس فقد عبد في جبيل خاصة والمناطق المجاورة لها، وارتبطت عبادته بالأسطورة الفينيقية حول مصرع خنزير له عند نهر ادونيس (ابراهيم) الذي اصطبغ بدم الشاب القتيل، حيث راحت عشتروت تبحث عنه إلى أن نشلته من عالم الأموات. ومؤدى هذه الأسطورة الاعتقاد بالحياة بعد الموت، فانجراف الأتربة الحمراء في نهر أدونيس في فصل الخريف تعني موت أدونيس أما الربيع حيث يصفو النهر والطبيعة فمعناه عودة أدونيس إلى الحياة.

والواقع فإن المدن الفينيقية والقرطاجية شهدت آلهة كثيرة أخرى غير أن الطابع المميز لهذه الآلهة وللمعتقدات الدينية التي ارتبطت بها هي التقديس لمظاهر الطبيعة، والاعتقاد بالحياة بعد الموت وتقديم الأضاحي للآلهة لاسيما في الأعياد.

٥ ـ النظام العسكري

لم تكن فينيقيا دولة عسكرية على غرار الامبراطورية الفارسية أو اليونانية أو الأشورية أو المصرية، إنما لا يعني ذلك أنها لم يكن لديها جيش استعانت به في تطوير نفوذها في الداخل والخارج.

وكان الملك هو القائد الأعلى للجيش في البر والبحر، وكان له نائب يستعين به في الحروب. وقد عرفت بعض الفترات التاريخية رتبة القائد العسكري غير الملك. كما اشتهر بعض القادة الفينيقيين في وقوفهم في وجه الأطماع الخارجية وخير دليل على ذلك صمود مدينة صور ضد الفرس وملكهم نبوخذ نصر لمدة (١٣) عاماً ضد الاسكندر المقدوني. ولعل صمود الفينيقيين يشير إلى أن جيشهم كان بالدرجة الأولى من مواطنيهم وليس من المرتزقة كما يظن، ولاسيما جيش مدينة صور.

إن الحضارة الفينيقية بمميزاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والعسكرية كانت قد انتشرت في منطقة الشرق الأدنى القديم والعالم اليوناني

والإفـريقي، غير إن من أكـبر الانجازات الفينيقيـة هي الأبجديـة الفينيقيـة التي جاءت نتيجة لتطور لغوي قديم، فقد تأثرت بالسينائية واللغة العـربية الجنـوبية ثم قـام الفينيقيون بتـطويرهـا. وكان لهـذا الاكتشاف آثـار أدبية وفكـريـة عـلى الصعيد الفينيقي والإقليمي والدولي.

---

(١) إن لفظ (Phenix) يعني طائر فنقس الخرافي الذي يعتبر رمزاً للخلود أمـا لفظ (Phoenician) فتعني الفينيقي.

(٢) للمزيد من التفصيلات انظر علم الجغرافيا في كتابنا: تاريخ العلوم والتكنولوجيا.

(٣) قرطاحة ـ كلمة مشتقة من لفظين «قرط حدثت» وتعني «المدينة الحديثة» أو «المدينة الجديدة».

(٤) يعتقد البعض أن كلمة حبيل مصغر لكلمة (جبل) أما كلمة (بيبلوس) (Biblos) فهي مشتقة من كلمة (Bible) أي التوراة.

(٥) من الأسماء الفينيقية الشهيرة اسم القائد (هنيبعل) أي (عطية الله).

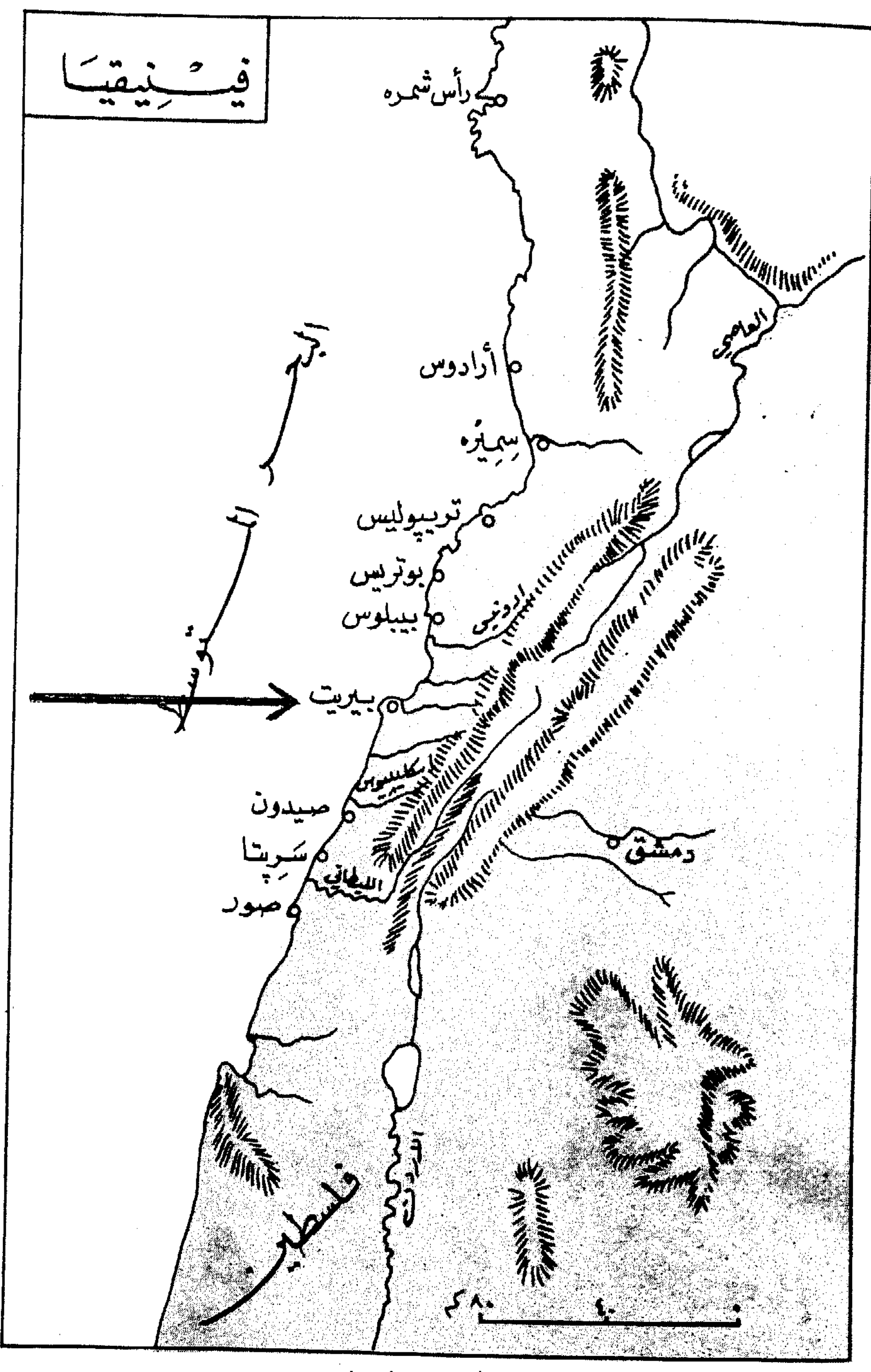
للمزيد من التفصيلات عن الحضارة الفينيقية أنظر المصادر والمراجع التالية:

- حسان حلاق: لبنان من الفينيقية الى العروبة، الدار الجامعية ـ بيروت ١٩٨٨.
- د. رشيد الناضوري: المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريـخ الحضاري والسيـاسي في جنوب غرب آسيا وشمال افريقيا، الكتاب الأول، مكتبة الجامعة العربية، الطبعة الثانية ـ بيروت ١٩٦٧.
- د. زكي النقاش: الفينيقية، ملحق النهار، ٢٣ حزيران (يونيه) ١٩٧٤.
- سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القـديمة (Ancient Semitic civilization)، تعـريـب: د. السيد يعقـوب بكر، مـراجعـة: د. محمـد القصـاص. دار الكـاتـب العـربي للطبـاعـة والنشر ـ القـاهـرة (لا. ت).
- د. فيليب حتي: لبنان في التاريخ، تعريب: د. أنيس فريحة، مؤسسة فرنكلين ـ بيروت ـ نيويـورك ١٩٥٩
- د. فيليب حتي: تاريخ العرب المطول، جـ ١، دار الكشاف ـ بيروت ١٩٦٥.
- كونتنوج: الحضارة الفينيقية (La civilization phénicienne) تعريب: د. محمد عبد الهادي شعـيرة، مراجعة: د. طه حسين، مركز كتب الشرق الأوسط ـ القاهرة ١٩٤٨.
- لبيب عبد الساتر: الحضارات، دار المشرق ـ بيروت ١٩٧١.
- د. محمد أبو المحاسن عصفور: المدن الفينيقية، دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨١.
- د. محمد أبو المحاسن عصفور: معـالم تاريـخ الشرق الأدنى القديم، دار النهضـة العربيـة ـ بيروت ١٩٨٤.
- د. محمد عبد القادر محمد: الساميون في العصور القديمة، دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٦٨.
- يوسف الحوراني: لبنان في قيم تاريخه (العهد الفينيقي) دار المشرق ـ بيروت ١٩٧٢

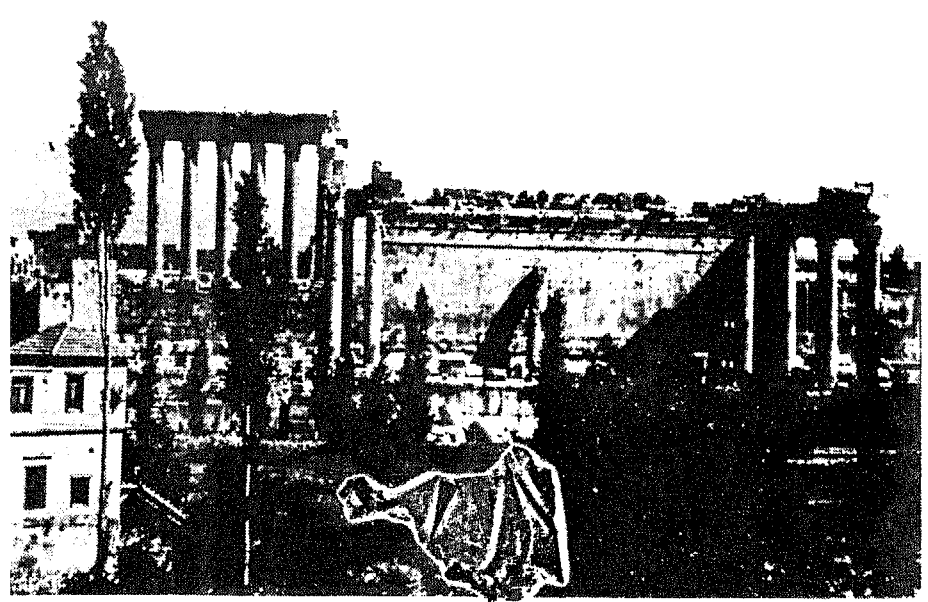
....

- De Bertholon; Documents anthropologiques sur les phéniciens Bulletin société Anthropol = (Lyon 1892)
- Donald Harden; The phoenicians, London 1962
- Dussaud, R; La pénétration des Arabes en Syrie avant L'islam, Paris 1950
- Février J. G; les Origines de la Marine Phénicienne (Revue de L'histoire de philosophie) 1935.

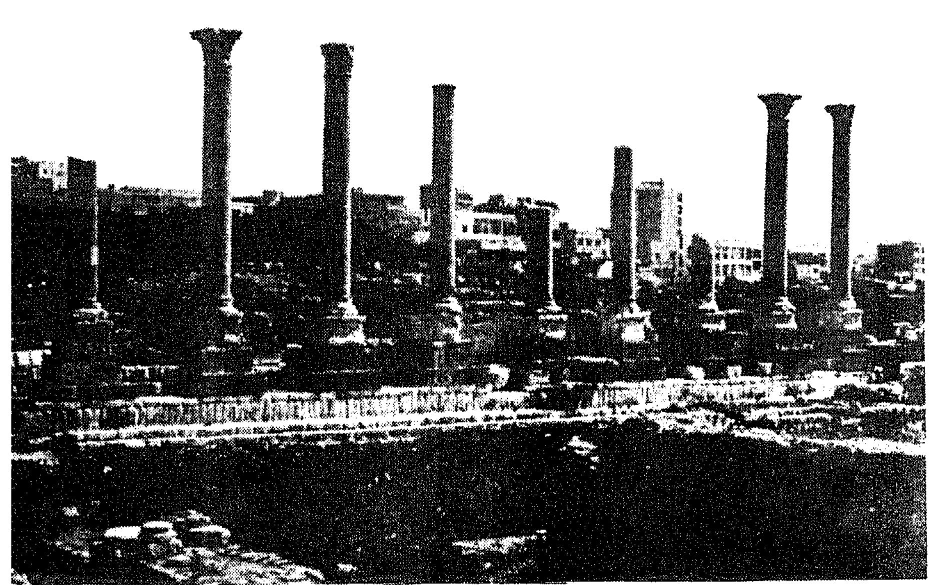
Montgomery; Arabia and The Bible, philadelphia 1943



خريطة فينيقيا (فينيقيا)



هياكل بعلبك (فينيقيا)



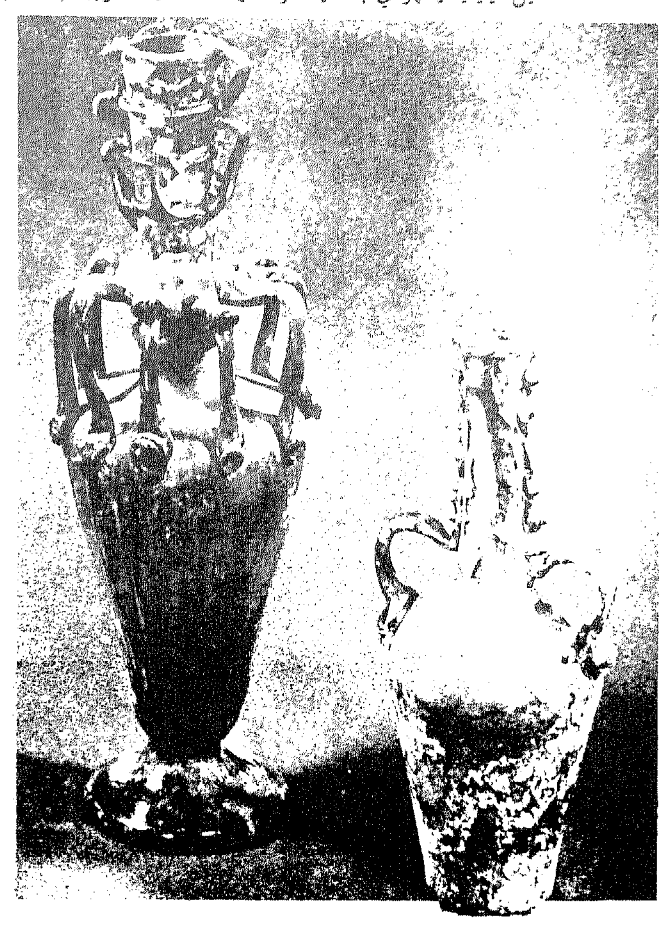
هياكل صور (فينيقيا)

العربية	اللاتينية	اليونانية المتأخرة	رأس شمرة	الفينيقية	العربية الجنوبية	السينائية
ا	A	A				
ب	B	B				
ج	CG	Γ				
د	D	Δ				
هـ	E	E				
و	FV	Y				
ز	...	I				= (?)
ح	H	B				
ط	...	⊗				...
ي	I	S				
ك	...	K				
ل	L	L Λ				
م	M	M				
ن	N	N				
...	X	Ξ				
ع	O	o				
ف	P	Γ				
ص	...	...				
ق	Q	ϙ				
ر	R	P				
س ش	S	Σ				
ت	T	T				

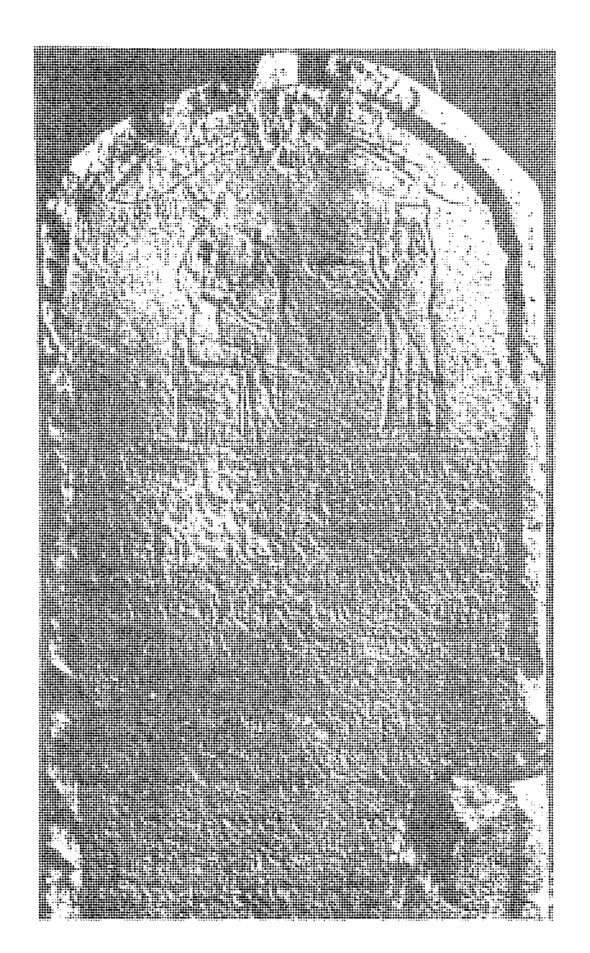
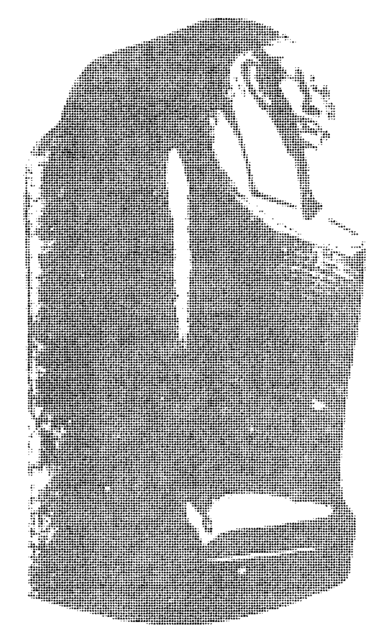
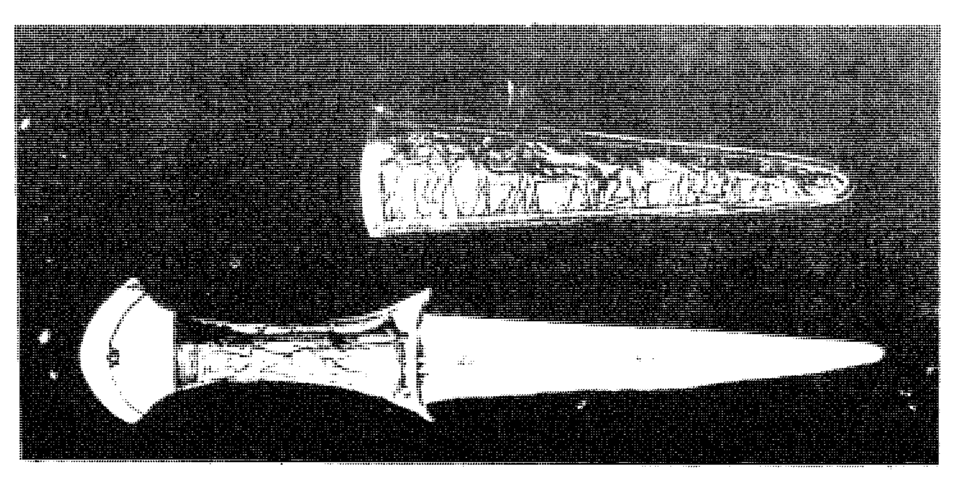
اللغة الفينيقية مقارنة باللغات الأخرى السائدة (فينيقيا)



تماثيل فينيقية يظهر في بعضها أثر العمامة السامية العربية (فينيقيا)



أواني زجاجية فينيقية (فينيقيا)

ناووس اشمعون عازار ملك صيدون ونصب جبيل وخنجر ذهبي
صناعة فينيقية عليه رسوم وزخارف (فينيقيا)

الفصل الخامس
الحضارة الهندية

تقع الهند في جنوبي آسية وقد لعبت حضارتها في القارة الآسيوية ما قامت به الحضارة اليونانية في أوروبا. والأمر اللافت للنظر أن الحضارة الهندية منذ ما قبل الميلاد مستمرة إلى اليوم في عاداتها وتقاليدها وتراثها فلم تنقطع المميزات الحضارية الهندية القديمة بعكس ما حدث للحضارات المصرية والبابلية والفينيقية وسواها. ومن يطلع على الحضارة الهندية اليوم يطلع عن كثب على تجذر التراث الهندي القديم في حياة المجتمعات الهندية. ومن دواعي هذه الاستمرارية ميل الشعب الهندي التقليد والتمسك بالتراث الاجتماعي والديني القديم.

والأمر الملاحظ أيضاً بأن الحضارة الهندية القديمة امتزجت مع سواها من الحضارات الطارئة عليها كالحضارات الفارسية واليونانية والعربية والمغولية وكانت شعوب هذه الحضارات قد وصلت إلى الهند، إما لأهداف عسكرية أو اقتصادية. ولهذا فقد جرت المؤثرات الطارئة بالواقع الهندي فأثرت وتأثرت به.

والحضارة الهندية تعود إلى حوالي ٢٩٠٠ ق. م. عندما شهدت الهند وجود الشعب الهندي القديم المعروف باسم «الشعب الدراڤيدي» وقد اثبتت الدراسات والحفريات الأثرية في وادي الهندوس لاسيما في منطقتي «موهنجو دارو» و «حرابا» عن صحة ذلك[١].

وكانت الهند قد تعرضت لموجات من هجرات الشعوب القديمة إليها قبل الفرس واليونان والعرب، وهذه الشعوب تتمثل بالعنصر الآري الذي وصل إلى الهند حوالي ١٦٠٠ ق. م. ويبدو أن انشقاقاً حصل بين القرنين (١٨) و (١٠)

ق. م. على حدود هضبة ايران الشمالية ـ الغربية بين القبائل الهندو ـ أوروبية التي كانت مستوطنة هناك. وكانت هذه القبائل تسمى باسم الآرين. ويرجع أن أصل هذه القبائل من روسيا الجنوبية وقد وصلوا إلى ايران بعد اجتيازهم القوقاز. وبعد أن استقر الآريون في ايران انشق عنصر منهم واتجه إلى الهند الشمالية ـ الغربية (كابول) واستوطنوا في البدء في منطقة البنجاب بعد أن عملوا النهب والتدمير لمدن وادي الهندوس خاصة مدينتي موهنجودارو وحرابا وذلك حوالي ١٥٠٠ ق. م. وجعلوا من سكان المناطق التي احتلوها عبيداً لهم وفرضوا عليهم لغتهم الهندية ـ أوروبية وهي المعروفة باسم «السنسيكريتية». وبعد استقرار القبائل الآرية في البنجاب واخضاعها لسكان المناطق المجاورة، بدأت تتقوى وتتسع سيطرتها باتجاه الشرق أي إلى مناطق سرسفتي وملتقى نهر الغانج واليمونا، وأثر ذلك بدأت الممالك الآرية تظهر في تاريخ الهند واصبحت مملكة الكورو أعظم ممالك الآرين قوة وعظمة.

وبينما كانت مقاطعات الهند الآرية الشرقية تعمل لتوطيد حكمها واكتساب وحدتها، فإذا بالمقاطعات الآرية الغربية تتعرض لتهديدات عسكرية من غزاة جدد، تمثلت بالفرس، فقد بدأت الامبراطورية الفارسية بإخضاع المناطق التي تقع على حدودها وذلك منذ أيام كورش (٥٦٠ ـ ٥٣٠ ق. م.) الذي استولى على منطقة كابيشا[٢]. ثم ضم داريوس (٥٢١ ـ ٤٨٦ ق. م.). منطقة قندهار[٣] ومختلف مناطق البنجاب الوسطى والسند. وقد دامت السيطرة الفارسية على بلاد الهند ما يقارب قرنين من الزمن، كانت الهند خلالها على هامش الحياة السياسية. واعقب السيطرة الفارسية سيطرة جيوش الاسكندر المقدوني (٣٢٧ ـ ٣٢٥ ق. م.).

وبالرغم من السيطرة اليونانية فقد قام الملك «بيبسارا» (تشاندرا جوبتاء) بتوحيد مناطق شاسعة في الشرق، وأسس مملكة في منطقة «بيهار» عرفت باسم «مملكة الموريا» وذلك حوالي العام ٣٢٠ ق. م. وهي تعتبر أول امبراطورية هندية، وقد اتسعت لتشمل مناطق عديدة من الهند ولتضم معها ما يعرف باسم افغانستان.

ومنذ العام ٧١١ م قامت الجيوش الإسلامية باحتلال الهند على يد القائد محمد بن قاسم، وكانت أهداف السيطرة على تلك المناطق سياسية وعسكرية ودينية. ومنذ الفتح الإسلامي الأول للهند بدأت المؤثرات الإسلامية واللغة العربية تدخل إلى الهند، وبدأ التبادل الحضاري بين الهنود والمسلمين وقد تعرضت فيها بعد الهند لغزوات إسلامية متعددة. واستمرت خاضعة للحكم الإسلامي إلى العام ١٥٢٦ م. حينها غزاها المغول واستمروا في السيطرة عليها إلى القرن الثامن عشر، حينها بدأت بريطانيا باستعمارها لسنين طويلة إلى أن نالت استقلالها في العام ١٩٤٧.

هذا وتنقسم الحضارة الهندية القديمة إلى مرحلتين اساسيتين:
- المرحلة الدرافيدية أو ما قبل عهد الموريا.
- مرحلة حضارة الموريا.
ويمكن دراسة جوانب هاتين المرحلتين على النحو التالي:

أولاً - الحضارة الدرافيدية أو ما قبل عهد الموريا

١ - الحياة الاقتصادية

إن خصائص الحضارة الفيدية (الدرافيدية) هي الحياة الزراعية والقنص وتربية المواشي، وقد استخدم الفيديون في صيد طرائدهم القوس والنبال بينما ادخل سادتهم الآريون الفؤوس النحاسية، ولجأوا إلى الفخاخ والحفر للإيقاع بالطرائد الضخمة كالفيل والنمر والأسد، كما استخدموا الخيول والكلاب.

واعتمد الفيديون على قطعان الماشية لاستغلال لحومها أو للحراسة لاسيما الأبقار الحلوبة والثيران والخيول والعجول والأغنام والماعز. وكانت البقرة منذ هذه المرحلة حيواناً مقدساً يمنع ذبحها وأكل لحمها. كما دجنوا في فترة لاحقة الفيل واستخدموه في تنقلاتهم وحاجياتهم. وعرفت هذه الشعوب نظام الري وحفر القنوات وخزن المياه وتسميد الأراضي واستغلال الطحين.

وشملت المزروعات في بداية الأمر الشعير (ياڤا) ثم الأرز والقطن وكان

هيرودوت أول من أشار إلى مادة القطن في بلاد اليونان التي اسماها الصوف النباتي، ثم شملت المزروعات القمح والحمص والسمسم وقصب السكر وأنواع متعددة من الخضار. وكانت التجارة في البدء محدودة النشاط. غير إن إقامة طرق للعربات ساعد في انتشارها وتطورها بحيث عرفت الفترة تجمعات أو نقابات للتجار. وكانت ركائز تجارتهم تقوم على الأقمشة القطنية والحريرية والعقاقير والحلي والعطور والأسلحة. وانتقلت التجارة من المناطق الداخلية الهندية إلى أسواق افغانستان وفارس. وكانت المقايضة نظاماً أساسيا للعمل التجاري إلى أن عرفت هذه المناطق العملات لاسيما الذهبية والتي عرفت باسم (ستمانا) و (كرشنالا) وستمانا تساوي مئة كرشنالا. كما عرفت الشعوب الفيدية والآرية نظام القروض والفوائد.

أما فيما يختص بالصناعة فكانت متعددة وبينها نسج القطن ونسيج شعر الماعز وصناعة الأقمشة والأدوات الخشبية والزراعية والعربات، أما الصناعات المعدنية فقد تضمنت الأدوات النحاسية والحديدية والبرونزية والفضية ومن القصدير والرصاص والذهب، كما عرفوا صناعة الأقواس والنبال من العاج وصناعة الجلود والفخار. كما صنعوا الآلات الموسيقية كالطبل والدف والمزمار والصنج.

٢ ـ الحياة الاجتماعية

في بداية المرحلة الفيدية لم تكن هناك فوارق اجتماعية واضحة المعالم بين الشعب الهندي الفيدي، ومع مرور الزمن وحدوث التطورات تبين بأن هذا المجتمع حكمته فئتان أساسيتان:

ـ فئة الكهنة (البراهمة) وفئة المحاربين النبلاء (الراجانيا والكشتريا) ومع الوقت تكونت فئتان أخريان أيضاً وهما.

ـ فئة الرجال الاحرار (الفيشيا).

ـ فئة العبيد (الشودرا).

وكانت فئة الكهنة (البراهمة) مسؤولة عن الأمور الدينية والقيام بالطقوس

والشعائر الدينية. ويقوم الكهنة أحياناً بدور الطبيب والساحر ومن بينهم ينتخب كاهن الملك (البروهميت) الذي يصبح له المنصب الديني الأول ويصبح الرجل المميز لدى الملك، لأنه يتلو الصلوات والأدعية له لتحقيق النصر على الأعداء.

أما النبلاء (الكشتريا) فهم يتعاطون الإدارة والسياسة والحرب ويستطيعون القيام - إذا ارادوا - بأعمال الزراعة والتجارة والصناعة واتخاذ زوجات من غير طبقتهم، ولو كن من طبقة العبيد. والمحاربون النبلاء بصورة عامة يشكلون طبقة الملاكين العقاريين. كما أن الملك نفسه ينتمي إلى هذه الطبقة وينتخب منها. وعند انتخابه ملكاً يصبح من مهامه الدفاع عنهم وخدمة السكان.

أما طبقة الرجال الاحرار (الفيشيا) فهي تضم التجار والصناع والفلاحين وبعض الأغنياء منهم.

وكانت طبقة العبيد الأكثر احتقاراً ودعة من بين طبقات المجتمع الهندي رغم أنها الفئة الحقيقية لسكان البلاد الأصليين. يضاف إليهم الفئة المعدمة من الآريين لاسيما مما حط بهم الزمن وجعلهم عرضة للديون، أو من الفئات الذين حكموا وابدل حكمهم بالعبودية أو هم من أسرى الحرب.

ويمكن القول أيضاً بأن المجتمع الهندي الفيدي أساسه الأسرة وتخضع الأسرة للرجل الذي يراقب ابناءه وزوجته، وهو المسؤول عن أعمالهم وممارساتهم. والأسرة الهندية تفضل الذكور عن الإناث، وتستعد الأسرة عادة لولادة الطفل الذكر لممارسة عدد من الطقوس القائمة على السحر، فعندما يولد يشعلون له ناراً خاصة ويقدمون الهدايا المؤلفة عادة من الأرز والسمسم لمدة عشرة أيام. ويطلقون على الولد اسمين: اسم علني واسم سري، لا يعرفه إلا في وقت متأخر وعندما يبلغ الثالثة من عمره يقص له الحلاق شعر رأسه لأول مرة حسب تقاليد وشعر أسرته، ثم يقيمون حفلة له يطمرون شعره في الرمال بعد خلطه بالأعشاب وروث البقر.

والأمر المتبع في الأسرة الفيدية أن يعهد الطفل إلى مرب خاص يسهر على

تربيته وتعليمه الأمور الدينية إلى أن يصبح شابـا، وقبل عـودته إلى أهله يستحم وتطرح امتعته في الماء ويلبس ثيابا جديدة ويصبح بعـدها اهـلاً للزواج. . . ولا يجوز تبعاً للتقاليد الفيدية أن يتم زواج رجل وامرأة لا ينتميان إلى طبقة اجتماعية واحدة. وعلى طالب الزواج أن يدفع لوالد خطيبته ثمنـاً يعرف بـاسم (الشلكا) أي مئة بقرة وعربة، غير أن هذا الثمن لم يـطبق بالنسبـة للأسرة الفقـيرة. ومن المتبع أيضاً بـأن الذي يحـدد موعـد الزواج الكـاهن وليس الزوج أو الأهـل لأن تحديده يتم بعد عدد من الشعائر والطقوس الدينية.

هذا وعرف نظام الزواج الفيدي تعدد الزواج وزواج الأرملة وتحديداً من شقيق زوجها لتأمـين استمرار النسـل، ولكن تطور زواج الأرملة بحيث ' ح باستطاعتها أن تتزوج من غير شقيق زوجها.

٣ ـ الحياة الدينية

عرفت المرحلة الفيدية الهندية ديانات متعددة، وقد تـركزت في البـدء على الديانات المرتبطة بالطبيعة كـالسماء والشمس والقمـر والنيران والأرض والـرياح والميـاه. وكـانت تقـوم أيضـاً عـلى أسـاس الـدبيحـة لاسيـما ذبيحـة الحصـان (اشفميدها) وهي عادة آرية ـ فارسية قديمة.

وكـان زعيم الآلهة (انـدرا) حارس القبـائل المنتصرة، وهـو يمثل بـالثور. والفجر هو الربة الميتولوجية تمثلها بقرات ترتدي ثوباً والأرض (برتـوى) وبقربهـا الآلهـة الشمسية وهي آلهـة قديمـة تتصل ببعض الآلهـة الإيرانيـة حسبما جـاء في الافستا.

وهنـاك العشرات من الآلهة الهنـدية القـديمة مثـال آلهتي الزوبعـة: رودرا وشيفا وآلهة الرياح: فايو وفاتا والماروت. . .

ولا بد من الإشارة في هـذا المجال بـأن للديانـات الإيرانيـة القديمـة الأثر الواضح في المعتقدات الفيدية الهندية.

وتقوم المعتقدات الدينية أيضاً على اعتقاد بالحياة الأخرى وبإجراء الذبائح

الحيـوانية بهـدف الإكثار من المنتجـات الزراعيـة وهبـوط الأمـطار، وبـالاهتـمام بالأحياء أكثر من اهتمامهم بمصير الأموات. وترتبط المعتقدات الـدينية بـالتقاليـد السحـرية في أكـثر المجالات خـاصة عنـد اختيار الـزوج والزوجـة والانتصار في الألعاب وفي الحروب وفي حماية المواشي.

وتطورت ديانـاتهم وطعمت بمباديء متيـافيزيقيـة (ما ورائيـة) متمثلة بإلـه القدرة والكون المعروف باسم (براهمان) المـرتبط بالتقمص. والفكـرة تقوم عـلى انتقال الأرواح أو التقمص (سمساره) الذي لن يعرف في النهاية إلا بالتلاشي في الكـل الألهي (براهمـان) غير أن العـودة الى البراهمـان لن تتم إلا بعـد عـدد من الـولادات المتعاقبـة والصعبـة. وكـان التقمص مشكلة أسـاسيـة تمت إلى الفـرد والمجتمع معاً، ولما جاء بـوذا بدأ بحـل هذه المشكلة بشعـور إنساني يتعـارض مع قسوة البراهمة، واعتقد بأن قيمة الفـرد لا تستند إلى قـوة افعالـه بل إلى مقـدرته الشخصية في مجال الرحمة والمحبة.

٤ ـ الحياة السياسية

قامت الحياة السياسية في الهند القديمة على النظام الملكي المؤلف من ثلاث طبقات: الملك، الكهنوت، الشعب. وكان الكهنوت والشعب يخضعون للملك، وكـان يسـاعـد الملك بعض المـوظفـين والإداريـين يؤخـذون من طبقـة النبـلاء (الكشـتريا)، ومن بـين هؤلاء قائـد الجيش (سيناني) وشيـخ القـريـة (غـرامني) والمنادي أو الشاعر (السوتا).

وكـان إلى جانب الملك مجلس يمثـل آراء الشعب مؤلف من الشبان وكبـار السن وأفراد القبائل والقرى، وكـان يجتمع في اجتـماعات دوريـة لأسباب تتعلق بالبلاد وبمصيرها عسكرياً ومدنياً.

وعرفت هذه المرحلة ما قبل الموريا نظام تقسيم المملكة إدارياً إلى وحدات إدارية إلى غراما (قرية وجماعة مسلحة) وفيس (قبيلة) وجانا (مجموعة قبائل).

وارتبط النظام السياسي بالنظام القضائي، فقد كان الكاهن أو كبير القرية القـاضي المسؤول عن الفصل في الخـلافات بـين السكان، وكـان يقـدر ثمن دم

المقتول بمئة بقرة، وكانت تصدر أوامر بمعاقبة جسدية لكل سارق أو لص.

ثانياً: الحضارة الهندية في عهد حكم الموريا(٤)

١ ـ الحياة الاقتصادية

استمرت الزراعة في عهد حكم الموريا هي المرتكز الأساسي للحياة الاقتصادية الهندية، رغم أنها تطورت مع تطور التجارة والصناعة، كما أن التجارة ذاتها شهدت تطوراً تنظيمياً، فقد أسس التجار النقابات التي مارست نشاطها وفق قوانين نقابية. كما شهدت الحياة الاقتصادية مراقباً اقتصاديا تخصص لمراقبة الأسعار والمكاييل والموازين، كما أن الضرائب فرضت على الموارد التجارية القادمة من الخارج.

والأمر الملاحظ أن الضرائب اصبحت عاملاً اقتصادياً هاماً في عهد الموريا، وقد اعتمد عليها نظراً لزيادة نفقات الدولة، وما يجمع من الضرائب ينفق عادة على الملك والوزراء والموظفين والعسكريين وعلى الفقراء والأعمال العامة مثل شق الطرق وحفر الأقنية الزراعية.

هذا وقد تطورت المبادلات التجارية بين الهند من جهة وبين الصين وبلدان آسية الصغرى من جهة أخرى، فقد تم استيراد الجلود والحرائر بينما تم تصدير الحلي والأسلحة والتوابل والنسيج، وكان لنمو وازدهار التجارة في عهد حكم الموريا تكوين طبقة ثرية من التجار، يكون رئيس نقابتهم عادة من المقربين للملك. ويتضح غناهم من خلال ما يقدمونه من هبات قيمة للأماكن المقدسة.

ويرتبط بفئة التجار فئة الممولين أو رجال المال الذين يملكون ثروات طائلة ومن خلال هذا الارتباط أمكن إقامة مصالح تجارية ومالية مشتركة بين هاتين الفئتين.

٢ ـ الحياة الاجتماعية

ورث حكم الموريا بعض التنظيمات الاجتماعية عن الحكم السابق له في

المرحلة الفيدية أو الدرافيدية، غير أن العوامل المتعددة عبر السنوات أدت إلى بعض التمايز بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية ومما يلاحظ على مرحلة حكم الموريا ما يلي:

لقد كان الملك هو الأكثر سلطة وتميزاً في السلم الاجتماعي رغم منافسة رجال الكهنوت له، وينتخب الملك عادة من النبلاء والشعب، غير أن منصب الملك بات أمراً وراثياً. وفي حفل التنصيب ترافقه زوجته فيرش الكاهن والبراهمة الملك بالمياه (ابهيشكا) بينما يقوم الملك بتقديم ذبيحة الحصان لاثبات سلطاته.

وعلى الملك القيام بالواجبات الدينية وبعدها يستمع إلى تقارير الوزراء، ومراقبي الدولة والموظفين، ثم يعطي أوامره لتنفيذها. وفي العادة فإن قرارات الملك في عهد حكم الموريا كانت قرارات صارمة يجب تنفيذها، وعند المغيب عليه الاحتفال بطقوس غروب الشمس، ولاسباب تتعلق بحياة الملك فإن المقربين منه يخضعون لمراقبة جميع الأدوات التي يستخدمها كما أنهم يراقبون الأطعمة التي تقدم له.

وبالرغم من أن الملك يحيا حياة بذخ وإسراف غير أنه يشترك شخصياً في القتال. واشتراكه في الحرب عملية هامة لأنه يعتبر أنه من أصل ديني إلهي وهو صورة الآلهة على الأرض وخاصة فهو تجسيد رب الأرباب الهندي (انديرا) الذي يعمل على إقرار العدالة في الأرض بعد الحروب.

إلى جانب الملك هناك الموظفون والمساعدون والمفتشون الملكيون، وهؤلاء عادة لا يخضعون إلا لسلطة الملك. ويعاون الملك في إقرار العدل والبت في المشكلات القائمة مجموعة من القضاة الذي كان يحق لهم إصدار قرارات بالتعذيب الجسدي وبتر الأعضاء.

وفي عهد الموريا كان النبلاء (الكشتريا) قد تزايدت سلطاتهم ونفوذهم وقد اختير قائد الجيش منهم، وعندما ينصب تقام له حفلة تنصيب مشابهة لحفلة تنصيب الملك. كما تتمتع أفراد (الكشتريا) في هذه الفترة بأفضل الامتيازات.

أما فئة الكهنة (البراهمة) فقد اصبحوا أكثر نفوذاً وسلطة من (الكشتريا) ومن الملك نفسه نظراً لما لهم من دور أساسي في حياة الهندي، ولما منحوه من امتيازات منذ العهد الفيدي. وقد كانت سيطرتهم على المجتمع تنطلق من ممارستهم لفنون السحر، وللطقوس الدينية. وبالإضافة إلى نفوذهم الديني والسياسي تمتعوا بالثروات الطائلة التي اغدقها عليهم الملك والنبلاء والتجار. وكان الكهنة يعودون بدورهم إلى رئيسهم وأعظمهم مكانة وهو المعروف بكاهن الملك الخاص (بوروهيتا).

بالإضافة إلى هذه الفئات فقد وجدت فئة التجار والأثرياء وهم من الأحرار (الفيشيا). كما شكل الفلاحون عامة الشعب، وعرفت الفترة أيضاً فئات من العمال والصناعيين والمصارعين والمطربين والسحرة والأطباء وقاطعي الأعشاب وسائقي العربات والفيلة والخيول.

أما فيما يختص بنظام الأسرة في مرحلة حكم الموريا فقد كان من المتبع أيضاً أن يحول الابن الى معلم لسنوات طويلة يعلمه الأصول الدينية إلى سن السادسة عشر على أقل تقدير. وحالما ينتهي الشاب من مرحلة التلمذة (البراهماشية) ويدخل في إطار (البراهماشارين) يعود إلى أسرته فيستقبل استقبالاً حافلاً ويعلنون أنه أصبح أهلاً للزواج، غير أن باستطاعته متابعة دراسته في مراكز علمية ودينية أخرى (اشراما) إذا أراد.

وبعد أن يصبح مسؤولاً (فريهستا) عن المنزل عليه أن يؤسس أسرة ويتخذ زوجة تنتمي إلى طبقته، وعليه القيام بالشعائر الدينية وممارسة مهنته، وعليه أيضاً أن يكون مثالاً للتقوى والإيمان والهدوء. ولا يعتبر (الفريهستا) رجلاً كاملاً إلا إذا تزوج، ومن الممكن إذا اختار فتاة أن يعلمها في (اشراما) لتلقي الفلسفة وتكون الزوجة عادة خاضعة لزوجها بشكل مطلق فهي مطيعة له، وفي حال وفاته فإنها تطيع ابنها الذكر البكر، ويحرم عليها إذا أصبحت أرملة أن تتزوج، فالزواج بنظرهم مقدس وسر من الأسرار المقدسة لا يجوز اختراقه. ولا تتردد الزوجات المثاليات من حرق انفسهن على كومة الحطب المعدة لحرق جثة الزوج.

هذا وقد عرفت المرحلة نساء هنديات صالحات وفاجرات على السواء. وأوردت المخطوطات الهندية أمثلة كثيرة على هذين النوعين من النساء. وكانت الزوجة «سبتا» زوجة «راما» المرأة المثالية والأمينة والجميلة والطاهرة... كما عرفت هذه المرحلة من حكم موريا التحاق الزوجات بأزواجهن المسنين الذين يقررون ترك منازلهم والعيش في الغابة بداعي الزهد والتعبد.

٣ ـ الحياة الدينية

تطورت الحياة والمفاهيم الدينية في عهد حكم الموريا، فتطورت الديانة الفيدية مثلاً لتعرف في هذه الفترة باسم الديانة البراهمية أو (البراهماتية) كما تطورت البوذية بحيث اصبحت واضحة المعالم.

وفيما يختص بالديانة البراهماتية التي تسمى أيضاً بالديانة الهندوكية فإنها تتميز بالاعتماد على التجارب الروحية، وبإحلال أعمال العبادة (بوجا) محل الذبيحة، ولهذا ازدادت عقائد عبادات الصور. كما تتميز بكثرة الآلهة التي لا عد ولا حصر لها، ولكن ظهرت رغبات لتوحيد الآلهة الصغرى بالآلهة الكبرى، بينما استمرت الآلهة الفيدية قائمة ولكن كآلهة ثانوية مثل آلهة الفجر والسماء والأرض وبوشان وميترا وفرونا، في حين ترتقي آلهة أخرى إلى المركز الأول مثال: انديرا، فيشنو، شيفا، ويظهر الإله البطل (كريشنا) التجسيد الأكبر لفيشنو.

والأمر الملاحظ في هذه الديانة أن آلهتها تكون عرضة للشوائب كالإنسان تماماً، كما أن النصوص الدينية متناقضة في تفسيرها للديانة البراهمية، أو على الأقل فإنها مزدوجة الاتجاه، فمرة حلولية مبهمة ومرة توحيدية واضحة، غير أنها انتهت في القرون الوسطى والحديثة إلى اتجاه وحدوي روحي ممثلاً بالآلهة (كرشينا) و (فشينو) وقد أوجدها الاندفاع الشعبي الذي يتضح في المهابهاراتا (الكتابات والآداب الهندية) والإقبال على اليوغا. كما تطورت في هذه الفترات فكرة التقمص.

هذا وتتضمن معتقدات البراهماتية الطقوس الجماعية والفردية، كما يعتقد

بفاعلية الصلاة والابتهالات شبه السحرية وإلى قوة الإشارات (مودا وهستا) وتكتسب الصور والهياكل أهمية كبرى مهما صغرت أو كبرت، وترتبط كل المظاهر الدنيوية بالمعتقدات الدينية.

أما فيما يختص بحياة الشباب الدينية فإنها تمر بمراحل متعددة معتمدة على التدرج من صفة طالب (براهماشارين) إلى منزلة المسؤول عن المنزل (فريهستا) وإلى رتبة زاهد (فانبرستا)، وأخيراً إلى سلك ناسك (سمياسين). وتستمر دراسة الطالب ١٢ عاماً وقد تدوم ثمانية وأربعين عاماً، ولقبول الطالب في فئة (البراهماشارين) عليه أن يتقدم بطلب خاص إلى استاذه (غورو) وأن يتقدم بأطعمة وأدوات تعد لإضرام النيران المقدسة.

وفي حال قبوله بعد التحري عنه وعن أسرته يخضع الطالب لحياة قاسية ويخضع لأسس منها قهر الجسد والنفس والقيام بأعمال جسدية وعقلية، ثم عليه أن يطيع معلمه طاعة عمياء. ومنذ الصباح الباكر يستيقظ ليقدم واجب العبادة للشمس. وأسمى مرتبة يصل إليها الإنسان هي (السميناسين) وهي المرحلة التي يصبح فيها ناسكاً متجولاً وشحاذاً. وعند ذاك يتبوأ أعلى المراتب وأكثرها احتراماً. ويكون قد أقر بذنوبه علناً، واستوعب المعلومات الدينية الأكثر دقة وعمقاً عن الفيدا والسحر والطب والتنسك.

أما فيما يختص بالديانة البوذية(*) فهي لم تتنكر بصورة عامة للديانة البراهماتية كواقع ديني مرتبط بالحياة الهندية، غير أن البوذية لم تكن قاعدتها كالبراهاماتية الطبقات الكبرى كالبراهمة والكشتريا، إنما اعتمدت على الطبقات الاجتماعية الأدنى شأناً ومستوى، كما تؤمن البوذية بضرورة تخفيف سلطة البراهمة غير المحدودة والقضاء عليها إن أمكن. وتعتقد أيضاً بحقيقة التقمص والحياة الأخرى وتسند معتقداتها إلى وجود الفعل (الكارمن) والمصير الذي يخضع له الإنسان، وتعمل للقضاء على الامتيازات الاجتماعية والطبقية في المجتمع البراهمي.

وتقوم البوذية على مبدأ الصراع بين الخير والشر والكفر بالذات والتواضع

وعدم اتباع أسلوب القتل والسرقة والكذب، ومحاربة الشر بعمل الخير. ونظراً لاتجاهات البوذية الشعبية والخلقية فقد انتشرت في الهند ومما ساعد في ترسيخها وتقويتها اعتمادها ديناً للدولة من قبل الملك (اشوكا) في العام ٢٥٠ق. م. والذي حكم بين حوالي ٢٦٠ ـ ٢٢٧ ق. م. وقد انعقد في عهده مجمع بوذي كبير في باتلبيترا، وبالرغم من بوذيته غير أنه لم يضطهد بقية المعتقدات بل قام بحمايتها.

وبصورة عامة فإن المميزات الدينية في عهد حكم الموريا اختلفت عن المميزات في العهد الڤيدي، فقد وجدت في المرحلة أنواع من المساكن للناسك والزهاد، وتحولت من مساكن خشبية عادية إلى معابد حجرية ضخمة تدعى (ستوبا). ومن المعابد المشهورة معبد (بود هفايا) بالقرب من الشجرة المقدسة التي يزعم بأنها المكان الذي هبط فيه الوحي على بوذا.

٤ ـ الحياة السياسية

ابتدأت قوة الهند السياسية في عهد «شهندرا غوبتا موريا» الذي اطلق عليه اليونان اسم سندرا كوقوس (سدرجيبتوس). وكان هذا الملك من طبقة الكشتريا، وحكم في حوالي ٣١٣ ق. م. وترى بعض المصادر أنه تقابل مع الإسكندر المقدوني (٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق. م.) وتزعم الثورة ضد اليونان وبعد أن أصبح ملكاً بدأ فتوحاته في كافة مناطق الهند الشمالية.

وفي عام ٣٥٠ ق. م. اجبر موريا ملك المملكة السلوقية سلوقس على عقد اتفاق وأقام معه علاقات دبلوماسية. وفي عهده عرفت اليونان حقيقة حضارة الهند المورية وتنظيماتها، وهكذا عرفت اليونان مبدأ تقسيم المجتمع إلى فئات.

وبلغت الحياة السياسية المورية ذروتها في عهد الملك «اشوكا» (٢٦١ ـ ٢٢٧ ق. م.) حفيد «شندراغوبتا» وقد بدأ حكمه بارتكاب جريمة قتل لأخيه البكر للاستيلاء على العرش، ثم قام بحملة دموية على كالنغا، ولكن سرعان ما اعتنق «اشوكا» البوذية بهدف التوبة والتطهير من الذنوب.

وفي عهد «اشوكا» صدرت مجموعة من الأنظمة والقوانين نقشها في مختلف أرجاء مملكته، وهي قوانين مستلهمة من البوذية ومن الروح الهندية دون أي انحياز عقائدي أو ديني، وهي قامت بصورة عامة على إسناد النظام السياسي والاجتماعي والروحي إلى الملك، ويحافظ على هذا النظام الموظفون والنظار والمراقبون. ومهمة هؤلاء تنفيذ القرارات والقوانين وتطبيقها على الشعب، وبات واضحاً بعد اعتناق «اشوكا» بالبوذية أن النظام السياسي لم يعد قائماً على العنف والبطش، بل أصبح هدفه سعادة الجميع بل الإحساس مع الحيوان نفسه بعدم إرهاقه.

ولقد ضمت ملكة موريا أجزاء الهند الشمالية والشمالية الغربية وامتدت جنوباً إلى منطقة الاندهرا، وأقام المالك «اشوكا» علاقات دبلوماسية مع سوريا ومصر والمغرب واليونان. غير أن من أهم الأحداث في مرحلة الموريا هو سعيهم لتحقيق الوحدة السياسية بواسطة أنظمة سياسية ودينية واقتصادية جديدة.

والأمر اللافت للنظر أن الوحدة السياسية لم تستمر طويلاً، فبعد وفاة الملك «اشوكا» بدأت مملكة الموريا تتفتت وتنقسم، ثم استقر الحكم المركزي في مالفا ومغدها بزعامة «الشونغا» (١٧٦ ـ ٦٤ ق. م.) ثم بزعامة «الكانفا» (٦٤ ـ ٥٠ ق. م.) ثم زادت البلاد انقساماً بتداخل عناصر جديدة محلية وأجنبية كالإيرانيين والمغول، ولكن بالرغم من عوامل التجزئة فإن أثر حكم الموريا استمر في حياة الهند لأجيال طويلة، ولا يزال الدارس يتلمس أثارها ومظاهرها إلى الآن في حياة الهند المعاصرة.

---

(١) تقع هذه المناطق في دولة باكستان، وهذه الدولة كانت جزءاً من الهند.وقد انفصلت عنها عام ١٩٤٧ بقيادة الزعيم المسلم محمد علي جناح أثر اضطرابات سياسية وطائفية. ثم انشق عن باكستان دويلة أخرى هي دويلة بنغلادش.

(٢) أي منطقة كابول.

(٣) أي منطقة بيشاور.

(٤) ينسب حكم الموريا إلى الملك الهندي «شدرا غوبتا موريا».

(٥) نشأت الديانة البوذية في شمالي الهند في القرن السادس ق. م. على يد «ساكيموني» المعروف =

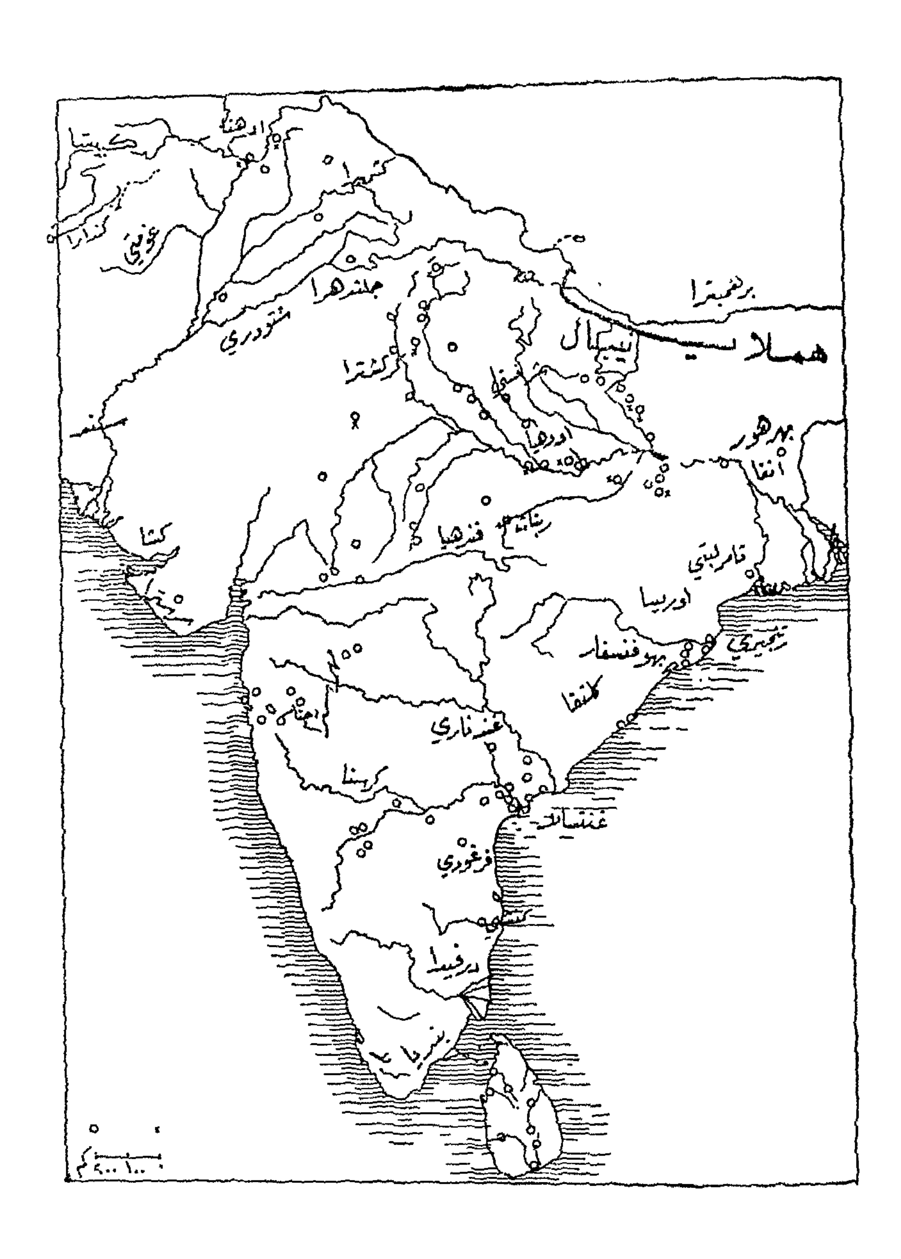
. ...

= باسم (بوذا) أي المستنير (٥٦٤ ـ ٤٨٣ ق. م.) وكان بوذا من أسرة حاكمة ثرية نبذ حياة الترف واصبح متزهداً وابتعد عن المدن ليهيم في المناطق النائية. ثم بدأ ينشر دينه.

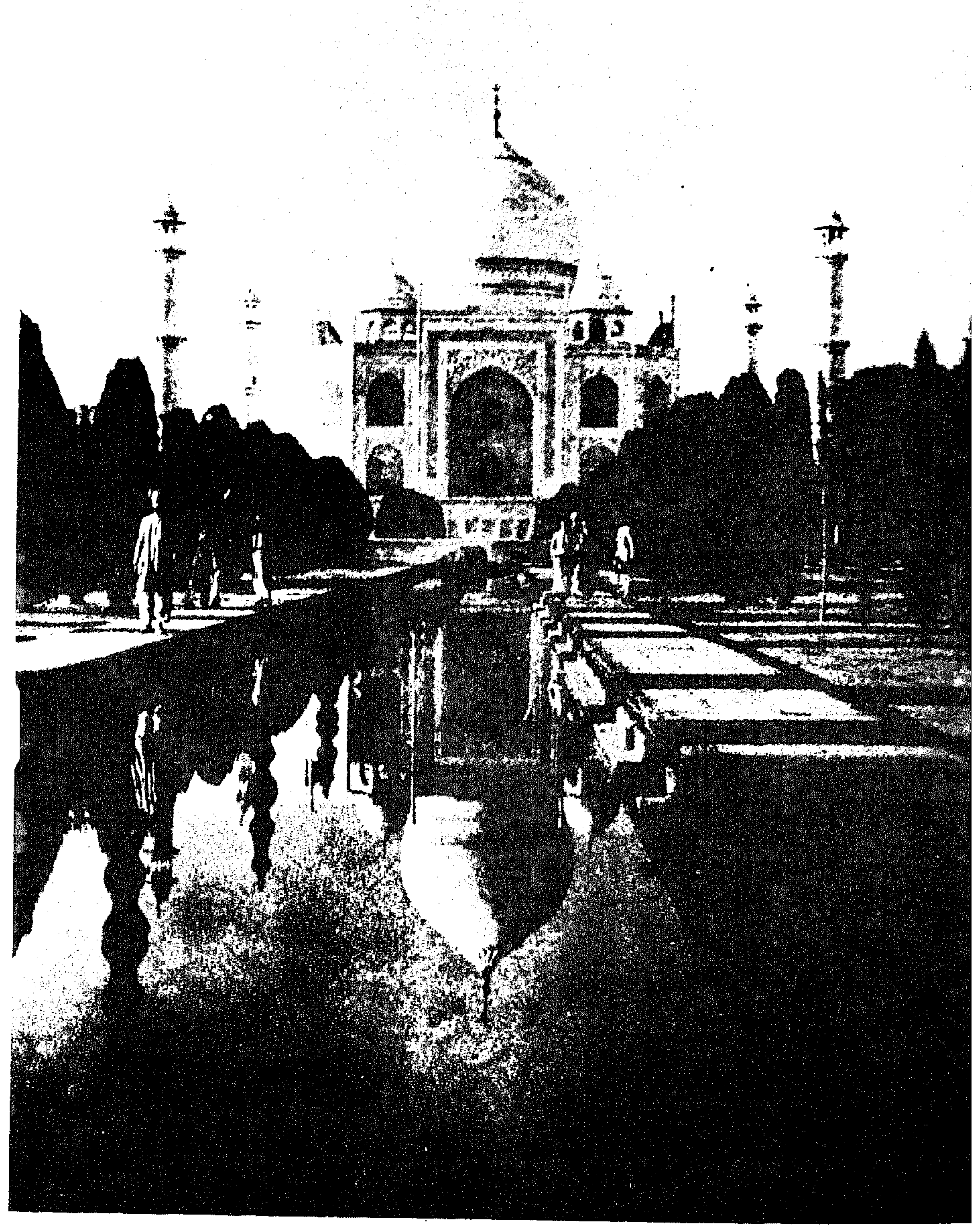
للمزيد من التفصيلات عن الحضارة الهندية أنظر المصادر والمراجع التالية:

- د. أحمد محمود الساداتي: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم حـ ١ ـ ٢، مكتبة الآداب ـ القاهرة ١٩٥٧ ـ ١٩٥٩.
- بزرك بن شهريار الناخداه الرام هُرمُزي: كتاب عجايب الهند (نص محقق بالعربية ومترجم بالفرنسية) لايدن ـ بريل ١٨٨٣ ـ ١٨٨٦.
- أندريه ايمار، جانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام، مجلد ١، القسم الثالث، اشراف موريس كروزيه، تعريب: فريدم. داغر، فؤدا ج. أبو ريحان، منشورات عويدات ـ بيروت ١٩٦٤.
- غوستاف لوبون: حضارة الهند، تعريب: عادل زعيتر، دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٤٨.
- مانوراما موداك: الهند شعبها وأرضها، تعريب: العميد محمد عبد الفتاح ابراهيم، مراجعة وتقديم: د. عز الدين فريد، مكتبة النهضة المصرية ـ مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ نيويورك ١٩٦٤.
- د. محمد اسماعيل النووي: الهند القديمة حضاراتها ودياناتها، دار الشعب ـ القاهرة ١٩٧٠.
- محمد مرسي أبو الليل: الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها، مؤسسة سجل العرب. القاهرة ١٩٦٥.
- همايون كبير: التراث الهندي، مجلس الهند للروابط الثقافية ـ بومباي ١٩٥٥.

- Majumdar R. C, Raychaudhuri, H. C; Kalinkar D; An Advanced History of India, London - New york 1963.
- Moreland W, H; Atul Chandra Chatterjee; A short History of India, London New york, Toronto (Fourt Edition 1958).
- Paul Masson - Oursel, Helena willman - Grabowska, Philippe stern; Ancient India and indian civilization, London (Reprinted 1967).
- Waterlow C; India, London 1969.
- Wheeler (sir Mortimer); The Indus Civilization, Third Edition, Cambridge 1968.
- père Vàth; Historie de L'Inde et de sa Culture Paris 1937.



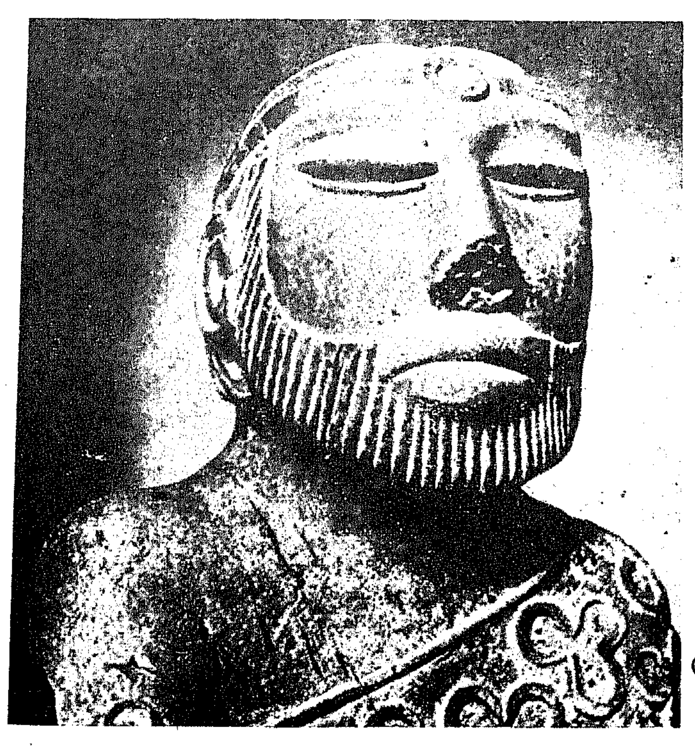
حريطة الهند القديمة في عهد سلالة الموريا (الهند)



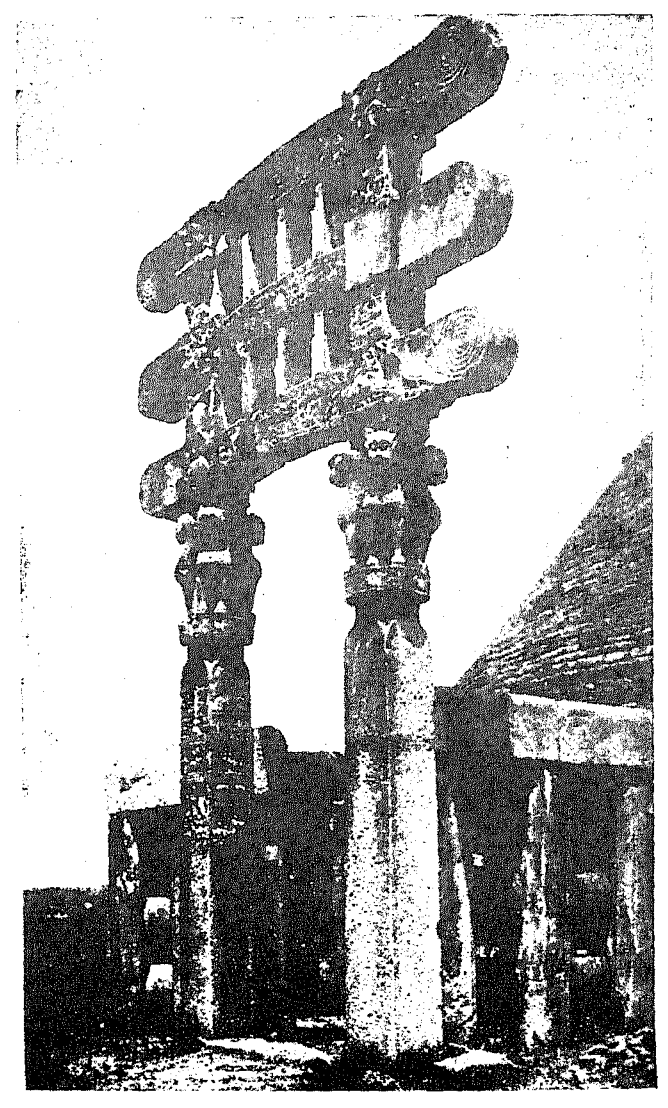
تاج محل (الهند)



تمثال ساكيوماني الملقب بوذا
أي المستنير (الهند والصين)



تمثال نصفي لرجل هندي من منطقة
موهنجو ـ دارو يمثل حضارة الهندوس (الهند)
مدخل الشتوبا في سانشي (الهند)



مدخل الشتوبا في سانشي (الهند)

الفصل السادس
الحضارة الفارسية الأخمينية

الفرس هم من القبائل الهندية - اوروبية التي استقرت في الهضبة الإيرانية الغربية في الألف الثاني ق. م. وقد استطاعت هذه القبائل الاستقرار في المنطقة وبدأت تتقوى وتقوم بدور بارز خاصة في عهد الملك كورش أول ملك فارسي من السلالة الأخمينية، فقد استولى على ليديا وبابل، وبدأ حكمه يتسع في منطقة الشرق الأدنى القديم فامتد من فارس وبلاد ما بين النهرين إلى الخارج. فقام ابنه قمبيز على رأس جيش كبير فاحتل مصر والقيروان، كما سيطر الملك الثالث داريوس الأول على بعض جزر بحر إيجه وتراقية في بلاد اليونان ووصل الحكم الفارسي إلى تركستان ونهر الهندوس. غير أن الفرس انحسروا عن اوروبة أثر هزيمتهم في بلاد اليونان زمن الحروب الميدية، كما انحسروا عن بعض المناطق الأخرى بعد قيام الثورات الداخلية والثورات الخارجية مثل ثورة المصريين ضد الحكم الفارسي.

والأمر الملاحظ أن الروح الإيرانية قامت بدور بارز في تنمية الاتجاهات السياسية والعسكرية للإيرانيين، وللدلالة على ذلك ما ذكره الملك احشويروش ابن داريوس بقوله: «أنا احشويروش الملك العظيم، ملك الملوك، ملك البلاد المتعددة أصناف رجالها، ملك الأقطار الشاسعة، ابن داريوس الملك، إني اخميني وفارسي وآري». ذلك لأن الآريين هم من القبائل الهندو - اوروبية الذين جاؤوا واستوطنوا ايران، وقد نقلوا معهم أنظمتهم الاجتماعية وتقاليدهم.

وقد اعتقدت بعض القبائل الإيرانية بأنها لا تقل نسباً وشرفاً عن الأسرة الأخمينية نفسها. والملاحظ بأن كورش اكتسب سلطة لا حد لها بسبب انتصاراته

وتوسعاته ولكن انقرض نسله بعد موت ابنه. أما داريوس الأول فهو من أسرة ثانوية لم يكن رئيساً لها، وانتخب من بين متنافسين كثر. ونال قوته الجديدة من خلال انتصاراته وقمعه للثورات في سوزة وبابل.

وتتميز الروح الإيرانية أيضاً بمظاهر أخرى تميز الحضارة الفارسية عن حضارات الشرق الأدنى القديم فهناك، المميزات الدينية حيث للأله (ارمزد) الإله الفارسي الأعظم طبائع مميزة عن الآلهة المتعددة. كما إن الأمة الفارسية تتوزع إلى فئات متعددة لكل منها معتقداتها وعاداتها وتقاليدها. وهذه الأمة تأثرت بكل تأكيد بما جاءت به من الهند واوروبا وبما حصلت عليه من اليونان ومصر وبابل وعلى ذلك فإنه لا يمكن الفصل بين الحضارة الفارسية وبين المؤثرات التي ظهرت عليها سواء من الشرق أو من الغرب، غير أنه يمكن القول بأن الحضارة الفارسية تعتبر حضارة شرقية بسبب موقعها والتأثيرات المشرقية الواضحة في جوانب متعددة من الحياة الفارسية.

ونظراً لاتساع رقعة الامبراطورية الفارسية كان لا بد من وجود صعوبات سياسية وعسكرية بسبب اختلاف الامبراطورية ولغاتها وانظمتها الاجتماعية والاقتصادية وبسبب اختلاف أديانها، ولهذا كان لا بد من وجود نظام إداري وعسكري وسياسي، يستطيع أن يتحكم بهذا الفسيفساء من الشعوب. وحرصاً على إحكام القبضة الفارسية على بعض البلاد الكبرى مثل مصر، فقد نقَل ملوك فارس مجموعات كبرى من السكان الإيرانيين إلى مصر، استغلوا في معاونة الجيش الفارسي وفي إدارة البلاد وفي جمع الجزية والضرائب.

أما فيما يختص بالأنظمة التي سادت الأمبراطورية الفارسية فيمكن دراستها على النحو التالي:

١ ـ النظام السياسي الفارسي

أ) ـ الملكية

كان الملك الفارسي مطلق الصلاحية يتصرف بشؤون الامبراطورية وفق إرادته والإرادة الإلهية ووفقاً لإرادة الأله (ارمزد) الذي ينتخب الملك ولهذا فإن

الوزراء والمجالس السياسية لا تستطيع مقاسمة الملك سلطاته.

وتبعاً للمعتقد السياسي ـ الديني فإن الأدعية الملكية يظهر ارتباطها واضحاً بالآله وتؤكد تعيين الإله للملك بقولها: «ارمزد هو الآله الأكبر الذي خلق السماء في العلى وأوجد الأرض الذي أبدع الإنسان واستنبط له الغبطة الذي جعل من داريوس ملكاً ووهب لداريوس هذه المملكة العظيمة الغنية بالخيل والسكان». وقد وجد هذا النص منقوشاً على (٢٤) نصباً في مصر وعلى وجه النصب الآخر وجد النص الهيروغليفي الذي يعزو انتصارات الملك إلى عطف الآلهة.

ومن واجبات الملك الفارسي إقامة العدل والمساواة متأثراً بما ساد من أنظمة في بلاد ما بين النهرين ومصر وهو نظام مستمد أساساً من المعتقدات الدينية، وقد أشار إلى ذلك حمورابي والنصوص المصرية. وعبر الملك الفارسي عن هذا الاتجاه الاجتماعي بقوله: (إني أحب العدل وأبغض الكذب).

وأشار داريوس: (إرادتي هي أن لا يلحق ظلم بالأرملة واليتيم، لقد جازيت الكاذب وكافأت الصادق والفلاح). واعتبر داريوس الأول بأنه مشترع عادل ونشيط، غير أن بعض الكتاب اليونانيين اعتبروا أن الملوك الفرس مستبدون ظالمون وربما يعود الرأي اليوناني إلى العداوة اليونانية ـ الفارسية.

وعلى الملك الفارسي أيضاً أن يتصف بالقدرة على تحريك الجيوش وقيادتها والملك الأخميني هو القدوة لكل محارب، وقد حدث أن قاد الملك الجيوش بنفسه في الحروب التي خاضها الفرس ضد اعدائهم. غير أن حياته في فترة السلم كانت تتصف بالأبهة والابتعاد عن الناس، ولم يظهر الملك الفارسي كثيراً إلا في أيام الاحتفالات.

ب) ـ الحكم والإدارة

اتخذ ملوك الفرس عدة عواصم لهم في فترة اتساع امبراطوريتهم وبين هذه المدن «بسرغاد» (Passergades) التي أسسها كورش و«برسبوليس» (Persapolis) التي أسسها داريوس وهناك عواصم أخرى في بابل وسوزة

وسواهما. وقد تميزت هذه العواصم بالفخامة والمباني والقصور الملكية والحدائق الكبيرة، ومن هذه العواصم كانت تدار شؤون الامبراطورية فيعطي الملك أوامره إلى مختلف الأقاليم ويتلقى منها الردود.

وبالرغم من الامتيازات التي كان يتمتع بها الملك الفارسي، وبالرغم من السمات الإلهية، غير أنه كان له مساعدون يساعدونه في إدارة الحكم والولايات مثل الوزراء والحكام المعروفون باسم (مرزبان) وقادة الجند وموظفو القصر والبريد. وقد تميز البريد الفارسي بالدقة والسرية بسبب اعتماده على الخيل على المحطات البريدية، إذ كان ساعي المقاطعة يسلم بريده إلى المسؤول في المحطة الثانية وهكذا... وهنا لا بد من الإشارة إلى أن لفظ (بريد) مشتق من لفظ بريده أي ذنب الحصان، وهو لفظ فارسي قديم اصبح يعني نظام البريد نفسه. بالإضافة إلى ذلك فقد كان للملك (العيون والآذان) وهم بمثابة جواسيس يبثهم الملك في أرجاء الامبراطورية.

وكان هؤلاء المساعدون يسهلون الحكم المركزي، وكانوا يتلقون أوامرهم من الملك شفاها، ثم كتابة. ولا بد من القول بأن الفارسية كلغة لم تكن مكتوبة قبل داريوس الأول ولكن منذ عهده بدأت تشهد الفارسية دورها في اللغة والكتابة، بالإضافة إلى أن الفرس استخدموا في البدء اللغة المسمارية والأكادية، كما استخدموا اللغة الآرامية لفترة طويلة، واستخدموا لغات المناطق والأقاليم التي احتلوها، كما تأثروا بالأسلوب الإداري الذي ساد في تلك الأقاليم ثم أضافوا إليه أساليبهم الفارسية الجديدة.

وقسم الفرس امبراطوريتهم إلى حوالي ٣٠ من (المرزبانات) وضعوا على كل منها (مرزبانا) هو بمثابة حاكم ومسؤول عن الإقليم وهو بمثابة ممثل للملك. وكان للمرزبان قصر إقليمي وحراس وحاشية، كما تعين له أمين سر وقائد لجيش الإقليم. وكانت سلطة ملوك الفرس على المرزبان نسبية تبعاً لقوة أو لضعف الملك والامبراطورية، فحينما تضعف الأمبراطورة كان المرازبة يستقلون في أقاليمهم ويتصرفون وفق إرادتهم الخاصة، حتى أنهم لم يتوانوا عن القيام

بثورة، عرفت بتمرد أو ثورة (المرازبة الكبرى) التي لم يستطع ارتحششتا الثالث أن يقضي عليها إلا بصعوبة.

٢ ـ النظام الاقتصادي والمالي

طبقت الأمبراطورية الفارسية القوانين المعمول بها في الولايات التي اخضعتها وكانت التطورات الداخلية والتمازج البشري من شأنهما دعوة الفرس إلى تطوير أساليبهم ونظمهم الاقتصادية. وكان للوحدة السياسية السائدة في بلاد الشرق الأثر الواضح في تسهيل التجارة الداخلية والخارجية على السواء مما ساهم في تنقل التجار والبضائع وتطور النظام المالي والتجاري. وقد عرفت التجارة تنقلات في بلاد فارس والهند والجزيرة العربية ومصر وفينيقيا.

وعرف عهد داريوس الأول النقود الذهبية وإن كانت بكميات قليلة وظهر عليها اسمه، كما ظهرت نقود مماثلة في الإقليم عليها اسم المرزبان، مما يشير إلى اتجاه استقلالي. وقد عثر في بلاد فارس على نقود يونانية مما يدل على تبادل التجارة بين فارس واليونان.

وغدت الامبراطورية الفارسية من أغنى الأمبراطوريات بعد احتلالها لبلاد الشرق وبعض بلاد الغرب. واعتمدت في تمويل جيوشها وبناء قصور الملوك والمعابد على الولايات المسيطرة عليها، وقد اضطر رعايا الامبراطورية من غير الفرس على دفع الجزية والأتاوات. وصدر عن داريوس أوامر تطلب من المرازبة جباية الجزية من رعايا الأقاليم، ولذلك شهدت بلاد بابل ثورات ضد هذه الممارسات وفرض الضرائب، والسبب يعود إلى أنه فرض على بابل أعلى نسبة من الضرائب وعوملت معاملة قاسية، وكانت الضرائب على أنواع منها انتاج زراعي وسبائك معدنية ثمينة وأنواع من الحيوانات. وعلى سبيل المثال فإن فينيقيا قدمت في بعض السنين (٣٦٠) حصاناً أبيض و (٥٠٠) مثقال فضة، بينما قدمت بعض المرزبات الهندية حوالي (١٤٥٦٠) مثقال فضة. وقلما كانت تصرف هذه الضرائب على الولايات لتحسين مستوى السكان، وإنما كانت تصرف على الملوك والحكام ولتقوية الجند.

٣ ـ النظام العسكري

تـألفت الفرق العسكـرية الفـارسية من العنـاصر الفـارسيـة ومن سكـان الأقاليم. وكانت قيادة الفرق للعنـاصر الفارسيـة دون سواهـا. وكان من مهـام المرزبان جمع العساكر من إقليمه. وكان لتعدديـة الجيش الفارسي أثـر سلبي على خـططه العسكريـة وعلى المعـارك التي خاضهـا، لأن هذا الجيش لم يكن مـوحد الجنسية ولا اللغة ولا حتى الخـطط ولم تجمعه روح الـوطنية الـواحدة، فقـد كان جيشاً مكوناً من مجموعة من العناصر البشرية التي كانت في الغالب تشعر بعـدم الوحدة.

وعرف النظام العسكري الفارسي الأرقاء الذين يسـاقون ويستخـدمون في الحروب والميادين العسكرية. كما عرف هـذا النظام نشـوء فرق الـرماة والخيـالة والمشاة والبحارة. وكان للفينيقيين واليونانيين المرتـزقة دور بـارز في قيام الأسـطول الفارسي.

٤ ـ النظام الديني

يختلف النظام الديني والمعتقدات الدينية الفارسية عن بقية المعتقدات التي انتشرت في بـلاد الشرق الأدنى القديم، فمعتقـداتهم الـدينيـة جمعت في كتـاب (افستا) المقدس الذي وضعه زرادشت. أما المعتقدات الفـارسية فهي تكمن في عبادة الإلّه (اهورامزدا) وعرفت ديانتهم بالديانة (المزدية). وقـد قدس الفـرس النـار والنور وعبـدوا الشمس وآمنوا بـالأرواح متـأثـرين بـذلـك ببـلاد مـا بـين النهـرين. وكان لإلّـه النور (اهـورامزدا) أو (ارمـزد) الدرجـة الأولى بين الآلهـة الفارسية، واعتقـد الفرس أن الأرواح تحيط بهـذا الإلّه وبـين هذه الأرواح، مـا هي شريرة وما هي خيرة.

وتتضمن المعتقـدات الدينيـة الفارسيـة فكرة الصراع بـين الخير والشر أي بين الإلّه (ارمزد) وبين الإله (اهريمان) إلى أن ينتصر أحدهما على الآخـر. ثم تأثـر الفرس بالتعاليم الزرادشتيـة التي سادت في القـرن السادس وهي تتضمن فكـرة التوحيد ووحدانية (ارمزد). وأن على الإنسان أن يقف إلى جانب هذا الإلّه إلّـه

الخير لمحاربة إلّه الشر. وتكون مكافأته بعد موته بأن يحيا حياة سعيدة أبدية وإن الإنسان إذا ما توفي يجب أن لا يدفن في الأرض كي لا يدنسها إنما يوضع فوق برج عال ليكون عرضة للطيور الجارحة التي تقوم بأكله.

والملاحظ أن جوهر العقيدة الزرادشتية إنما تقوم على التوحيد بإلّه واحد، وتعتبر أن الإنسان التقي هو قديس وهو يزيد العدالة بالعقل والأخلاق والضمير. ولا بد من الإشارة إلى أن الفرس عرفوا ديانات أخرى كالديانة الأخمينية التي اعتبرت (ارمزد) أكبر الآلهة وهو الإلّه الملكي، ويمثلونه برسم قرص الشمس المجنح الذي يخرج منه نصف الشخص الأعلى يحمل لحية ويكلل التاج هامه.

ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أن بلاد الفرس عرفت عبادة النار واتباع السحر على يد الكهنوت المجوس، ولذا أصبح لقب سحرة يطلق على المجوس وانتقلت الكلمة إلى اللغة الأجنبية (Magic) بمعنى سحر وساحر.

وهكذا يلاحظ بأن الحضارة الفارسية تميزت عن سواها من الحضارات بالكثير من المميزات السياسية والاقتصادية والعسكرية والدينية. أما الحياة الفكرية فإنها لم تكن متطورة فيها. ولم تكشف النقاب إلا عن كتاب (افستا). أما العلوم والفنون والعمارة فإنها ظهرت في الحضارة الفارسية فقد كانت العمارة عمارة ملكية إلى حد كبير، ولهذا تميزت بالفخامة والاتساع أو الكبر.

للمزيد من التفصيلات عن الحضارة الفارسية أنظر المصادر والمراجع التالية:

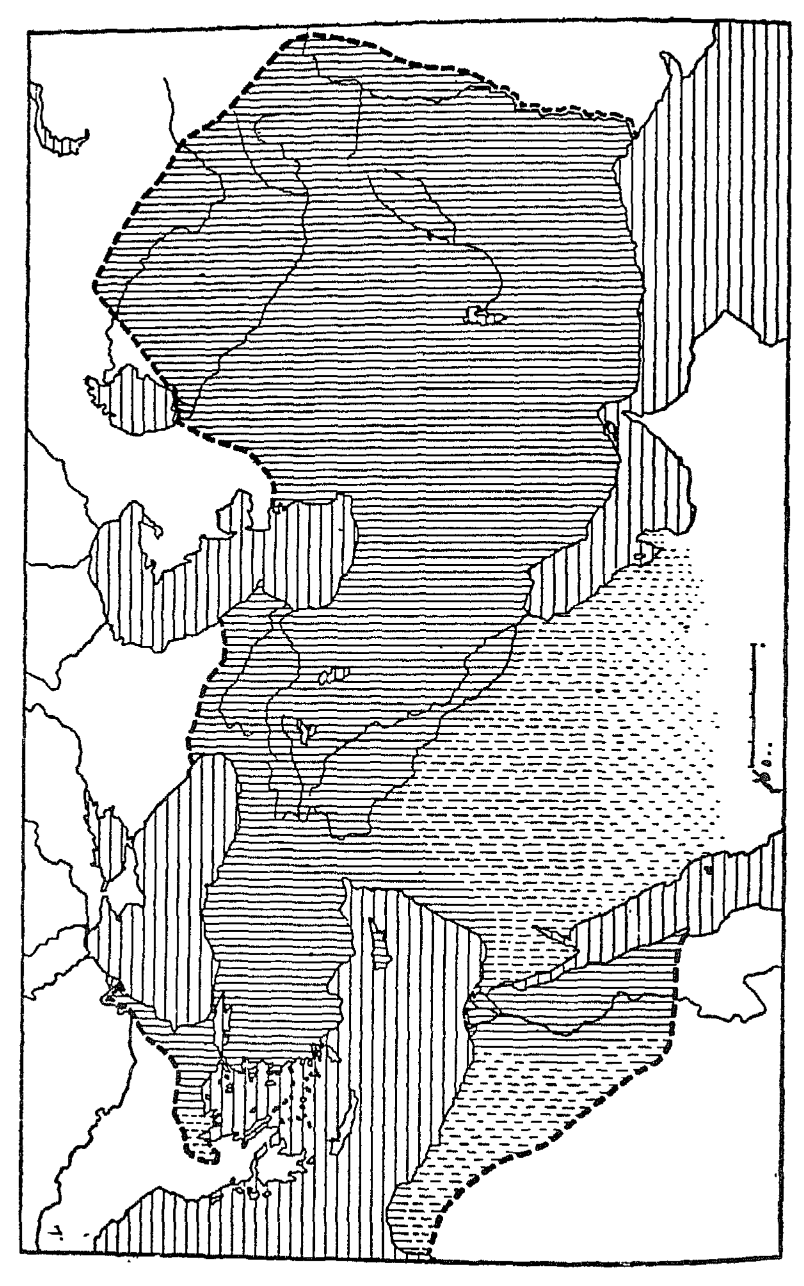
- د أحمد سليم: ايران منذ أقدم العصور حتى أواسط الألف التالت ق. م. دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨٨.
- د. أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم ـ القاهرة ١٩٥٨
- آرثر كريستينسن: ايران في عهد الساسانيين (L'IRAN sous Les SASSANIDES) تعريب: يحى الخشاب، عبد الوهاب عزام، وزارة التربية والتعليم ـ القاهرة ١٩٥٧
- أندريه ايمار، جانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام، مجلد ١، الكتاب الثاني، باشراف موريس كروزيه، تعريب: فريدم. داغر، فؤاد ج. أبو ريحان، منشورات عويدات ـ بيروت ١٩٦٤ ـ ١٩٧٠.

=

. . . . -

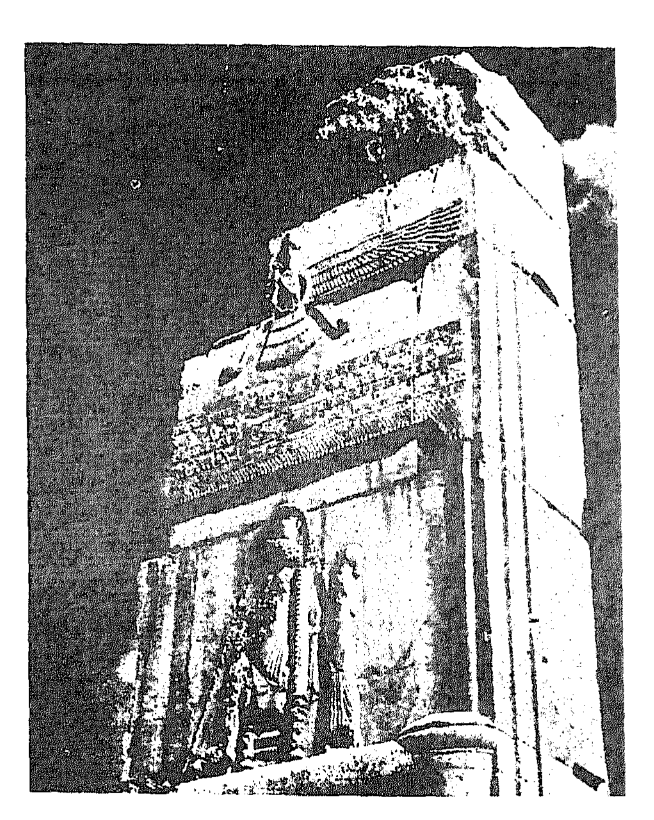
= - جـورج كـونتنـو: المـدنيـات القـديمـة في الشرق الأدنى (Les civilizations Anciennes du Proche - Orient) تعريب: متري شماس، المنتورات العربية - بيروت (لا. ت.).
- ديلا بورت. ل. بلاد ما بين النهرين (La Mesopotamie) تعريب: محرم كمال، مراجعة: د. عبد المنعم أبو بكر، مكتبة الآداب - القاهرة، (لا. ت.).
- د. محمد أبو المحاسن عصفور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٤.
- ملرش، ايج. اى. ايل: قصة الحضارة في سومر وبابل، تعريب: عطا بكري، مطبعة الارشاد - بغداد ١٩٧١.

- Browne, E. G; A Literary History of Persia, vol. 1, Cambridge 1964.
- Dicks, B; The Ancient Persians, London 1979.
- Girshman, A; L'Iran des Origines à L'Islam, Paris 1951
- Olmstead, A. T. e; History of The Persian Empire, Chicago 1948.



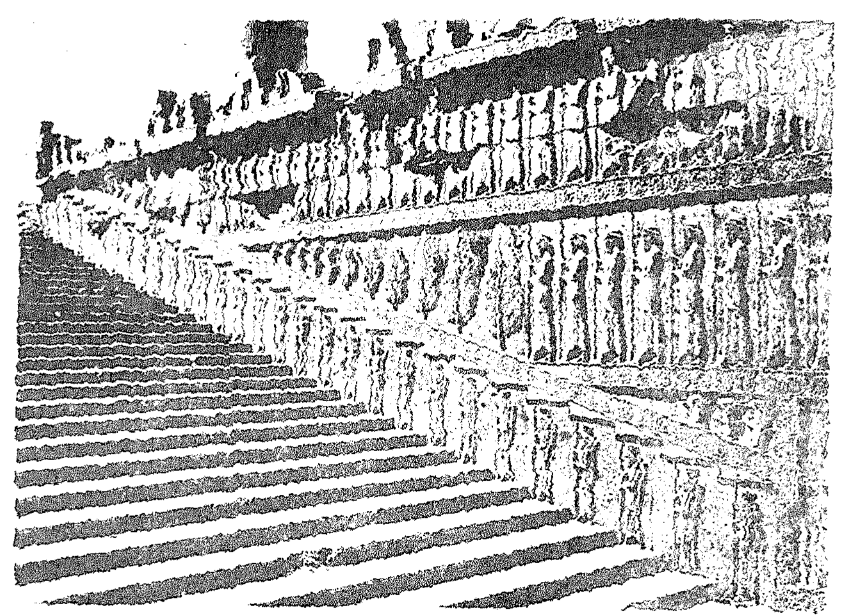
الامبراطورية الفارسية في القرن الخامس ق.م (فارس)

تمثال داريوس وفي أعلى
النص الإله ارمزد (فارس)

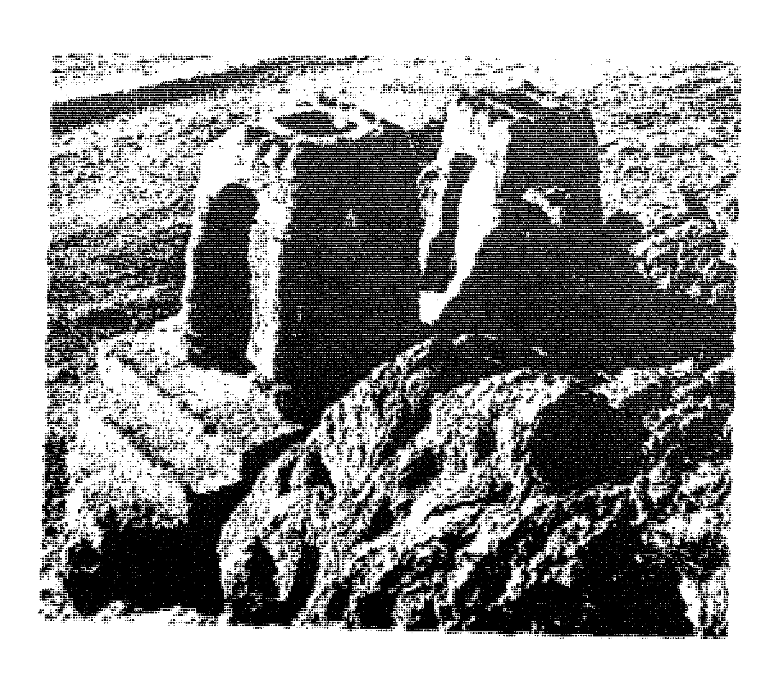




الملك دارا (داريوس) (فارس)



نقوش ورسوم في مدينة برسبوليس (فارس)
في مدخل قاعة الإپادانا تمثل فرقة الخالدين



مذابح النار حيث ينصرف الكهنة والمتعبدون للصلاة عبادة ارمزد (فارس)

الفصل السابع

الحضارة اليونانية

مرت الحضارة اليونانية بمراحل عديدة أثناء تكويناتها السياسية والإقتصادية والاجتماعية والعلمية، ويمكن تقسيم هذه المراحل إلى: المرحلة القديمة والمرحلة الكلاسيكية أو الوسطى والمرحلة الهيلينية. وكان لكل مرحلة من هذه المراحل مميزاتها الحضارية.

المرحلة اليونانية القديمة

ففيما يختص بالبلاد اليونانية القديمة، فقد كانت عبارة عن مجتمع ريفي عاش في مرحلة الغزوات والفتح، ولم يكن لهذا المجتمع تجارة تذكر ولا أنظمة سياسية أو اقتصادية، وكان الفلاح في وضع سيء للغاية، بينما كانت الطبقة الثرية تحيا منفردة حياة البذخ والترف وهي الوحيدة التي استطاعت اقتناء السلاح وممارسة ركوب الخيل. وكان المجتمع اليوناني القديم قد بدأ يفرز جماعات تندرج في إطار القبيلة والأسرة والجينوس[1]. ثم بدأت اليونان تشهد قيام المدن الصغرى ولكن لم تعرف هذه المدن التنظيمات الإدارية كوجود إدارة أو موظفين، وكان الكاهن صاحب النفوذ الظاهر في هذه المدن. أما القضاة فكانت تعتبر أحكامهم مقدسة لأنها على حد معتقداتهم منبثقة من القوانين الإلهية، وكان الكاهن عادة قاضياً.

وكان النظام المتبع بصورة عامة هو النظام الأرستقراطي أي حكومة الأفاضل أو النظام المعروف باسم «الأوليغاركي» أي حكومة الأقلية، ولم يؤد هذا النظام إلى الاستقرار السياسي والاجتماعي، بل أدى إلى النفور والتقاتل

والتحاسد. وأدى إلى هجرة الفقراء خارج اليونـان سعياً وراء الارتـزاق وخدمـة الدول الشرقية.

وبسبب الظروف السياسية والاقتصاديـة بدأت مـرحلة الاستعمار اليـوناني حـوالي أواسط القـرن الثـامن ق. م. وأسست أقـدم المستعمـرات في ايـطاليـا الجنوبية وعلى البوسفور. وقد أدى الاستعمار إلى توفـر المواد الغـذائية والصنـاعية والتجـارية وإلى استخـدام النقود. وبعـد أن فقـد الفينيقيـون دورهم كـوسـطاء وحيـدين مع الشرق، استـوطن الإغـريق نهائيـاً عـلى سـاحـل آسيـة الصغـرى واستولوا على الجزر الإيجية وعلى رودس بنوع خاص وعلى قبرص، كـما استقرت جماعات منهم على دلتا النيل، وأدت حركة الاستعمار اليـوناني أيضـاً إلى تأسيس تسعين مدينة وسوقـاً تجاريـة في مناطق البحـر الأسود، غـير أن صقلية وإيـطاليا الجنوبية هي التي قامت بدور اقتصادي بارز، وقـد فاق ازدهـارها ازدهـار المدن اليونانية نفسها. بسبب اتساع سهولها الزراعية وتجارتها المزدهرة.

ونـظراً لتطور المـدن اليونـانية واتسـاعهـا، اضـطر اليـونـانيـون إلى تنـظيم العلاقات القائمة بينهم بواسطة شرائع وقوانين مكتوبـة، فبدأ المشرعـون بتدوين أنظمة استمدت من الواقـع الجديـد للحياة اليـونانيـة متأثـرين في الوقت نفسـه بالمعتقدات السائدة قبل التطور الجديد.

عـرفت اليونـان النظام الإستبـدادي بواسـطة «المستبدون» وأول بـروز لهذا النـظام كان في مـدن آسيـة الصغـرى، وذلـك بسبب العـوامـل والـظروف التي أحاطت باليونانيـين، فالإضـطرابات السيـاسية والاجتـماعية اتـاحـت للمستبدين البروز، وليس بالضرورة أن يكون الحاكم المستبد ظالمـاً بل كثـيراً ما أفـادت منه طبقات الفقراء والفـلاحين التي ارتفـع شأنها وتحسن مستـواها وكـان في مقدمـة هؤلاء الديكتاتور: دراكون وسولون والآخر بيزيستراتوس وكليستينيس. وقد كانت تشريعـات هؤلاء بـين ٦٢١ ـ ٥٠٦ ق. م. قـد احـدثت تـطورات اجتـماعيـة وسياسية في بـلاد اليونـان، وأدت إلى إيجاد بعض الأجهـزة السياسيـة والتحضير للأطر القانونية والاجتماعية الديمقراطية بالظهور.

أما فيما يختص بالديانة اليونانية القديمة فهي في هذه المرحلة ديانة تعتمد على تنوع المعتقدات الدينية المستوردة من الخارج، فبعض الآلهة ايجية مثل آلهة الأرض كاثينا وديميتر ومن آسية افرودويت، ومن تراقيا اريس وديونيسوس. غير أنه من الملاحظ أن بعض الآلهة لقيت رواجاً أكثر من غيرها.

المرحلة اليونانية الكلاسيكية الوسطى

إن حضارة اليونان الكلاسيكية الوسطى في القرنين الخامس والرابع ق. م. بدأت بالظهور أثر الحروب اليونانية ـ الفارسية. وإنتهاء هذه الحرب بالانتصار العسكري اليوناني أتاح تفتح الحضارة اليونانية الكلاسيكية وتوسيعها وإعادة وحدة العنصر اليوناني غداة الانتصارات في الحرب الميدية الثانية فانتزعت اليونان من الفرس الجزء الساحلي في آسية الصغرى، وساعدت سكانه في أسواق البحر الأسود، وأتاحت لهم التوصل إلى نوع من الاتفاق على الأقل مع سكان روسيا الجنوبية، كما ساندت انتصار المصريين على الفرس.

صحيح أن اليونانيين أبعدوا الخطر الخارجي ووحدوا مناطقهم، غير إن ذلك لا يعني حلاً لجميع مشاكلهم الداخلية، فقد عرفت اليونان مشاكل عديدة متناسية أن وحدة شعبها وقواته كانت الأسباب الحقيقة في الانتصارات على الفرس. ولقد تبين مثلاً أن اسبرطة قائدة البلاد اليونانية لم تحاول استثمار انتصاراتها لخدمة الشعب، كما إن أثينا وسيراكيوز شهدتا الكثير من الحروب فمنذ مستهل القرن الخامس حتى عام ٣٣٨ ق. م. قضت أثينا أكثر من ١٢٠ سنة في الحرب من أصل ١٦٤ سنة أي أكثر من سنتين من أصل ثلاث، ولم تعرف خلال هذه السنوات فترة سلم تعدت العشر سنوات.

وكان في مقدمة نتائج هذه الحروب الداخلية الضحايا وتقسيم اليونانيين والتدهور السياسي والاقتصادي والاجتماعي، فالأثينيون منوا بنكبة في صقليا في عام ٤١٣ ق. م. لأن الجيش الذي قادوه في سيراكيوز لم يتمكن من النزول إلى البحر أو العودة إلى اليونان، وفي عام ٣١٧ ق. م. مات اربعمائة مواطن

اسبرطي من أصل سبعمائة جندي في منطقة «لوكترا» ضناً منهم بالشرف القومي الذي يحظر عليهم الاستسلام في الحرب. وفي عام ٤٢٤ ق. م. أفني ألف اثيني في «ديلون» من أصل سبعة آلاف.

وخسرت اليونان بعض فلاحيها، لأن الفلاحين اليونانيين كانوا قوام محاربيها لاسيما في الجيوش البرية. وكان كل رجل سليم البنية من الفلاحين ومن سواهم قابل للتجنيد، كما جند المواطن العادي لاسيما الفقير في الأسطول البحري أو فرق المشاة، غير أن الفلاحين كانوا أكثر الفئات ملائمة وكفاءة بسبب طبيعة أعمالهم السابقة وبسبب قوتهم ومناعتهم.

ومما زاد في تفاقم الأوضاع الداخلية الصراع السياسي والحروب الأهلية في اليونان. فقد بدأ الصراع واضحاً بين حكم الأقلية (الأوليغاركية) وبين حكم الشعب (الديموس قراطية) Demos–Crates تؤيد الحكم الأول اسبرطة، بينما تؤيد الحكم الثاني أثينا.

هذا ولا بد من دراسة المظاهر السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية في بلاد اليونان في المرحلة الكلاسيكية لكي نتلمس الحضارة اليونانية من كافة وجوهها.

النظام السياسي

أ) ـ المدينة اليونانية: Polis

كانت المدينة تمثل في جوهرها الشعب (Demos) ولم يذكر في كثير من الأحيان عبارات «الجمهورية الأثينية» بل كان يقال «مدينة الأثينيين» أو «شعب الأثينيين». والمفهوم اليوناني كان يفرض وحدة المواطنين في حدود ضيقة، فالعدد المثالي في المدينة اليونانية في نظر فلاسفة اليونان هو عشرة آلاف كحد أعلى، فأفلاطون حدده بحوالي خمسة آلاف، وأوضح أرسطو بالقول: «لا نستطيع تكوين مدينة من عشرة رجال، كما أن عشرة آلاف لا يكونون مدينة أيضاً». وكان ذلك رداً على اللوم الذي وجه إلى أثينا لأن عدد سكانها زاد عن عشرة

آلاف. ويبدو أن سبب اتجاه اليونانيين لتحديد عدد سكان المدينة إنما يهدف إلى تعرف كل مواطن بالمواطنين الآخرين، لا تعرفا هامشيا إنما تعرف حقيقي إلى أخلاق المواطن وأساليب حياته وارتباطاته العائلية ونشاطه اليومي أيضاً.

إذا المدينة (Polis) كانت مركزاً لوحدة المواطنين، وفي حال الخطر تؤمن أسوارها بقلعة (Acro-Polis). وفي المدينة تمارس مختلف الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، وتقام المدارس والملاعب والمسارح والمعابد... ولم يكن لليونانيين من أهل الريف والجبال مدناً مماثلة بل كانوا يعيشون منعزلين ومشتتين هنا وهناك مع معابدهم وأسواقهم.

والمدينة تحاول تطبيق المساواة على مواطنيها في الداخل وعلى المواطنين في المناطق المجاورة لها، كما أن مواطني الأرياف قد يسمح لهم بالاشتراك في حكومة المدينة. وتفرض المدينة عادة الشرائع والقوانين المكتوبة أو الشفهية لتنظيم سير العلاقات بين الدولة والمواطن وبين المواطنين أنفسهم. وتقوم سيادة المدينة (بولس) الداخلية على نفوذ هذه الشرائع والاحترام الذي توحيه، والذي لا حياة ممكنة بدونها. وقد اضطر المشرع اليوناني أن ينص في تشريعاته على قوانين تصل حد الأبعاد إلى الخارج لمدة عشر سنوات أو مصادرة الأملاك.

ب) ـ طبيعة الحكم السياسي

المدينة اليونانية جمهورية وإن كانت عرفت المدن اليونانية النظام الملكي غير أنه كان إسمياً، ففي أثينا كان الملك عادة يختار من بين مجلس الأراخنة العشرة (Arcon) الذي يجري انتخابهم كل عام، ولا يقوم الأرخون سوى بدور ديني وقضائي، ويجري تعيينه بالقرعة كباقي الأراخنة. بينما كان النظام في اسبرطة مختلفاً فقد نصبت ملكين مدى الحياة يتولى أحدهما بالضرورة قيادة الجيش، غير أن هذا النظام الثنائي الملكي قد ضعف بسبب أنظمة الخلافة الوراثية.

وبالإجمال فإن المدن اليونانية عرفت الاستبداد والحكم الفردي بسبب الظروف الداخلية التي مرت بها «المدينة» ولكن زالت هذه الظاهرة في أواخر

القرن السادس، بينما استمرت في إيطاليا الجنوبية وصقليا بسبب الأخطار الخارجية القرطاجية والأترورية بين ٤٨٠ ـ ٤٧٤ ق. م. حتى عرفت المدينة الصقلية سيادة النواميس والشرائع مرة أخرى.

والمدينة اليونانية لاسيما أثينا تخشى نظام الفرد، ويقلقها كل نفوذ فردي، لأنها تخشى من أن يتخطى الفرد حدوده، لذا فإن اسم القائد لا يدون في النذورات ولا على الأنصاب التذكارية للانتصارات، بل يدون اسم المدينة دون سواها. وقد ذكر ديموستنيس ما يلي: «ما كان ليخطر على بال أحد أن يدعو سلامين باسم تيستوكلس لأنه عرف بانتصار الاثنين، ولا أن يدعو انتصار مارثون باسم ميلتيادنس لأنه عرف بانتصار المدينة» غير أن الحروب والأحداث العسكرية أدت حكماً إلى بروز قادة أصبحت لهم شعبية بفضل انتصاراتهم الحربية، ولكنهم أنفسهم سقطوا سياسياً عندما سقطوا عسكرياً فيما بعد.

ج) ـ الجمعية

إن الجمعية اليونانية لها صفة استشارية ولا يستطيع الملك نفسه اتخاذ مواقف معينة إلا بعد استشارتها. وكان أعضاء الجمعية يشتركون في أعمالهم جالسين على مقاعد أو على مدرجات منحدرة. ولم يكن يحق للمجلس أو للملك إلا في أسبرطة والمدن الأوليغاركية تجنب مجابهة الجمعية، لأنها كانت وفقاً للأنظمة اليونانية بإمكانها أن تتحول سيادتها النظرية إلى سيادة واقعية.

وكانت تفرض بعض الشروط على المواطنين الراغبين في الدخول إلى الجمعية، فقد يفرض سناً معيناً لدخولها يزيد أحياناً عن العشرين سنة كما تفرض بعض الرسوم عليهم، وقد يحرم من دخولها صاحب مهنة أو تجارة صغرى غير أن جميع الأعضاء يتمتعون بحقوق متساوية داخل الجمعية لاسيما حق إبداء الرأي. ويلاحظ أيضاً بأن حق الإشتراك في حياة المدينة السياسية حق شخصي لا يفوض به أحد فاليونان الكلاسيكية تجهل النظام التمثيلي ولا تدرك معنى لغير ممارسة السيادة المباشرة.

د) ـ المجلس

يعتبر المجلس من الأجهزة السياسية في اليونان، وهو أكثر أهمية من الجمعية وكان يعقد اجتماعات متكررة في كل المدن، ويلعب دوراً هاماً في المدن الديمقراطية ودوراً رئيساً في المدن الأوليغارية نظرياً وعملياً.

أما مهامه فكانت تتركز حول نشاط القضاة المدنيين، ومراقبة تأمين الأعمال الإدارية وتنفيذ مقررات الجمعية، ويهيء القرارات كما أنه يوجه سياسة المدينة. وفي الأنظمة الأوليغارية يعطي المجلس صلاحيات أوسع، لاسيما الصلاحيات القضائية في المجالين المدني والجنائي، وله صلاحية رعاية مصالح المواطنين من العامة والخاصة.

ويلاحظ بأن المجلس يتميز بقرارات بعيدة بعض الشيء عن الإرتجال وذلك لأنه بمثابة هيئة استشارية محدودة العدد، متجانسة فكراً وعملاً، وقد تعين مدى الحياة إذا ما توفرت في أشخاصها الثروة والسن والنسب أيضاً.

هـ) ـ القضاة

كان لكل مدينة يونانية قضاتها الذين كان يختلف عددهم وأسلوب شروط تعيينهم وتوزيع صلاحياتهم. وكان القضاة يعينون لمدة عام واحد فقط ولا يعاد انتخابهم باستثناء القضاة العسكريين. أما صلاحياتهم فهي قصيرة فليس باستطاعتهم اتخاذ أحكام وقرارات هامة ومصيرية خاصة فيما يتعلق بالقضاة العسكريين الذين كانوا يملكون بعض الصلاحيات في فترات الحروب.

وفي الإجمال فإن القضاة يخضعون لمراقبة الجمعية والمجلس معاً، وهم مسؤولون عن أعمالهم وأحياناً تصدر قرارات قاسية بحقهم خاصة أثناء انتهاء ولايتهم.

النظام الاجتماعي

أ) ـ طبقة الملاكين

تميزت الكثير من الأراضي الزراعية في اليونان بخصوبتها لاسيما في مناطق زراعة الحبوب. وقد امتلك هذه الأراضي فئة من اليونانيين الذين شكلوا طبقة كبار الملاكين، والذين أثروا ثراء كبيراً من جراء استغلال هذه الأراضي، وكان لهؤلاء الفضل أيضاً مع مزارعيهم في تحسين مستوى الزراعة واستخدام الأسمدة في القرن الرابع ق. م. كما استفاد الملاكون من ثرواتهم في استصلاح الأراضي البور وفي تربية المواشي. وقد أشار «كسينوفون» في كتاب «الاقتصاد» إلى صورة الملاك الذكي الذي يعرف كيف يستغل أمواله لمصالحه وكيف يديرها. وكانت هذه الطبقة الاجتماعية في العادة لا تعمل بأيديها إنما تشرف فقط على أعمالها وأملاكها. وفي وقت فراغها يمارس أفرادها هواياتهم في الفروسية والصيد.

وبالإضافة إلى طبقة كبار الملاكين هناك طبقة صغار الملاكين الذين يملكون أراضي محدودة يستثمرونها بأنفسهم وقد عرفت اليونان هذا النظام للطبقة الصغرى المالكة في القرنين السادس والخامس ق. م. وكان نظام الأرث قد وزع الأراضي الزراعية للابن الأكبر، مما اضطر بقية الأبناء إلى تملك أرض أخرى في مناطق متاخمة أو بعيدة مما وسع نطاق نظام الملكيات الصغرى، وكان الفلاح أحد عناصر طبقة الملاكين الصغار، وقد استطاع استثمار أرضه رغم معاناته لاسيما فيما يختص بحاجته إلى الأدوات الزراعية والأسمدة.

ب) ـ الرجل والمرأة

برزت المرأة اليونانية في الحياة الاجتماعية لا سيما فيما يختص بتربية أولادها وتوجيههم. فمن واجباتها الأولية في البيت الزوجي إدارة شؤون البيت والاعتناء بعائلتها وأولادها. فالذكور تبقى ترعاهم ويبقوا في ذمتها إلى سن السابعة، بينما تبقى الإناث في رعايتها وذمتها إلى أن يتزوجن أما دورها في الحياة السياسية فلم يكن مؤثراً أو واضحاً.

أما الرجل اليوناني في العصر الكلاسيكي فكان المسؤول الأول عن تأمين

حاجيات المنزل والعائلة، وكانت علاقته بزوجته علاقة السيد، إذ باستطاعته أن يطلقها بدون أن يعيد إليها البائنة.. أو يعوض عليها. أما فيما يختص بالأولاد فلم تكن كل العائلات مهتمة بتربيتهم، بل إن بعض الفترات شهدت إلقاء الأولاد في الطريق لاسيما البنات، ويعود ذلك لأسباب اقتصادية ومعاناة الرجل من أزمات الفقر والحاجة. وكان ذلك سبباً في نشوء فئة في اليونان من المشردين والمتسولين والبغايا، ومن بين النساء البغيات «اسباسيا» التي أقام معها سقراط علاقة خاصة، بينما جعلها بركليس عشيقته بعد أن طلق زوجته الشرعية.

والأمر اللافت للنظر أن بلاد اليونان شهدت الكثير من تدني المستوى الأخلاقي للرجل والمرأة معاً، ذلك أن ممارسة العري كان يمارس باستمرار في أندية الرياضة واللهو، وشهدت بعض قصور الأثرياء ندوات في الفجور والسياسة والأدب معاً، وقد أكد ذلك كل من أفلاطون وكسينوفون وسقراط.

ج) - العبيد

عرفت اليونان نظام العبيد، وقد استخدم هؤلاء في القصور والمزارع وتمركز الكثير منهم في جبل «لوريون» إحدى مناطق أرياف الأتيك، حيث مناجم الرصاص الممزوج بالفضة، وكانت أثينا تملك هذه المناجم وتؤجرها للمستثمرين الذين بدورهم يستخدمون اليد العاملة الممثلة بالعبيد، وكان في مقدمة المستثمرين القائد نيقياس الذي سبق أن لعب دوراً سياسياً كبيراً في أثينا إبان حرب البلوبونيز، وكان رأي نيقياس استئجار عبيد للعمل في المناجم لقاء أجر يومي، بينما رأى كسينوفون ضرورة احتفاظ الدولة بالاستثمار لأنه بواسطة الأموال التي تملكها تستطيع شراء المزيد من العبيد.

والحقيقة فإن الملتزمين كانوا يعاملون العبيد معاملة قاسية لأن هدفهم الأول استثمارهم كاستثمار المناجم ذاتها، وكانت أجور العبيد متدنية وأدوات عملهم بدائية، وكان عملهم شاقاً في دهاليز ضيقة مظلمة تنيرها مصابيح زيتية مدخنة، ونظراً لصعوبة العمل فقد عرفت المناجم موجات من هرب العبيد إلى الأرياف، لاسيما عندما هرب عشرون ألفاً منهم أثناء حروب البلوبونيز كما

عرفت مناطق العمل بعض الثورات العمالية.

أما أثينا فقد عرفت بدورها نظام العبيد الذين استخدموا في المنازل وفي الصناعات والمهن اليدوية، كما استغلوا في مصنع الأسلحة وقد فاق عددهم في هذا المصنع المائة عبد. وعرفت أثينا انفتاحاً أكثر في معاملة العبيد كأن يسمح سيد المنزل بزواج العبد من عبدة في منزله أو أن يسمح للعبد بممارسة عمل آخر لحسابه الخاص، وفي مثل هذه الحالة تتدنى الفوارق الاجتماعية بين الفقير الحر وبين العبد. وبالرغم من أن القانون سمح بجلد العبد خمسين جلدة، غير أنه سمح للعبد رفع شكوى تظلمه من قرار مجحف إلى القاضي، وجاز للعبد أيضاً اللجوء إلى المعبد لعرض نفسه للبيع، وفي حال اقتناع الكاهن بالظلم اللاحق بالعبد، أجبر سيده على القبول بهذا البيع، وبذلك تكون أثينا قد عرفت نظاماً ديمقراطياً حتى بالنسبة إلى العبيد.

النظام الاقتصادي

كان النظام الاقتصادي اليوناني في العصر الكلاسيكي نظاماً ضيقاً بسبب الحياة الريفية، الأمر الذي اضطر اليونانيين إلى الهجرة والاستيطان والاستعمار في صقليا وايطاليا ومصر وسواها. كما تم استيراد الكثير من المواد الزراعية من الخارج لسد متطلبات السكان، ولكن اليونان اضطرت إلى تصدير الفائض من النبيذ والزيت لتسدد أثمان المواد المستوردة.

وكان ازدياد النشاط الصناعي يستلزم الحصول على المواد الخام. كما أن الأسطول نفسه يتيح للبحارة اليونانيين الاستفادة ليكونوا تجاراً ووسطاء وسماسرة.

وظهر في العهد الكلاسيكي اتجاه اقتصادي واضح نحو التجمع والمركزية ففي صقلية تسير سيراكيوز قدماً في تفوقها السابق، وقد اتاح لها نفوذها وقواها العسكرية التي أمنت لها الانتصارات على قرطاجة إنشاء امبراطورية لم تكن سياسية وعسكرية فحسب وإنما كان لها أهداف اقتصادية وتوسعية فساعدت على الهجرة الطوعية تارة والقسرية تارة أخرى. وفي الداخل نمت بعض المدن

اقتصاديا على حساب مدن أخرى، فنمت أثينا بينما سقطت خلقيس وايجينيا مثلاً، بينما حافظت كورنثوس على مكانتها الاقتصادية بفضل علاقاتها مع صقليا وايطاليا.

إن التطور الاقتصادي في أثينا يعود إلى قوتها وسيادتها البحرية وإلى الاتحاد الذي أسسته بين ٣٧٧ ـ ٣٣٨ ق. م. فقد استطاعت أن تحصل من حلفائها ورعاياها على امدادات نقدية تغذي اقتصادها بصورة مستمرة ومباشرة وكان لقوتها السياسية والاقتصادية أثر كبير في نموها وتقوية اسطولها الحربي والتجاري، وكان لها من القدرة قطع موارد التموين عن أعدائها.

وكانت أثينا تستورد المواد الغذائية والخامات على نطاق كبير وتصدر النبيذ والزيت من أسواق الأتيك وبعض منتجاتها الصناعية والخزفية خاصة. واصبح مرفأ «البيره» كما يقول ايزوقراط «سوقاً تتوسط اليونان، يسهل الحصول فيها بسبب وفرة البضائع على المصنوعات التي لا يمكن وجودها في مكان آخر إلا بصعوبة وبكميات قليلة جداً». بالإضافة إلى ذلك فقد صدرت أثينا المسكوكات الفضية، فالفضة المستخرجة من مناجم «لوريون» سمح لها بأن تضرب بأعداد كبيرة نقوداً مرتفعة العيار دقيقة الوزن، كثيرة الرواج لاسيما في القرن الخامس ق. م. حيث استطاعت أثينا احتكار النقد الدولي المتداول.

والأمر اللافت للنظر في صدد الحديث عن الحياة الاقتصادية في أثينا فإن الأجانب كانوا يكونون عدداً كبيراً فيها ويقومون بدور بارز في انشطتها الاقتصادية، فقد كان عددهم بنسبة واحد إلى اثنين من المواطنين، وقد مارس هؤلاء المهن المتنوعة والصناعة والتجارة وخاصة تجارة المفرق، كما قاموا بإدارة مشاريع كبرى بحرية وتجارية، فهالك مصنع الأسلحة والمائة وعشرين عبداً الذين عملوا فيه كان سيراكوزيا.

وبفضل الأثينيين والأجانب كان التطور الاقتصادي المطرد لأثينا، وشهدت أثينا الكثير من الأغنياء، ممن عملوا في استثمار أموالهم في الصناعة والتجارة ومناجم الفضة في لوريون، وكان «كالياس» في عهد «بركليس» أوفر

الاثينيين ثروة، فقد بلغت ثروته نتيجة استثمار المناجم «مائتي منا من الفضة» أي ما يوازي مليون ومائتي فرنك فرنسي تبعاً للقيمة النقدية والشرائية لعام ١٩١٤ م. أما نيقياس فقد بلغ دخله السنوي «١١ منا» بفضل العبيد الألف الذين كان يؤجرهم للتزمي اللوريون.

وأكد ديموستين في حوالي ٣٥٠ ق. م. بأن في أثينا ثروات توازي مجموع ثروات كافة المدن الأخرى، وأشارت بعض المعلومات إلى أن أحد السيراكوزيين توصل في أوائل القرن الرابع إلى احتكار الحديد بخمسين منا. وربح في هذا الاحتكار مائة منا. وكان هذا الربح استثنائياً بسبب الحاجة الملحة للحديد نظراً للحرب القائمة ضد قرطاجة. ولكن لا بد من الإشارة إلى أن الاقتصاد الأثيني تدنى بسبب هزائم حرب البلوبونيز. وكان لاهتمام اليونانيين بالثروات وكان لسماعهم الأخبار عن غنى الشرق أحد الأسباب التي دفعتهم نحوه وقد أشار هيرودوت بأن أحد الليديين اعترف للملك كسركسيس عام ٤٨١ ق. م. بأن ثروته النقدية دون عقاراته وعبيده تبلغ الفي منا من الفضة وقرابة أربعة ملايين قطعة نقود ذهبية أي ما يساوي مائة مليون فرنك فرنسي عام ١٩١٤. ولذلك فقد اقتنع أكثر من قائد وتاجر في القرن الرابع من أن احتلال الشرق من شأنه أن يكون حلاً لمعالجة الأزمات الاقتصادية والاجتماعية التي تعاني منها اليونان.

المعتقدات الدينية

كانت المعتقدات الدينية اليونانية في العصر الكلاسيكي تعتبر عادات فطرية بدائية، تمارس خلالها بعض الطقوس والممارسات لاسيما في المعابد المحلية المتعددة، وكانت الخرافات تتخلل هذه الطقوس والعبادات، وعلى سبيل المثال فإن عدداً من الأسرى الفرس قدموا إلى الذبيحة لمجرد سماع «عطسة» أحد الواقفين، الأمر الذي أدى إلى تضحيتهم لديونيسوس آكل اللحوم النيئة، وكانت الجماهير تصر على هذه التضحية، كما حكم على سقراط بالإعدام بتهمة إنكار آلهة المدينة وإدخال آلهة بدائل جدد إليها.

والملاحظ أن العبادات في بلاد اليونان إدت إلى الكثير من المنافسات

والانشقاقات بين اليونانيين، وكان الإشراف على أحد المعابد يعني عملياً امتلاك الكنوز والذخائر الغنية، وفي حال وجود مشروعات لبناء المعابد الدينية أو إعادة بنائها فإن المواطنين اليونانيين يتهافتون على دفع الأموال على غرار ما حدث عند إعادة بناء معبد دلفي الذي دمره الزلزال في عام ٣٧٣ ق. م. . ومما يعطي فكرة عن ارتباط المواطن اليوناني بالفكر الديني أن الهدنة المقدسة توقف الحروب بين المدن اليونانية وتتوقف هذه الحروب عادة عند الاحتفالات والألعاب الكبرى، لأن هذه الاحتفالات والألعاب كانت تتخذ طابعاً دينياً مقدساً، كما أن المنتصرين فيها يصبحون أكثر شهرة.

ومن بين المعابد الهامة في اليونان معبد الزيس في الأتيك الذي كان يعتبر معبداً ديمقراطياً، لأنه كان يسمح بدخول العبيد إليه، ولا تقفل أبوابه إلا بوجه المجرمين والبرابرة، وقد اشترك في عبادة الزيس ثلاثة من آلهة النبات: ديمتير، وكورا، وديومنيسوس. وكانت رموز العبادات في المعبد تتركز على فكرة الموت والاطمئنان إلى المصير المجهول فالزائر يغادر المعبد مطمئناً إلى مصيره ومستقبله بعد معرفته للأسرار الإلهية.

وكان النظام الديني في اليونان مرتبطاً «بالبولس» أي بالمدينة التي كان لها آلهتها وعباداتها. وقد كانت أثينا مدينة الآلهة أثينا التي دعيت أيضاً «اثينا بولياس» وكانت الأعياد والذبائح والصلوات واحدة من حيث جوهرها ولكنها تختلف من حيث التفصيلات. وكما كان هناك تشدد في المعتقدات الدينية اليونانية، عرفت بلاد اليونان أيضاً التساهل مع المعتقدات الأجنبية، فقد سمح بتأسيس أماكن للعبادات الأجنبية لاسيما مرفأ «البيره». مثل الآلهة بنديس التراقية وايزيس المصرية وادونيس وعشتروت الفينيقية. ولم تجد اثينا مانعاً من أن يعتنق مواطنوها الديانات الأجنبية، كما إنها لم تمانع من أن تصبح هذه الديانات والآلهة الأجنبية في إطار العبادات الرسمية.

وأقيمت للآلهة اليونانية الكثير من الاحتفالات الرسمية واشتهر عيد الآلهة اثينا باسم «باناثينا» الذي كان يذكر بتأسيس المدينة نفسها وبتوحيد كافة الاثينيين سياسياً. وتشير المعلومات بإن الذي أقر مثل هذه الأعياد سولون

وبيزيستراتوس في الربع الأول من القرن السادس ق. م. كما كان للآلهة ديونيسوس احتفالات تتوزع في الأقاليم والأرياف أكثر من مرة في السنة. وكانت هذه الأعياد بمثابة مناسبات أدبية وفنية ومسرحية ورياضية حيث تمارس خلالها مختلف أنواع الفنون والرياضة والأدب.

المرحلة الثالثة اليونانية
المرحلة الهيللينية

تمتد هذه المرحلة من القرن الثالث ق. م. إلى القرن الأول ق. م. ويمكن أن يعتبر المرحلة الهللينية الحضارة الملكية بعكس الحضارة الكلاسيكية التي كانت تعتبر حضارة «البولس» ففي المرحلة الهللينية وجدت أطر سياسية جديدة أوجدتها القوة العسكرية والسياسية.

وكان الاسكندر (٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق. م.) رائد هذه المرحلة وباعث الحضارة الجديدة التي أرادها أن تكون عالمية، وكان حريصاً أينما وصل في فتوحاته على بناء مدن عالمية سميت باسمه «الاسكندرية» فقد وجدت العديد من الاسكندريات في الشرق، غير أن أشهرها اسكندرية مصر، وكان الهدف من ذلك الوصول إلى حضارة عالمية عن طريق التمازج البشري والثقافي بين الشرق والغرب، ولتحقيق هذه الغاية وبعد أن احرز عدة انتصارات على الفرس والفراعنة والفينيقيين والكنعانيين، حرص على أن يتزوج أميرة فارسية هي «روكسانا» Rexona ابنة الامبراطور داريوس الثالث، كما اقتدى قواده به، وأشارت بعض المصادر إلى أن عشرة آلاف من جنوده وقواده اقترنوا بنساء شرقيات لتحقيق عملية التمازج. وكانت الامبراطورية التي أوجدها الاسكندر تعتبر امبراطورية موحدة وعالمية. ولكن بعد وفاته في عام ٣٢٤ ق. م. بدأت الامبراطورية بالتفتت وانقسمت بين البطالسة في مصر والسلوقيين في سوريا والانتغونيين في اليونان.

والحقيقة فقد سبقت ولادة الحضارة الهللينية العديد من الظروف السياسية

والعسكرية والاقتصادية في بلاد اليونان مهدت لولادة هذه الحضارة ومن بين هذه الظروف ما يلي:

١ ـ عدم تطور المدينة (البولس) بسبب ضيق أراضيها وقلة سكانها ومواردها كما أنها أضحت دون المستوى التي احتاجها توسع العالم اليوناني.

٢ ـ تكاثر الحروب بين المدن اليونانية الأمر الذي أدى إلى سياسة الانفاق والتسلح، وبذلك ضاعت مدن وفقرت أخرى، وتولت مقدونيا الرئاسة وحلت محل سواها من المدن التي فقدت قدرتها العسكرية والسياسية.

٣ ـ نشوء نظام الاتحادات بين المدن اليونانية كحل للخلاص وتطبيقاً لمبدأ «الوحدة مصدر القوة» فاندمجت اثينا بعدد من المدن، واندمجت رودوس بسواها، كما جرى اتحاد مدن متحدة بمدن أخرى بحيث تشكل اتحاداً قوياً. وبصورة عامة فإن أشهر الاتحادات كانت للشعبين اليونانيين: الايتولي والآخي فاستطاع الايتوليون الذين أقاموا على الساحل الشمالي من خليج كورنثوس أن يضموا الشطر الأكبر من اليونان الوسطي وقسم من تساليا، كما توصل الآخيون في الساحل المقابل في البلوبونيز إلى ضم كل مناطق البلوبونيز مستفيدين من الحروب الداخلية ومن انتصارات روما.

ويمكن القول بأن الحضارة الهللينية التي جاءت نتيجة لظروف عديدة يونانية وتكونت بفعل تمازج عدد من الحضارات في الشرق الأدنى القديم مع الحضارة اليونانية اتسمت هذه الحضارة الهللينية بعدد من المميزات يمكن تلخيصها على النحو التالي:

أولاً: الملكية الهللينية

تعتبر الملكية من مميزات المرحلة الهللينية، وبالرغم من أن الإغريق سبق أن عرفوا النظام الملكي غير أنه لم يكن نظاماً ملكياً متطوراً بنظرهم بل اعتبروه بأنه يصلح للبرابرة وليس لبلادهم. كما أن النظام الجمهوري بدوره لم يستمر طويلاً إلا في مناطق محددة من العالم اليوناني. ولقد أشارت بعض الكتابات

اليونانية إلى صفات الملك والنظام الملكي، فأوضحت بأن الملك هو رجل فوق الرجال بسبب ما يتميز به من عدالة ورجاحة عقل ومواهب، فهو رجل دولة وقائد عسكري. وله صلة بالآلهة. ولهذا حرص الاسكندر على أن يكون كالفراعنة عندما احتل مصر.

وكانت انتصارات الملك فيليب المقدوني الذي حكم بين ٣٥٩ ـ ٣٣٦ ق. م. على بقية المدن اليونانية، ومن ثم فتوحات ابنه الاسكندر في الشرق، كلها مؤشرات لولادة نظام ملكي جديد قوي، مع عدم إمكانية استمرار الأنظمة القديمة. وهذا القول لا ينطبق على بلاد اليونان فحسب وإنما على بلاد الشرق أيضاً واصبح من المتعذر أن يحكم «نظام المدينة» بلاد شاسعة كمصر وبابل وفارس. وكانت النتيجة الحتمية رجحان النظام الملكي في كافة انحاء العالم الهلليني إلى أن تمت السيطرة الرومانية على هذا العالم.

وكان النظام الملكي أو الملك في المرحلة الهللينية مقيداً بواجبات لاسيما الأدبية منها، غير أنه في الوقت نفسه كان يعتبر «الشريعة الحية» وكان يعتبر الرجل العادل وصاحب الإدارة المطلقة. والأمر اللافت للنظر أنه حدث في بلاد اليونان أن تولى الحكم اثنان بالشراكة كالأخوة معاً أو بين الأب وابنه وبين الأخ واخته. وهنا لا بد من الإشارة من أن اليونانيين والبطالسة لم يروا غضاضة من زواج الأخ باخته.

ومهما يكن من أمر فقد كان للملك سلطات واسعة، فهو القائد الطبيعي للجيش وهو المشترع الوحيد وأعلى سلطة قضائية. وعرفت بعض الفترات حكم الملكات مثل أولمبيا والدة الاسكندر، وكليوباترة، وارسينوى شقيقة بطليموس الثاني وزوجته في نفس الوقت وسواهن.

ثانياً: السلطة المركزية والإدارية المحلية

اعتمد النظام الملكي الهلليني في توطيد سلطته المركزية على عدد من المساعدين والموظفين الذين نالوا مناصب شرف بل وألقاب شرف تميزهم عن سواهم من الموظفين. وكان الملك ينتخب من بين بطانته القادة والوزراء. وكان

يختار من بين اصدقائه رئيس الديوان ورئيس القضاة ورئيس المالية.

وكانت الإدارة المحلية في الأقاليم والبلدان الخاضعة لليونان تتسم بنظام يوناني متأثر إلى حد كبير بالأنظمة السابقة على الحكم اليوناني، ففي مصر، طبقت التقسيمات الإدارية السابقة، وقد عين في البدء في كل إقليم مصري حاكم مصري وقائد عسكري يوناني، ومع مرور الأيام أصبح الحكم كلياً بيد القائد اليوناني والغي منصب الحاكم المصري. وفي بلاد فارس استمر نظام «المرزبانات» قائماً مع سيطرة يونانية. وقد فرضت اللغة اليونانية على مختلف الإقاليم مع الاعتراف باللغات السائدة، لأنه كان من المتعذر محو هذه اللغات أو إلغائها بسرعة.

أما فيما يختص بالضرائب فقد فرضت على المناطق بنسب مختلف تبعاً لثروات وغنى كل منطقة وإقليم. والحقيقة فإن القسم الأكبر من الموارد المالية إنما جاءت نتيجة استثمار الريف الذي كان يعتبر ملكية خاصة للملك. وفي كل الملكيات حتى في مقدونيا، كانت أهمية الممتلكات الملكية من العقارات والمناجم والمصانع عظيمة جداً. وكان من نتيجة فرض الجزية والضرائب الجماعية والشخصية أن أثرى الملوك الهللينيين، وأغنت هذه الثروات إغريق اليونان القديمة الذين لم يعرفوا في مدنهم القديمة الصغرى سوى الميزانيات الفقيرة.

ثالثاً: القوة العسكرية

استلزمت التوسعات العسكرية اليونانية اعداد جديدة من الرجال لدعم الفرق العسكرية وزيادة عدد رجالها، وعلى سبيل المثال، فقد أصبح عدد الجيش زمن الاسكندر ما يقارب مائة ألف جندي. بالإضافة إلى أنه استخدم وسائل عسكرية جديدة لمحاصرة الحصون. كما وجدت الأساطيل المتعددة والمتنوعة.

لقد استوعب الاسكندر أهمية القوة العسكرية لذلك أمر بتدريب الرعايا على السلاح، وبالرغم من أنه أمر بتدريب الشرقيين وإعادة تأهيلهم عسكرياً. غير أنه كان متحفظاً حيالهم خوفاً من ثوراتهم وتحركاتهم المعادية. ومن بين

الشعوب التي قام بتدريبها الفرس الذين تلقوا سلاحاً مقدونياً وتدريباً عسكرياً على النمط المقدوني أيضاً. كما تم تشكيل فرق مصرية في داخل الجيش اثبتت الأحداث والتطورات صحة تحفظات وشكوك الاسكندر، لأن هذه الفرق قامت بحركات عسكرية معادية.

لذلك تبين للاسكندر ولسواه بأن خير الجنود الذين يمكن الاعتماد عليهم هم الجنود اليونانيون وفي مقدمتهم المقدونيين الذين اثبتوا مهارة عسكرية سواء في حروبهم في داخل اليونان أو في خارجها لاسيما في بلاد فارس. وكان المقدونيون يرتدون الدروع في فرق الفرسان، ولكن بعد وفاة الاسكندر واضطراب الأوضاع السياسية والعسكرية بات من الصعب تجنيد الإغريقيين لاسيما المقدونيين منهم، الأمر الذي اضطرهم أحياناً إلى تجنيد المرتزقة كأمر واقع لا بد منه أمام تعذر تجنيد الإغريق.

رابعاً: موجز إسهام الأغريق في الشرق

من بين الاسباب التي دعت الاسكندر المقدوني، وملوك اليونان للسيطرة على الشرق ما عرف عنه من غنى وتطور وكان الطمع بهذه المناطق الشرقية أحد الأسباب الهامة لاحتلالها. ولكن يجب أن لا ينكر الدارس بأن لليونان فضلاً على تطور الشرق وتقدمه.

لقد وفرت سيطرة الملوك الهللينيين للشرق السلم وإن لم يكن كاملاً ولكنه يبقى أفضل من فترات الحكم الفوضوي الذي ساد الشرق فترة من الزمن. وسهل السلم الهلليني النسبي تطور الصناعات والزراعة والإدارة. كما ساهم السلم الهلليني أيضاً في تطور المواصلات بين الامبراطورية، كما انتشر التراث، واللغة اليونانية في مصر وفارس وفينيقيا وبابل وسواها، ومن اسهامات الإغريق في الشرق تمازج وتطور العلوم والآداب والفلسفة والطب والهندسة والرياضيات(٢).

ومن إسهامات الإغريق في الشرق أيضاً بناء مرافيء الاسكندرية وإنشاء برج عند رأس جزيرة فاروس (فار) بلغ ارتفاعه (١٢٠ متراً) تشتغل فيه النيران

ليراها البحارة على بعد خمسين كلم. كما وصلت الحفرة باليابسة بواسطة سد طوله (١٢٠٠ متراً) ترك عند كل من طرفيه ممر للمراكب يعلوه جسر تجاوز
فتكون بهذه الطريقة مرفآن واسعان مجهزان بالأرصفة. كما وصلت إحدى الأقنية ببحيرة داخلية بالنيل.

والواقع فإن إنجازات الإغريق في الشرق لم تقتصر على مصر وحدها، وإنما كانت في مختلف المناطق الشرقية، غير أنه كان للاسكندرية في مصر ميزة مختلفة عن سواها من المدن الهللينية. ففينيقيا مثلاً تأثرت بالعصر الهلليني أيضاً وبدأت تنهل من الفكر والتراث الإغريقي، وقد اشتهر من أدبائها ومؤرخيها وشعرائها في هذا العصر شاعر صيدون «انتيباتر» وشاعر صور «ميليغر» والمؤرخ «فيلون» من جبيل. غير أن أهم الانجازات الهللينية في الشرق تتجسد في عملية التمازج الحضاري التي أراد الاسكندر منها ولادة حضارة عالمية متمازجة فكراً وعملاً وبشراً وحضارة وقد استطاع أن يوفق لفترة مؤقتة سرعان ما انقسمت امبراطوريته بعد وفاته بين قادته بطليموس وسلوقس وانتغونس[٣] ولكن استمرت المؤثرات الهللينية إلى فترة بعيدة قائمة سواء في الشرق أو الغرب.

---

(١) الأسرة الكبيرة أو القبيلة المحدودة العدد.

(٢) للمزيد من التفصيلات راجع كتابنا: مقدمة في تاريخ العلوم والتكنولوجيا.

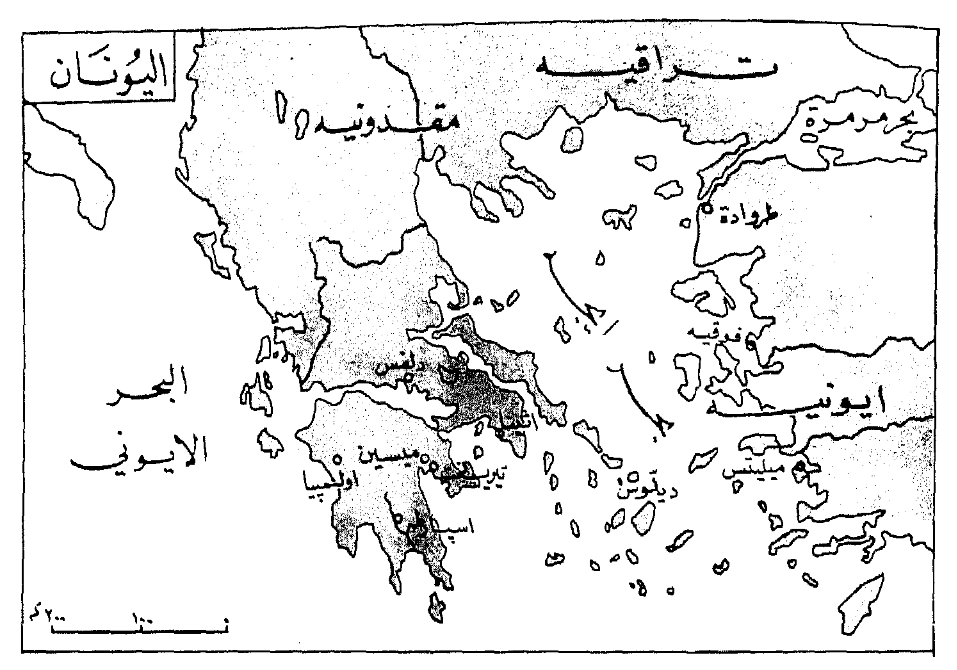
(٣) كانت مقدونيا وبلاد اليونان من حصة انيغونس، بينما كانت مصر من نصيب بطليموس، والبلاد السورية وبابل وبعض المقاطعات الآسيوية من حصة سلوقس.

للمزيد من التفصيلات عن الحضارة اليونانية أنظر المصادر والمراجع التالية:

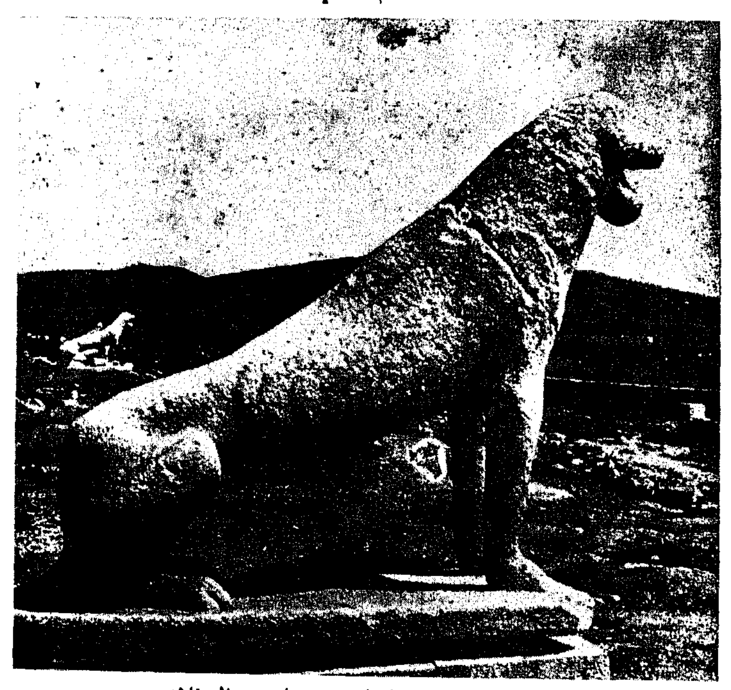
- د. أحمد صبحي: الحضارة الاغريقية، مؤسسة الثقافة الجامعية - الاسكندرية (لا. ت.).
- أرنولد توينبي: تاريخ الحضارة الهلينية، تعريب: رمزي جرجس، مراجعة: د. صقر خفاجة، مكتبة الانجلو - المصرية - القاهرة ١٩٦٣.
- د. أسد رستم: تاريخ اليونان من فيليبوس المقدوني الى الفتح الروماني، منشورات الجامعة اللبنانية - بيروت ١٩٦٩.
- الفرد زيمرن (A. Zimmern): الحياة العامة اليونانية السياسية والاقتصاد في أثينا في القرن الخامس (The Greek commonweath) تعريب: د. عبد المحسن الخشاب، مراجعة: أمين مرسي قنديل، لجنة البيان العربي، الطبعة الخامسة - القاهرة ١٩٥٨.

. . . .

= - أندريه ايمار، جانين أو بوايه. تاريخ الحضارات العام مجلد ١، القسم الثاني باشراف موريس كروزيه، تعريب: فريدم. داغر، فؤاد ج. أبو ريحان، منشورات عويدات - بيروت ١٩٦٤.
- د. عبد اللطيف أحمد علي: مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٦٨.
- د. عبد اللطيف أحمد علي: التاريخ اليوناني، دار النهضة العربية - بيروت ١٩٧٣.
- د. لطفي عبد الوهاب يحيى: الديمقراطية الأثينية، مركز التعاون الجامعي، الطبعة الثانية - الاسكندرية ١٩٦٩.
- د. لطفي عبد الوهاب يحيى: دراسات في العصر الهلسنتي، دار النهضة العربية - بيروت ١٩٧٧.
- د. مصطفى العبادي: مصر من الاسكندر الأكبر الى الفتح العربي، مكتبة الانجلو - المصرية - القاهرة ١٩٦٦.
- د مصطفى العبادي: مكتبة الاسكندرية القديمة، مكتبة الانجلو - المصرية - القاهرة ١٩٧٧.
- هارولد (السير) ايدرس بِلْ: الهلينية في مصر، تعريب: زكي علي، دار المعارف - القاهرة (لا. ت.) التأليف ١٩٤٨.
- هارولد (السير) ايدرس بِلْ: مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، تعريب: د. عبد اللطيف أحمد علي، دار النهصة العربية - بيروت ١٩٧٣.
- هـ. د. كيتو (Kitto): الاغريق (The Greeks) تعريب: عبد الرزاق يسري، مراجعة: محمد صقر خفاجة، دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٦٢.



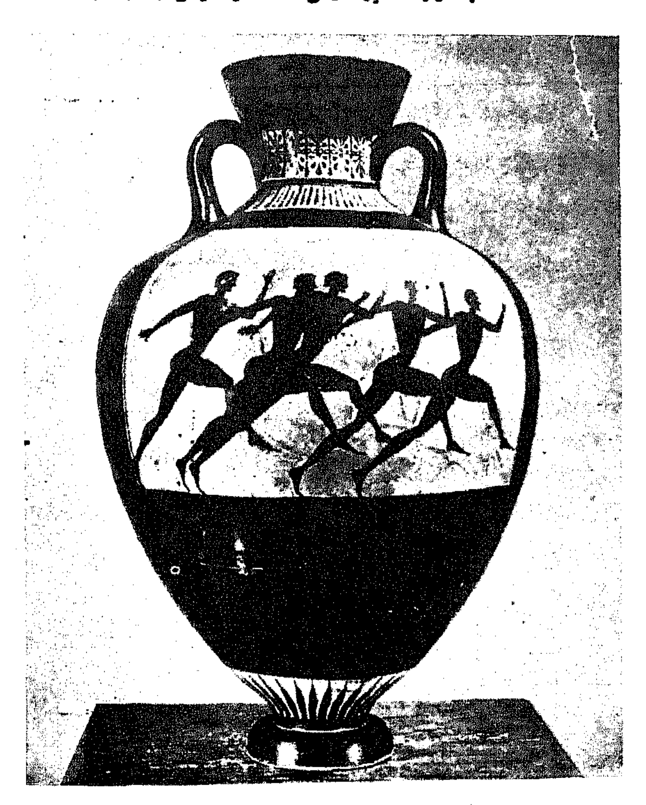
خريطة العالم الايجي (اليونان)



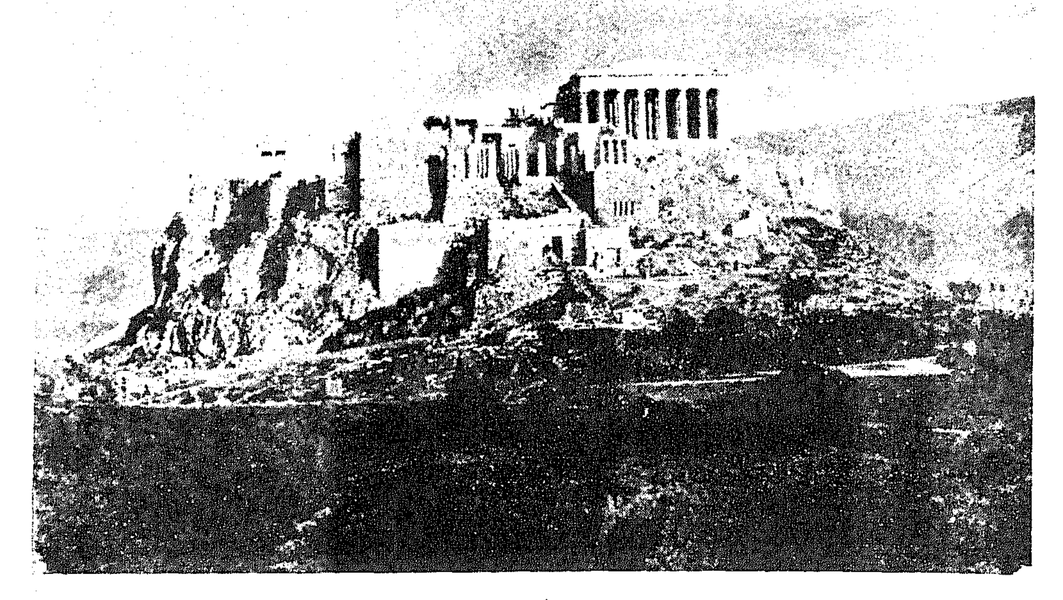
طريق اللبؤات في ليتوون ديلوس (اليونان)



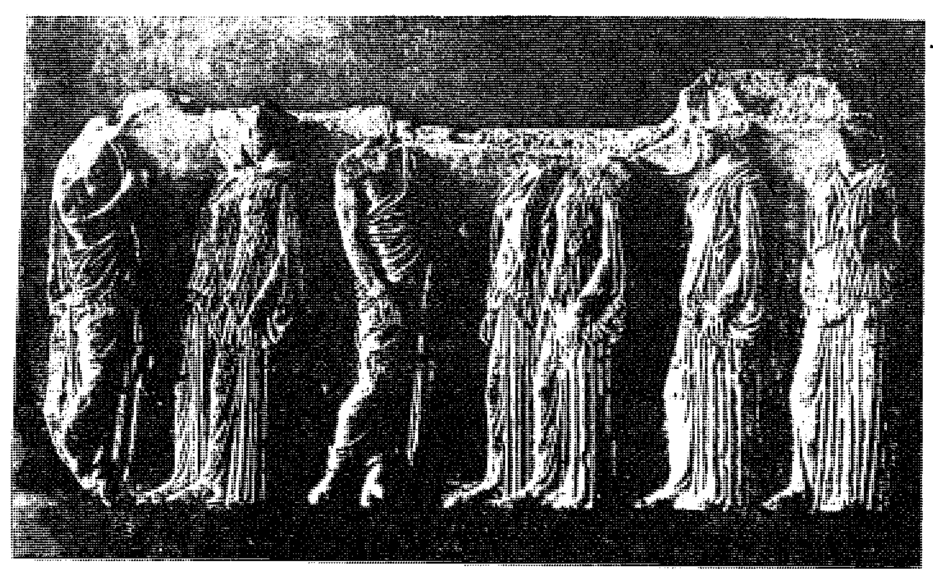
مشهد وليمة هيراكليس عند افريتيوس (اليونان)



إناء يظهر عليه العداؤون الأولمبيون (اليونان)



قلعة أثينا (اليونان)



الطواف في عيد الآلهة أثينا (اليونان)



البرثنون (اليونان)



مدالية من البرونز تمثل أثينا برثنوس مستوحى من تمثال فيدياس (اليونان)

الفصل الثامن
الحضارة العربية والإسلامية

العرب قبل الإسلام[1]:

تعتبر المنطقة العربية من أهم المناطق في العالم بسبب موقعها الجغرافي والسياسي ومميزاتها الدينية، فهي على مفترق طرق بين قارات آسيا وإفريقيا وأوروبا، وهي ذات المواقع الاستراتيجية الهامة منذ فجر التاريخ، وهي التي شهدت ثلاثة أديان سماوية اليهودية والمسيحية والإسلام، اختصها بها الله دون سواها من مناطق العالم.

ويمكن القول بأن المنطقة العربية أو ما يعرف باسم الشرق الأدنى القديم عرفت الحضارات الأولى للبشرية، ومنها الحضارات الفينيقية، المصرية، الكنعانية، الأشورية البابلية، السومرية... وعرفت المنطقة أول علوم في مجال الطب والهندسة والقانون، فالطب المصري الفرعوني يعتبر من أقدم الطب العالمي، وكان «أمنحتب» وزير الملك «زوسر» في القرن الثلاثين ق، م. طبيباً وفلكياً ومهندساً معمارياً. أما فيما يختص بتاريخ الطب في العراق (بلاد ما بين النهرين) فإن أقدم ما كتب عنه من إيضاحات إنما تعود إلى الألف الثالث ق، م. ويلاحظ إن أعظم وثيقة قانونية تتعلق بالطب البابلي هي ما جاء في قانون حمورابي[2].

وعرفت منطقة الشرق الأدنى القديم (المشرق العربي) أولى المحاولات العلمية في ميدان التكنولوجيا والرياضيات، وتعرف المصريون القدماء إلى هذه العلوم نظراً لارتباطها بالهندسة وبناء الإهرامات والمعابد والقبور والقصور، وقد جمع العالم «أرشيبالد» (Archibald) حولي (٣٦) وثيقة تتعلق بالرياضيات

المصرية وهي مكتوبة باللغات المصرية والقبطية واليونانية يمتد تاريخها من عام ٣٥٠٠ ق. م. إلى عام ١٠٠٠ ق. م. وعثر على ألواح علمية ونصوص رياضيات في بلاد ما بين النهرين لا سيما في العهدين البابلي والسومري.

والحقيقة فإن المناطق العربية قبل الإسلام عرفت بدورها شتى العلوم وبينها علوم الفلك والتنجيم والتقويم والهندسة والفيزياء والكيمياء والجغرافية والنحت وسوى ذلك.. ومن أهم المنجزات العلمية انتقال إنسان المنطقة من عصور ما قبل التاريخ إلى العصر التاريخي بتعرفه إلى الكتابة، وبينها الكتابة الهيروغليفية المصرية والكتابة المسمارية في بلاد ما بين النهرين، والكتابة العربية السينائية والنبطية الآرامية، وأهمية هذه الحضارة قبل الإسلام إنها لم تؤثر في الشرق الأدنى القديم فحسب، وإنما امتدت آثارها إلى مناطق أخرى من العالم الغربي القديم اليوناني والروماني.

أما أسباب نشأة الحضارات في المنطقة العربية: فهي ظروف المناخ وطرق المواصلات البرية والبحرية المناسبة، والتمازج الحضاري البشري والاحتياجات الملحة للإنسان.

والحقيقة فإن العرب قبل الإسلام أوجدوا حضارات لهم ومنها[٣]: حضارة اليمن في جنوب الجزيرة العربية التي قامت بها قبل ظهور الإسلام ثلاث دول هي: الدول المعينية (١٢٠٠ ـ ٦٥٠) ق. م. ومقرها شرقي صنعاء بين نجران وحضر موت، الدولة السبأية (٩٥٠ ـ ١١٥)ق. م. وكانت مأرب عاصمة لها واشتهرت هذه الدولة عبر تاريخها بسد مأرب الشهير وهو معلم من معالم وعجائب الهندسة في التاريخ القديم. كما اشتهرت هذه الدولة ببناء القصور الضخمة. أما الدولة الثالثة فهي الدولة الحميرية (١١٥ ق. م. ـ ٥٢٥ م)، وتميزت هذه الدولة بالاهتمامات العمرانية والهندسية والحربية على السواء، وكان من أشهر ملوكها وآخرهم يوسف ذا نواس الذي اعتنق اليهودية ويذكر بأنه هو الذي أحرق نصارى نجران عام ٥٢٣ م.

وفي شمال جزيرة العرب قامت دولة اللخميين في الحيرة بالقرب من بابل

على حدود الدولة الفارسية الساسانية، وعرفت أيضاً بدولة المناذرة، كما قامت على الحدود الشمالية الغربية للجزيرة العربية دولة الغساسنة على حدود الدولة البيزنطية، وشملت مناطقها الأراضي الواقعة بين نهري العاصي والأردن[4]

وقد استطاعت الدولة اللخمية ودولة الغساسنة الاحتكاك بالحضارتين الفارسية والبيزنطية ونقل معالمها إلى العرب ونقل التراث العربي إليها، ومن ممالك شمال الجزيرة العربية مملكة النبطيين في مدينة البتراء التي لا تزال آثارها ماثلة إلى الآن في الأردن، وكانت تعتبر مركزاً دينياً لعرب الشمال يحجون إليها لزيارة الإله ذو الشرى (دوسارس) والآلهة مناة. وقد تكلم سكانها لغة عربية شمالية واستخدموا الخط النبطي الأرامي الذي استخدم في تدوين القرآن الكريم.

ومن ممالك الشمال العربية مملكة تدمر في باطن بادية الشام حيث شهدت حضارة مجيدة وتجارة مزدهرة لا سيما بين (١٣٠ - ٧٣ م). وامتدت تخومها من الفرات إلى الإسكندرية في عهد الملكة زنوبيا. أما مملكة كندة فقد قامت في وسط الجزيرة العربية، وحاولت توحيد القبائل العربية، وكان امرؤ القيس أحد أمرائها واستقر الكنديون في بلاد نجد ثم توسعوا شمالاً ناحية العراق والشام.

كما شهدت الجزيرة العربية حضارة حجازية ونشوء مدن فيها مثل مكة والمدينة والطائف وكان عرب الحجاز لا سيما أهل مكة يهتمون بالتجارة مع اليمن والشام وهي المعروفة برحلتي الشتاء والصيف التي ذكرها القرآن الكريم، ويذكر أنه بمرور الزمن أصبحت مكة «جمهورية تجارية» يتولى رئاستها أغنياء قريش.

أما فيما يختص بديانة العرب قبل الإسلام، فإنهم وإن اعتنق بعضهم اليهودية أو النصرانية، غير إن غالبيتهم كانوا يدينون بالوثنية ويعبدون الأصنام والأوثان التي زاد عددها عن (٣٦٠) آلهاً ومنها: «العزى» إله كوكب الزهرة و«ود» إله القمر، و«هبل» أي الروح و«مناة» أي المنية الموت، وسواع، ويقوت، ويعوق، وبعل، وجهار، . . . أما اللات والعزى ومناة فهي آلهة مشتركة لجميع

القبائل العربية. وبالإضافة إلى تعرف العرب إلى اليهودية والنصرانية والوثنية فقد اعتنق بعضهم معتقدات الصابئة والمجوس وهم عبدة الكواكب والنجوم.

وعرف العرب بالإضافة إلى بعض العلوم، المعلقات الشعرية، وهي من النشاطات الثقافية الهامة عند العرب، وتبين لنا عاداتهم وتقاليدهم وحروبهم وتياراتهم من خلال هذا الشعر وهذه المعلقات.

الحضارة العربية بعد ظهور الإسلام

ولد النبي محمد (ﷺ) يوم الإثنين في ١٢ ربيع الأول من عام الفيل. الموافق ٢٠ نيسان (إبريل) ٥٧١ م. وبعد أن أصبح في الأربعين من عمره أتاه الوحي، ليبشر بالدين الإسلامي، وليأمر العرب والناس بنبذ عبادة الأوثان والتوجه نحو الله الواحد، وبالرغم من الصعوبات العديدة التي واجهته غير أن الدعوة الإسلامية بدأت تنتشر تباعاً وانتصر المسلمون على مختلف القبائل المعادية لا سيما قريش، وفي أقل من عشر سنوات أصبحت الجزيرة العربية بكاملها تدين بالإسلام.

وفي ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هجرية - ٨ حزيران (يونيه) ٦٣٢ م. انتقل الرسول (ﷺ) إلى جوار ربه بعد خطبة الوداع على جبل عرفة. وقد تولى مسيرة المسلمين من بعده من الصحابة الخلفاء الراشدين وهم على التوالي: أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، ودام حكمهم من ٦٣٢ - ٦٦١ م، استطاعت جيوش المسلمين خلالها الأنتصار على الروم والفرس والتوسع نحو الشام والعراق ومصر والمغرب العربي وأرمينيا وما وراء النهرين (قرب روسيا اليوم). ثم توسعت الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الأمويين فسيطرت على إسبانيا وبلاد وسط فرنسا والقسطنطينية وتركستان وبلاد السند وقبرص ورودوس. ولما تولى العباسيون أمور الدولة شهدت مناطقها التقدم الحضاري الاقتصادي والعلمي، غير أنه في عام ١٢٥٨ م تعرضت بغداد لغزوات المغول الذين أنهوا الخلافة العباسية. كما إن الأمويين في الأندلس أقاموا حكماً حصيناً وحضارة راقية سرعان ما بدأت بالتدهور نتيجة الخلافات العربية

فسقطت الدولة العربية فيها عام ١٤٩٢ م. وكان المشرق العربي قد سبق أن تعرض للحملات الصليبية في القرن الحادي عشر في إطار الصراع الفاطمي - السلجوقي، ثم ما لبث هذا المشرق العربي ومصر وبعض بلدان المغرب العربي أن خضعت للسيطرة العثمانية في عامي ١٥١٦ - ١٥١٧ وقد استمر حكم الدولة العثمانية إلى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨.

أما فيما يختص بملامح الأنظمة والحضارة العربية الإسلامية فيمكن دراستها على النحو التالي[٥]:

الدين الإسلامي

كان الإسلام هو الأساس والعامل الهام في بناء ملامح المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية فلم تكن الأنظمة القضائية والمالية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والعلمية منفصلة عن جوهر الدين الإسلامي، ذلك إن المسلمين انتهجوا الإسلام كمبدأ للدين والدنيا لذا كانت نشاطاتهم المتنوعة لا تقوم بمنأى عن الدين بل بوحي منه وتبعاً لمعتقداته وتعاليمه وتبعاً للقرآن والسنة النبوية وجمهرة الفقهاء والعلماء المسلمين.

ويمكن ذكر المبادىء الأساسية التي يقوم عليها الإسلام واستطراداً المجتمع الإسلامي وهي خمس عقائد وخمسة أركان، أما العقائد فهي:

١ - الإيمان بأن الله تعالى واحد أحد لا شريك له، وهو لم يلد ولم يولد وهو خالق الكون.

٢ - الإيمان بأن محمداً رسول الله، أنزل عليه القرآن الكريم، وإن محمداً خاتم الأنبياء.

٣ - الإيمان بالملائكة.

٤ - الإيمان بالأنبياء والرسل مثل موسى وعيسى وإلياس وزكريا وذي الكفل... عليهم السلام وإن المسلم لا يكتمل إيمانه إلا بالإيمان ببقية الرسل الذين اختارهم الله.

٥ ـ الإيمان بالآخرة، وان بعد الموت الحياة والحساب ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾[٦].

أما أركان الإسلام فهي:

١ ـ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

٢ ـ أداء الصلاة خمس مرات في اليوم: عند الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء وأن يوجه المصلي وجهه ناحية القبلة.

٣ ـ الصوم في شهر رمضان والامتناع عن الأكل والمشرب وأية إساءة للنفس وللغير.

٤ ـ الزكاة وهي زكاة أموال المسلم تدفع كل سنة مرة مما يملك من النقود ومقادير معينة من انتاج الأراضي الزراعية.

٥ ـ الحج وهو ركن فرض على القادرين من المسلمين والمسلمات، يتوجه به نحو مكة والمدينة وعرفة والمزدلفة وبقية الأماكن التي قصدها الرسول محمد (ﷺ).

هذا بالإضافة إلى أن للإسلام تعاليم عديدة أخرى وردت في القرآن أو على لسان الرسول، وبينها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحريم شرب الخمر ولعب القمار (الميسر) وتحريم أكل لحم الخنزير، والامتناع عن النميمة واستيغاب الناس وأكل أموال الناس بالباطل والربا.. وتعاليم عديدة تجسدت في معاملات المجتمع الإسلامي.

النظام السياسي الشرعي (الخليفة)

كان الرسول (ﷺ) هو رأس النظام السياسي في العهد الإسلامي الأول وبعد انتقاله إلى جوار ربه تولى الخلافة[٧] من بعده الخلفاء الراشدون الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وقامت الخلافة على أساس الشورى والانتخاب، واستمرت على هذا النحو إلى أن قبض معاوية بن أبي سفيان على السلطة،

فأصبحت منذ أن تولاها ومن جاء بعده خلافة وراثية أشبه بالنظام الملكي واستمرت على هذا النحو في مختلف العهود الأموية والعباسية والفاطمية والمملوكية والعثمانية.

وكان الخليفة هو المسؤول الأول عن نظام وأوضاع الدولة، وبعد اتساع الدولة العربية وتزايد أمصارها، أصبح للخليفة معاونون في الداخل وولاة في الأقاليم والأمصار يعاونهم القضاة ورؤساء الجند وسواهم. وكان الخليفة ليس مسؤولاً عن المسلمين فحسب وإنما عن كل السكان التابعين للدولة العربية ولو كانوا يعتنقون أدياناً أخرى، غير أن فترات الانحطاط شهدت تجاوزات في الحكم الإسلامي لا سيما وإن بعض الخلفاء العباسيين أحاطوا أنفسهم بالقداسة واعتقدوا أنهم يحكمون بتفويض من الله وتكاثرت أسماءهم المقترنة بلفظ «الله» مثال: المتوكل على الله، المقتدر بالله، المستعين بالله، وتلقبوا بلقب الإمام لإعطاء سلطانهم معانٍ دينية. وأصبح للخليفة فيما بعد وزراء يساعدونه في إدارة الحكم وأصبح له حاجب أو الوزير الحاجب المسؤول عن إدخال الناس إلى الخليفة.

هذا وقد اهتم المسلمون بالنظام السياسي وكيفية أساليب الحكم، وكان في مقدمة المهتمين القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي الذي تقلد منصب القاضي في بغداد سنة ٤٢٩ هـ - ١٠٣٧ م. ويمثل كتاب «الأحكام السلطانية والولايات الدينية» النموذج الحي للفكر السياسي ولنظم الحكم الإسلامي القائمة على الشرع والعدل ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ﴾[٨]: وقد تضمن الكتاب عشرون باباً[٩]:

الباب الأول: في عقد الإمامة.
الباب الثاني: في تقليد الوزارة.
الباب الثالث: في تقليد الإمارة على البلاد.
الباب الرابع: في تقليد الإمارة على الجهاد.
الباب الخامس: في الولاية على المصالح.
الباب السادس: في ولاية القضاء.

الباب السابع: في ولاية المظالم.
الباب الثامن: في ولاية النقابة على ذوي الأنساب.
الباب التاسع: في الولاية على إقامة الصلوات.
الباب العاشر: في الولاية على الحج.
الباب الحادي عشر: في ولاية الصدقات.
الباب الثاني عشر: في قسم الفيء والغنيمة.
الباب الثالث عشر: في وضع الجزية والخراج.
الباب الرابع عشر: فيما تختلف أحكامه من البلاد.
الباب الخامس عشر: في أحياء الموات واستخراج المياه.
الباب السادس عشر: في الحمى والأرفاق.
الباب السابع عشر: في أحكام الإقطاع.
الباب الثامن عشر: في وضع الديوان وذكر أحكامه.
الباب التاسع عشر: في أحكام الجرائم.
الباب العشرون: في أحكام الحسبة.

ويرى الماوردي أن «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع وأن شذ عنهم الأصم....» وأورد الآراء الخاصة بالإمامة بأن البعض قال بوجوبها عقلاً وإن البعض الآخر قال بوجوبها شرعاً، غير أن الشرع جاء بتفويض الأمور إلى وليه في الدين استناداً إلى قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[١٠].

أما أهل الاختيار فالشروط المعتبرة فيهم ثلاثة وهي: العدالة الجامعة لشروطهم، والعلم، والرأي والحكمة، وإذا عقدت الإمامة لإمامين في بلدين لم تنعقد إمامتهما، لأنه لا يجوز أن يكون للأمة إمامان في وقت واحد.

أما خلافة الخليفة، فلو عهد الخليفة إلى واحد أو إلى اثنين أو أكثر، ورتب الخلافة فيهم، فقال الخليفة بعدي، فإن مات فالخليفة بعد موته فلان، فأن مات فالخليفة بعده فلان، جازت الخلافة وحكم الخليفة شرعي، وكانت

الخلافة منتقلة إلى الثلاثة على مارتبها الخليفة[11].

وأما أهل الإمامة فالشروط المعتبرة فيهم سبعة وهي[12]:

١ ـ العدالة على شروطها الجامعة.

٢ ـ العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام.

٣ ـ سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ليصح معها مباشرة ما يدرك بها.

٤ ـ سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض.

٥ ـ الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح.

٦ ـ الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو.

٧ ـ النسب وهو أن يكون من قريش لورود النص فيه وانعقاد الإجماع عليه، ولا اعتبار بضرار حين شذ فجوزّها في جميع الناس.

ويرى الماردي بأنه إذا اجتمع أهل العقد والحل للاختيار تصفحوا أحوالهم أهل الإمامة الموجودة فيهم شروطها، فقدموا للبيعة منهم أكثرهم فضلاً وأكملهم شروطاً ومما يسرع الناس إلى طاعته ولا يتوفقون عن بيعته، فإذا تعين لهم من بين الجماعة من أداهم الاجتهاد إلى أختياره عرضوها عليه، فإن أجاب إليها بايعوه عليها، وانعقدت بيعتهم له الإمامة فلزم كافة الأمة الدخول في بيعته والانقياد لطاعته، وإن امتنع من الإمامة ولم يجب إليها لم يجبر عليها لأنها «عقد مراضاة واختيار» لا يدخله إكراه ولا إجبار، وعدل عنه إلى من سواه من مستحقيها[13].

هذا وقد وردت كلمة خليفة وخلائف في أكثر من موضع في القرآن الكريم منها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ، خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾[14] وقوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[15]. وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً. . .﴾[16].

أما فيما يختص بالتسمية، فإن ابن خلدون يرى بأن منصب الخليفة هو

نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا وهو لذلك يسمى خلافة وإمامة والقائم به خليفة وإماماً. فأما تسميته إماماً فتشبيهاً بإمام الصلاة في اتباعه والاقتداء به ولهذا يقال الإمامة الكبرى، وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي (ﷺ) في أمته فيقال خليفة بالمطلق، وخليفة رسول الله، واختلف في تسميته خليفة الله، فأجاز بعضهم اقتباساً من الخلافة العامة التي للناس في قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وقوله: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ ومنع الجمهور منه لأن معنى الآية ليس عليه، وقد نهى الخليفة أبو بكر عنه لما دعي به وقال: لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله (ﷺ). ثم أن تنصيب الإمام واجب، وقد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين، لأن أصحاب رسول الله (ﷺ) عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر إليه في أمورهم وكذا في كل عصر[١٧].

ويحلل ابن خلدون معنى الخلافة وأمور السياسة وإدارة أمور الناس الدينية والدنيوية بقوله: «لما كانت حقيقة المُلك أنه الاجتماع الضروري للبشر ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية، كانت أحكام صاحبه في الغالب جائزة عن الحق مجحفة بمن تحت يده من الخلق في أحوال دنياهم لحمله إياهم في الغالب على ما ليس في طوقهم.... وتجيء العصبية المفضية إلى الهرج والقتل، فوجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة ينقادون إلى أحكامها، كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم. وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها ولم يتم استيلاؤها[١٨]».

ورأى ابن خلدون إن هذه القوانين السياسية إذا كانت مفروضة من العقلاء وكبار رجال الدولة كانت سياسة عقلية، وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ذلك إن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط وهي دار فناء، وإنما المقصود أيضاً آخرتهم وهي دار بقاء، «فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء».

وهكذا يتبين معنى الخلافة عند ابن خلدون الذي يقرر أيضاً بأن المُلك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة، والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار، والخلافة في حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجحة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به[١٩].

الوزارة

يرى ابن خلدون بأن السلطان أو الخليفة بحاجة إلى من يساعده في تصريف أمور الدولة والناس، ويفضل أن يكون هذا المعاون من ذوي القربى والنسب لسهولة التعاون بسبب التجانس. وقد عرَّف ابن خلدون الوزارة بأنها «أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية لأن إسمها يدل على مطلق الإعانة، فإن الوزارة مأخوذة إما من المؤازرة وهي المعاونة أو من الوزر وهو الثِقل كأنه يحمل مع مفاعله أوزاره وأثقاله وهو راجع إلى المعاونة المطلقة[٢٠]». وقد ورد في القرآن الكريم هذا اللفظ بقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَـٰرُونَ أَخِي * ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[٢١] أما مهام الوزارة فكانت على عدة أصناف منها:

١ ـ النظر في أمور حماية الكافة وأسبابها من النظر في الجند والسلاح والحروب وسائر أمور الحماية والمطالبة.

٢ ـ النظر في أمور جباية الأموال وانفاقه وضبط ذلك من جميع وجوهه وهو يعرف باسم صاحب المال والجباية.

٣ ـ النظر في أمور الناس وحجبهم عن الخليفة لمعرفة مشاكلهم ومطالبهم.

٤ ـ النظر في قيادة الثغور وولاية الجبايات الخاصة والنظر في حسبة الطعام أو النظر في السكة.

والحقيقـة فإن النـظام السيـاسي في عهـد الـرسـول (ﷺ) لم يعـرف نـظام الوزارة بمفهومها الواسع بالـرغم من إن الصحابـة كانـوا يساعـدون الرسـول في مهامه السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية. غير أن منصب الوزارة بدأ يتبلور منذ العهد الأموي، وبذلـك يقول ابن خلدون: «فكـانت الوزارة لـذلك أرفع رتبهم يومئذ في سائـر دولة بني أميـة، فكان النـظر للوزير عـاماً في أحـوال التدبير والمفـاوضات وسـائر أمـور الحمايـات والمطالبـات وما يتبعهـا من النظر في ديوان الجند، وفرض العطاء بالأهلية[٢٢]».

وازدادت أهميـة الوزارة في العهـد العباسي وتفـاحل نفـوذ الوزيـر بشكـل بارز، وبهذا يقـول ابن خلدون: «فما جـاءت دولة بني العبـاس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت وعظم شأن الوزير وصارت إليه النيابـة في إنفاذ الحـل والعقد تعينت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب وجعل لها النـظر في ديوان الحسبـان لما تحتـاج إليه خـطته من قسم الأعـطيـات في الجنـد، فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه وأضيف إليه النظر فيه، ثم جعل لـه النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغـة لما كـان اللسان قـد فسد عند الجمهور، وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذيـاع والشياع، ودفع إليه فصار إسم الوزير جامعـاً لخطتي السيـف والقلم وسـائر معـاني الوزارة والمعاونة، حتى لقد دعي جعفر بن يحيـى بالسلطان أيام الرشيد[٢٣]».

هذا ويلاحظ أن معظم وزراء العباسيين كانوا من عائلات فارسيـة كأسرة البرامكة وبني سهل وبني طاهـر، وبني الفرات، وبني الجـراح وبنى خاقـان وبني وهب وسواهم[٢٤].

ولا شك بأن الوزارة تطورت وتباينت مهامها ما بين بلدان المشرق وبلدان المغرب والأندلس، وتداخلت فيها مناصب الحجابة[٢٥].

أما أنواع الوزارة الإسلامية فقد كانت على نمـطين: وزارة تفويض ووزارة تنفيذ.

١ ـ **وزارة التفـويض**: وهي أن يستوزر الإمـام الخليفة من يفـوض إليـه

تدبير الأمور برأيه وإمضاءها على اجتهاده، ولا يمتنع جواز هذه الوزارة، على اعتبار أن الله عز وجل أورد قصة عن نبيه موسى عليه السلام: قال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَٰرُونَ أَخِي * ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ فإذا جاز ذلك في النبوة كان في الإمامة أجوز، ولأن ما وكل إلى الإمام من تدبير الأمة لا يقدر على مباشرة جميعه إلا باستنابة، ونيابة الوزير المشارك له في التدبير أصح في تنفيذ الأمور من تفرده بها ليستظهر به على نفسه، وبها يكون أبعد من الزلل وأمنع من الخلل.

أما فيما يختص بشروط تولي الوزارة، فهي تماثل شروط الإمامة باستثناء النسب، غير أن الوزير يحتاج إلى شرط إضافي على شروط الإمامة، وهو أن يكون من أهل الكفاءة فيما وكل إليه من أمر الحرب والخراج. ويرى الماوردي أنه على هذا الشرط مدار الوزارة وبه تنتظم السياسة[٢٦].

ومن واجبات وزارة التفويض أو الوزير المفوض إطلاع الإمام على ما قام به من أعمال وما أنجز من مهام لئلا ينفرد بالأمور ويتحول إلى مستبد. وبالتالي فإن على الإمام الإطلاع ومراجعة أعمال الوزير للموافقة على الصواب واستدراك الأخطاء «لأن تدبير الأمة إليه موكول وعلى اجتهاده محمول».

٢ ـ **وزارة التنفيذ**: إن وزارة التنفيذ حكمها أضعف وشروطها أقل، لأن النظر فيها مقتصر على رأي الإمام وتدبيره، ووزير هذه الوزارة هو الواسطة بينه وبين الرعايا والولاة يؤدي عن الإمام الخليفة ما أصدر من أوامر وينفذ ما ذكر ويمضي ما حكم، ويخبر بتقليد الولاة وتجهيز الجيوش. ثم يعرض على الإمام الخليفة ما ورد من أمور هامة. وبكلمة فإن وزير التنفيذ هو مساعد في تنفيذ الأمور وليس والٍ عليها أو متقلد لها. ويراعى في من يتولى هذا المنصب سبعة أوصاف:

ـ الأمانة، صدق اللهجة، قلة الطمع، عدم العداوة مع الناس، أن يذكر للخليفة ما رآه وما سمعه، الذكاء والفطنة، أن لا يكون من أهل الأهواء. وإن كان هذا الوزير مشاركاً في الرأي احتاج إلى وصف ثامن وهو الحنكة والتجربة.

ومن الأهمية بمكان القول بأن هذه المناصب السياسية وسواها من المناصب الهامة يتولاها عادة الذكور من المسلمين لأسباب عديدة وقد قال الرسول محمد (ﷺ): «ما أفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة». علماً بأن الإسلام كرّم المرأة وعظم من شأنها، ولكن في إطار معلوم من المهام والمناصب، وفي إطار إمكانياتها المتاحة، علماً أن بعض الفقهاء أجازوا تولية المرأة لأمور الدولة.

أما فيما يختص بالخليفة فيجوز له أن يقلد وزيري تنفيذ على اجتماع وانفراد، ولا يجوز أن يقلد تفويض على الاجتماع لعموم ولايتهما، كما لا يجوز تقليد إمامين لأنهما ربما تعارضا في العقد والحل والتقليد والعزل(٢٧).

النظام العسكري

إن الظروف السياسية والعسكرية والقبلية التي أحاطت بالدين الإسلامي منذ نشأته دعت الرسول محمد (ﷺ) إلى الإعداد العسكري لمواجهة أعداء الإسلام في الداخل، علماً أن القرآن الكريم حض المسلمين على قتال الكفار والمشركين والمعتدين. ولما انتشر الإسلام وزاد عدد المسلمين، زادت الأطماع، ومحاولات القضاء عليه، فكان لا بد من تكوين جيش قوي وقادر لمواجهة الدولتين البيزنطية والفارسية. ومن هنا كان اتجاه الخليفة عمر بن الخطاب لإنشاء ديوان خاص بالجند ينظم أوضاعهم العسكرية والمالية والعائلية(٢٨). كما اعتنى معاوية بن أبي سفيان بتطوير النظام العسكري وبناء السفن الحربية والقوات البرية بهدف الدفاع والغزو وأقام مراكز لبناء الأساطيل البحرية ثم طبق عبد الملك بن مروان نظام «التجنيد الإلزامي». واهتم العباسيون خاصة في إنشاء جيش قوي وإقامة القلاع والحصون في الثغور لحماية المدن من غزوات الروم.

وكان الجيش الإسلامي في أثناء الحرب تتوزع مهامه وفق تقسيماته العسكرية: المقدمة والقلب والجناح الأيمن والجناح الأيسر والساقة، وكان يقود الجيش القائد الذي يتصف بالجرأة والأقدام والذكاء. أما أسلحة الجيش فكانت: السيوف والدروع والخوذ والرماح والحراب والأقواس والسهام والمنجنيق والآليات الخشبية المدرعة، كما استخدموا فيها بعد الدوافع (المدافع)

الطالقة. وكانت عناصر الجيش عادة من المسلمين لا سيما العرب منهم، ثم بتوسيع الدولة سمح للبربر والعنصر التركي بالدخول إليه.

النظام الإجتماعي

كان النظام الإجتماعي في العصر الجاهلي يختلف كثيراً عن النظام الإجتماعي في العهد الإسلامي نظراً لأن الدين الإسلامي أوجد أنظمة وعادات ومعتقدات جديدة مخالفة للشرائع الجاهلية، غير أن النقلة الإجتماعية، تمت تدريجياً.

وكان المجتمع العربي يضم: المسلمون العرب، وأهل الذمة من النصارى واليهود والمسلمون من غير العرب كالأندلسيين والأتراك والمماليك والفرس وسواهم. وبالرغم من أن الإسلام ساوى بين المسلمين بين الأغنياء والفقراء في الحقوق، والواجبات، غير أن المجتمع العربي شهد فئات إجتماعية متنوعة مثال فئات: الوزراء والأمراء والقضاة والقادة والعلماء والأغنياء والتجار، والفقراء والصعاليك والرقيق.

أما الأسرة العربية فهي تنقسم عادةً إلى ثلاثة أقسام: الرجل، المرأة، الأولاد. وقد كرم الإسلام الأسرة وحض على رعايتها والإهتمام بها، وبلغ اهتمام الإسلام بالأسرة أن دعا الرسول (ﷺ) إلى اختيار أسماء جميلة غير معيبة للأولاد، وإلى تعليمهم تعليماً جيداً وإلا كان الأب عاق بحق أولاده.. كما أن الإسلام دعا الأولاد إلى رعاية واحترام الوالدين «وبالوالدين إحساناً» وأعطى الإسلام للرجل حق الزواج بأكثر من واحدة ضمن شروط معينة، كما أباح له ولزوجته طلب الطلاق في حال وجود المبررات الشرعية.

أما المرأة العربية[٢٩]، فمن المعروف أنها منذ ما قبل الإسلام كان لها مكانة مرموقة، فقد كان يحق لها التملك والاشتغال بالسياسة والشعر والأدب والسحر، . وكانت تتميز بحرصها على شرفها وكرامتها، وكان تخوف الآباء من مس شرفهم يدعوهم إلى وأد بناتهم وطمرهم أحياء في الرمل. غير أن

المرأة كانت قبل الإسلام ينقصها الكثير من الحقوق، فقد كانت تمنع من الزواج بعد وفاة زوجها وكان باستطاعة الرجل أن يتزوج أختين معاً وسمح للإبن أن يتزوج إمرأة أبيه بعد موته. ولما جاء الإسلام حرم وأد البنات وحرم زواج الأختين الضرتين إلا في حال وفاة الأولى أو طلاقها فيمكن للزوج ساعتئذٍ الزواج من الأخرى، كما سمح للمرأة الزواج بعد وفاة زوجها أو طلاقها منه، ومنع زواج الإبن بزوجة والده ولو بعد وفاته.

ولقد أعلى الإسلام مكانة المرأة وأمر برعاية الأم والأخت والزوجة والعمة والخالة وقال الرسول (ﷺ) بإن الجنة تحت أقدام الأمهات، وفي حديث شريف آخر: «أمك أمك ثم أباك». ولما شرَّع الإسلام بأن «للذكر مثل حظ الأنثيين». لم يكن يعني بذلك أعلاء الرجل درجة على المرأة بل على العكس، فقد أمر الشرع الرجل مقابل حصتين، الزامه برعاية والدته وأخته وكل أنثى تمت إليه بقربي، ويقع على عاتق الرجل جميع المسؤوليات أزاء والدته وأخته و. . . في حال حاجتها إلى مساعدته، بينما لم يكلف الإسلام المرأة بتحمل المسؤوليات عن أخيها.

أضف إلى ذلك بأن الإسلام أعلى من مكانة المرأة وأعطاها حقوقاً إجتماعية وسياسية ومالية وأعطاها حرية التصرف بأموالها وممتلكاتها. وبرز من النساء المسلمات الشاعرات والأديبات والعالمات والطبيبات والممرضات. . .

وبالرغم من أن الإسلام لم يحرم الرقيق غير أنه ساعد على الغائه تباعاً بتحديد التغفير والتكفير عن الذنوب والتقصير في مجالات العبادة، فأمر الله بعتق العبد أزاء التفكير عن المعاصي والخطايا، وكان الرقيق فئة من فئات المجتمع العربي الإسلامي وقد بلغت شأواً هاماً لا سيما في العصور العباسية فثارت ضد الظلم واستطاعت فيما بعد تولي المناصب وتولي السلطة في عصر عرف بإسم عصر المماليك.

هذا وقد عرفت الحضارة الإسلامية نشاطات علمية مكثفة في ميدان الأدب، والشعر والنثر والطب والهندسة والفلك والكيمياء والفيزياء والموسيقى

والرياضيات والصيدلة وعلم النبات والفنون والعمارة وبناء المساجد والبيمارستانات والجغرافيا والتاريخ ونظم التعليم والجامعات. وسواها الكثير، وفي مختلف المناطق الإسلامية وفي مختلف العهود[٣٠].

النظام القضائي وأساليب الإدارة الإسلامية في المدن الإسلامية (المحتسب)

كان الرسول (ﷺ) هو القاضي الذي يحكم بين الناس في بدء الدعوة الإسلامية، ثم تولى هذه المسؤولية الخلفاء من بعده، ولكن نظراً لتطور الدولة الإسلامية منذ عهد عمر بن الخطاب ومن ثم في العهد الأموي، بدأ الخلفاء يعينون قضاة في العاصمة وفي الأقاليم كان المسؤول عنهم «قاضي القضاة» الذي كان مركزه عادة في عاصمة الخلافة دمشق أو بغداد فيما بعد. وكان القضاة يحكمون وفقاً للقرآن الكريم والسنة النبوية وتبعاً للفقهاء الذين اجتهدوا اجتهادات هامة في قضايا الإسلام. وارتبط بنظام القضاء، نظام استحدثه الخليفة عبد الملك بن مروان هو «ديوان المظالم» ويستدل من إسمه بأن مهمته كانت تلقي الشكاوى والبحث فيها وإصدار الحكم حولها، وكانت الجلسات تعقد إما في المسجد أو في غرفة خاصة في قصر الخليفة أو منزل قاضي القضاة، ولا يجوز أن يقلد القضاء إلا من تكاملت فيه شروطه وهي سبعة: أن يكون رجلاً بالغاً، أن يكون عاقلاً، أن يكون حراً، أن يكون مسلماً، أن يكون عادلاً، أن يكون سليم السمع والبصر، وأن يكون عالماً بالأحكام الشرعية وأصولها[٣١].

ويرتبط بالنظام القضائي أيضاً نظام الشرطة الذي كان أفراده يقومون بحفظ الأمن الداخلي والمحافظة على مصالح الناس. وكانت هناك شرطة خاصة في أثناء الليل يقال لها «شرطة العسس» لملاحقة اللصوص والمجرمين الذين يحاولون السرقة ليلاً، وكان من مهامها تفقد الشوارع والمحلات والدكاكين فيما إذا كان صاحبها نسي إقفالها أم لا. وقد انتقل نظام الشرطة إلى الأندلس وعرف هناك بإسم (Zavorda).

أما فيما يختص بنظام الحسبة والمحتسب في الإسلام فهو يعتبر من أرقى الأنظمة الإدارية المحلية التي كانت مرتبطة بالنظام القضائي وقد أنشىء نظام الحسبة تبعاً لتعاليم الإسلام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٣٢].

النظَام الإدَاري في العهَد الإسلاَمي الأول

أولاً: نبذة عن النظم السائدة

سادت النظم الإدارية في الامبراطوريات القديمة، لا سيما الامبراطورية الفارسية والامبراطورية الرومانية، نتيجة تجارب مستمرة في ميدان الاقتصاد والسياسة والحرب، وحصيلة خبرات إدارية جعلت كلاً منهما قادرة على تنظيم شؤونها تبعاً لأوضاعها الاقتصادية والسياسية والعسكرية، وتبعاً لمتطلبات الحكم والتوسع العسكري الذي فرض التنظيم للأقاليم كافة التي سيطرت عليها.

وهذا يعني ـ بطبيعة الحال ـ أن تلك الامبراطوريات قد تأثرت تأثراً مباشراً نتيجة احتكاكها بالمناطق التي سيطرت عليها، لوجود حضارات قد تكون أرقى وأزهى من حضارتها، لذا اقتبست الكثير من أنظمة الشعوب المسيطرة عليها، فالرومان مثلاً أخذوا عن الحضارة اليونانية من حيث النظم الإدارية والسياسية، ومن حيث الآداب والعلوم أيضاً. كما أن الفرس أخذوا عن شعوب استعمروها كانت تفوقهم في مضمار الحضارة، ومن الأمثلة على ذلك، أنهم اقتبسوا عن الكلدانيين والبابليين تنظيمهم السياسي والإداري، وأخذوا عن الأشوريين تنظيمهم العسكري.

والجدير بالذكر أن الفرس لم يهتموا في بادىء أمرهم بالكتابة والتدوين والآداب. فلا غرابة إذن أن تضيع «الافيستا» ولا تدون إلا في عصور لاحقة.

ولما أحس الفرس بضرورة التدوين اعتمدوا الكتابة المسمارية المعمول بها في بلاد ما بين النهرين مع بعض التعديل في كتاباتها، ولما امتدت امبراطوريتهم

إلى الغرب اعتمدوا الأرامية كلغة دبلوماسية لأنها كانت لغة تتداولها شعوب الامبراطورية.

هذا ويمكن القول، أن الأمم التي ضمتها امبراطورية الفرس ساهمت مساهمة فعالة، في تأمين أسباب الحضارة الفارسية. فلا عجب والوضع على هذا النحو، أن يقتبس العرب بعض الأنظمة التي سادت قبل إنشاء دولتهم وأضافوا عليها ما يلائم أوضاعهم الاقتصادية والإدارية والدينية والسياسية، ومن بين هذه الأنظمة نظام الدواوين. وهذا دليل واضح على استعداد العرب لتقبل الحضارات ومظاهر التقدم والرقي عند غيرهم من الشعوب.

ومما يستغرب أن أكثر المراجع والمصادر العربية لا تشير إلى أن الفرس أنفسهم، كانوا قد اقتبسوا نظام الدواوين وغيره من أنظمتهم من نظم إدارية لشعوب سيطروا عليها من قبل.

ثانياً: أسباب جهل العرب قبل الإسلام للنظم الإدارية الراسخة

يتبين للدارس في تاريخ العرب والإسلام الملاحظات التالية:

١ ـ كان العرب قبل الإسلام قبائل متفرقة، لا تربط فيما بينها روابط سوى النسب، ولا تجمعها أهداف موحدة، وكان مجتمعهم على هذا النحو مجتمعاً مفتتاً من الناحية السياسية.

٢ ـ لا يعني ذلك أنه لم يكن للعرب حضارة قبل الإسلام، ولكن المقصود منه أن عدم وجود دولة بمفهومها الكياني، يستتبع عدم وجود الإدارة والتنظيمات المالية والسياسية وما شابه ذلك، إذ لا حاجة للقبائل لمثل هذه التنظيمات. بل كانت تنظم أمورها وفقاً لظروفها واحتياجاتها. .

٣ ـ جاء الدين الإسلامي ليلغي هذه الأوضاع، وليؤسس «دولة المدينة» في عهد الرسول ﷺ، وكان من الطبيعي ألا تجاري هذه الدولة الفتية ـ ولما يمض عليها سنوات معدودات ـ كبريات الامبراطوريات كالامبراطورية الفارسية والامبراطورية البيزنطية التي خبرت وأدركت الكثير من أمور الإدارة والسياسة

نتيجة خبراتها وتجاربها واختلاطها بشعوب أرقى منها وأكثر تقدماً. ولذا فقد اقتصر التنظيم الإداري في زمن الرسول ﷺ على قيادته السياسية والعسكرية ورئاسته الدينية، ولم يستلزم الأمر في ظل بساطة «دولة المدينة» الأخذ بنظم متطورة في الإدارة والحكم على غرار الفرس والروم.

٤ ـ عندما تعقدت الإدارة الإسلامية في عصر الفتوحات، كان طبيعياً الاقتباس من نظم المغلوبين، وهذه ظاهرة طبيعية إن دلت على شيء فإنما تدل على أن العرب شعب يتقبل الحضارات العالمية، ولا يعيش في معزل وانكماش عن التطورات الحضارية.

ثالثاً: تعريف الديوان

من الأنظمة التي اقتبسها العرب عن الفرس والروم نظام الدواوين الذي كان أداة لتنظيم أمور الدولة في المجالات كافة. «والديوان في تعريف أقضى القضاة أبو الحسن الماوردي، الديوان محفوظ بحفظ ما تعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال(٣٣)». «وفي تسميته ديواناً وجهان: أحدهما أن كسرى اطلع ذات يوم على كُتّاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم فقال «ديوانه» أي مجانين، فسمي موضعهم بهذا الاسم، ثم حذفت الهاء عند كثرة الاستعمال تخفيفاً للاسم فقيل ديوان، والثاني أن الديوان اسم بالفارسية للشياطين فسمي الكُتّاب باسمهم لحذقهم بالأمور ووقوفهم على الجلي والخفي وجمعهم لما شذ وتفرق واطلاعهم على ما بعد وقرب ثم سمي مكان جلوسهم باسمهم فقيل ديوان(٣٤)».

وقد استعمل العرب كلمة «ديوان» في نظامهم الإداري بعد أن عربت عن الفارسية، وقد يكون لهذه الكلمة صلة بكلمة «دبير» بمعنى الكاتب، أو بكلمة «دب» الأشورية بمعنى سجلات العامة(٣٥). وهذا التفسير يدعم الرأي السالف الذكر من أن الفرس كانوا قد اقتبسوا عن غيرهم من الشعوب.

رابعاً: الدواوين في عهد الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين

لقد وجد الديوان منذ عهد الرسول ﷺ دون أن يتسمى بهذه التسمية،

وللدلالة على صحة هذا القول، أنه كـان للرسول ﷺ كتبـة وقراء من الصحـابة بلغ عددهم أكثر من اثنين وأربعين شخصاً، فقد كـان عثمان بن عفـان يكتب له أحيـانـاً، وأحيـانـاً عـلي بن أبي طـالب، وخـالـد بن سعيـد وأبـان بن سعيـد، والعلاء بن الحضرمي[٣٦]. وكان أول من كتب له أبي بن كعب وإذا غاب كتب لـه زيـد بن ثابت، وقـد كتب له أيضاً عبد الله بن سعـد بن أبي سرح، وكتب لـه أيضاً معاوية بن أبي سفيان وحنظلة الأسيدي.

ويكفي هذا العدد من الأشخاص لأن يؤلفوا ديواناً للكتابة والإدارة وكـان جميع هؤلاء يكتبون ـ بطبيعة الحـال ـ باللغـة العربيـة وليس بلغة ثـانية، بـل إن ثقـافة أحـدهم بلغت حد إجـادته لعـدة لغات أجنبيـة من النـادر أن تجتمـع في شخص واحـد في تلك الفترة، فقـد كان زيـد بن ثـابت تـرجمـان الـرسـول ﷺ بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية واليهودية[٣٧]. يترجمها إلى اللغة العربية.

ومن الدلائل على وجود المفـاهيم الديـوانية عنـد المسلمين، أن النبي ﷺ أراد مـرة إحصاء المسلمـين فقـال: اكتبـوا لي من تلفظ بـالإسـلام من النـاس، فكتبوا له ألفاً وخمسماية رجل[٣٨]. ولم يكن قبـل ذلك يجمـع المسلمين كتـاب حافظ أي ديـوان مكتـوب[٣٩]. بـالـرغم من أن الـرسـول ﷺ أحصى المسلمـين وسجـل أعدادهم.

لقد كان إحصـاء المسلمين الأول خـطوة أولى نحو التـدوين إذ بمثل هـذه الطرق تم الإحصاء وأعداد من اعتنق الإسلام، والظاهر أن الرسول اتخـذ هذه الخطوة ليقف على أعداد من اعتنق الإسلام، وذلك لدفع أموال الزكاة ولصرفها على المحتاجين من المسلمين، والأخذ ممن يتوجب عليهم الدفع. وللتـأكد أيضـاً من أعداد المسلمين الذين يمكن لهم الاشتراك في العمليات القتالية.

وقـد اقتدى الخليفـة أبو بكـر الصديق بمـا ساد في عصر الـرسول ﷺ من أنـظمة أوليـة، إذ أن من كتب للرسول ﷺ كـان يكتب أيضاً للخليفـة أبي بكـر الصديق ومنهم زيد بن ثابت وعثمان بن عفان. على أنه مما لا شـك فيه أن نـواة «بيت المال» وجدت في أيام الخليفة أبي بكر[٤٠].

ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة، طور الأنظمة السائدة في الدولة، وأضاف إليها أساليب إدارية متبعة في بلاد فارس، ففي عام ١٥ هـ فرض على المسلمين الفروض ودون الدواوين، وأعطى العطايا على السابقة في الإسلام[٤١].

ولما أراد عمر وضع الدواوين لتوزيع الأموال على المسلمين، قال له علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف: ابدأ بنفسك. قال: لا، بل ابدأ بعم رسول الله ﷺ ثم الأقرب فالأقرب[٤٢]. ومن الذين دونوا للخليفة عمر عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم، وكانوا من نبهاء قريش لهم علم بالأنساب وبالناس.

وكان السبب في تدوين عمر للدواوين، أن أبا هريرة قدم عليه من البحرين ومعه مال، فلقي عمر فقال له عمر: ماذا جئت به؟ قال: خمسمائة ألف درهم، فقال عمر: أتدري ما تقول؟ قال: نعم مائة ألف درهم، ومائة ألف درهم، ومائة ألف درهم، ومائة ألف درهم ومائة ألف درهم، فقال عمر: أطيب هو: قال: لا أدري، فصعد عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلناه كيلاً، وإن شئتم أن نعده عداً. فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدونون ديواناً لهم، قال دونوا الدواوين[٤٣].

ويقال أنه استشار عثمان بن عفان، والوليد بن هشام بن المغيرة الذي قال له: قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً وجندوا جنداً، فدون ديواناً وجند جنداً[٤٤]. فأخذ بقول من استشارهم بعد أن رأى أنه لا بد من ضبط الأموال التي ترد على الدولة. ومن ثم معرفة أعداد الجند لفرض العطاء لهم ولأسرهم، وما يقتضي ذلك من تنظيم للقضايا المالية والعسكرية.

وكان الديوان الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية[٤٥]. وأول ديوان أنشىء في الإسلام هو ديوان الجند، ويطلق عليه أيضاً ديوان العطاء، وغايته الحفاظ على الأموال الفائضة الواردة إلى بيت مال المسلمين، مثل الزكاة والجزية والعشور وغيرها، وتسجيل أسماء الجند لصرف

العطايا لهم. وقيل إن أول ديوان وضع في الإسلام هو ديوان الإنشاء(٤٦).

ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة، أقر الأوضاع الإدارية السائدة التي وضعها الخليفة عمر بن الخطاب من قبل. وسار الخليفة علي بن أبي طالب على النمط الإداري السابق لأنه لم ير موجباً لتغييره أو الإضافة عليه، خاصة وأنه كان مشغولاً بما ساد من مشاكل داخلية في عهده.

ويذكر أيضاً أن معاوية بن أبي سفيان جعل على كل قبيلة من قبائل العرب رجلاً يدور على المجالس كل صباح ليسأل عما إذا كان مولود قد ولد فيهم، أو ضيف حل بهم، فيكتب أسماءهم وعائلاتهم ويذهب إلى الديوان ليثبتهم فيه(٤٧)، بالإضافة إلى أن عبد الملك بن مروان سيعمل ـ فيما بعد ـ على تنظيم الدواوين وتطبقها ليس على المسلمين فحسب وإنما على أهل الذمة، حيث أمر بأن يدون كل شخص اسمه واسم والده وأولاده وممتلكاته وذلك في مكان ولادته(٤٨).

النظَام القضَائي الإداري الإسلامي في المدُن الإسلامية «المحتسب»

إن دراسة الإدارة المحلية الإسلامية تعتبر من الدراسات الإسلامية الهامة والجديرة بالدرس، لما لها من أهمية على الأصعدة الدينية والسياسية والإجتماعية والإقتصادية كافة، ولأن مثل هذه الدراسات تظهر لنا الواقع الإسلامي في العصور الإسلامية الأولى التي أستطاعت أن تظهر الدين الإسلامي كدين حضاري قادر على إستيعاب مفاهيم العصر وقادر أيضاً على تسيير أمور الدولة الإسلامية.

هذه الدراسة المتواضعة عن الإدارة الإسلامية ودور المحتسب في المجتمعات الإسلامية ليست هي في الحقيقة سوى محاولة لتسليط الضوء على تلك الإدارة التي تميزت بالدقة والتنظيم وبالعدل والمساواة بين مختلف الفئات الإسلامية، كما أنه لا بد من القول من أن هذه الدراسة ليست هي سوى نواة

أولية للمهتمين بدراسة أوضاع الإدارة المحلية الإسلامية، وهي نواة لدراسات إسلامية أكثر أتساعاً وشمولاً.

أولاً ـ المدينة الإسلامية وإدارتها

كان العرب قبل الإسلام يعيشون حياة يغلب عليها التنقل وعدم الإستقرار، بينما جماعة منهم تشتغل بالتجارة لا سيما إلى اليمن والشام. وبمجيء الإسلام أنتقل العرب من أسلوب حياتهم وتقاليدهم القديمة إلى أسلوب جديد وإلى مثل عليا جديدة جاء بها الإسلام. وكانت لغتهم الحيّة التي أنزل بها القرآن الكريم وطموحهم عاملان أساسيان لنقل الحضارات: الفارسية واليونانية والرومانية، ولم يكتف المسلمون بالنقل بل صححوا ما نقلوه وأضافوا إليه وطوروه.

وكانت الحضارة الجديدة سبباً لنشوء المدن الإسلامية التي أصبحت مركزاً للحياة الإقتصادية والإجتماعية والسياسية والفكرية، ففيها أقيمت الأسواق والمتاجر، وأنشئت المدارس والجامعات، وعقدت مجالس الفكر والأدب والشعر، وأقيمت المساجد التي كانت المركز الرئيسي للمدن الإسلامية حيث تتوزع منها الشوارع والأسواق. وكانت أقدم المدن التي أنشأها العرب: البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وواسط، وقد أقيمت في الأساس لأهداف عسكرية على غرار القاهرة التي أنشأها الفاطميون وبغداد التي أنشأها العباسيون.

والواقع أن تطور المدن وإنتقال الناس إليها وأستقرارهم فيها، أدى إلى إقامة الصناعة والتجارة ونمو الحياة الإقتصادية، وبأتساع المجتمع الإسلامي، وتعدد ميادين الأنشطة الإقتصادية فيه كانت الضرورة ملحة لتنظيم هذا المجتمع على أسس إسلامية تحول دون أضطراب الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية[٤٩].

وبعد الفتوحات الإسلامية أصبح للمسلمين أسواق ثابتة مثل أسواق: البصرة وحلب وحماة، وعكا وبغداد كما أن الأسواق الموسمية السابقة للإسلام مثل: عكاظ ودومة الجندل وصنعاء وعدن، تبدل طابعها القديم وأصبحت ثابتة نتيجة للتطور الإجتماعي والإقتصادي والسكاني والبيئي. ومن يطلع على كتب

ابن جبير (الرحلة) ليدن ١٩٠٧، وابن بطوطة (تحفة النظار) باريس ١٨٧٤ - ١٨٧٩، يتعرف على كثير من المعلومات الفريدة عن الأسواق الإسلامية وأوضاع البلدان بشكل عام[٥٠].

ويمكن القول أن إدارة المدن الإسلامية في البدء كانت إدارة عسكرية ما لبثت الإدارة المدنية أن وجدت طريقها لتنظيم المجتمع الإسلامي وفقاً للمبادىء الإسلامية، مع الأخذ بعين الإعتبار الأنظمة الإدارية المعمول بها في البلدان المفتوحة كالأنظمة الفارسية والرومية. إلا أنه يجب التأكيد على شيء وهو أن الأنظمة الأجنبية عن الإسلام مرت بمراحل تأسلمت فيها ثم تعربت لا سيما في زمن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي الذي أشتهرت دولته بدولة التعريب[٥١].

ومن الأهمية بمكان القول، إن الوظائف الإدارية التي أنشئت في الدولة الإسلامية، إنما كانت مهمتها الأساسية خدمة المجتمع الإسلامي، وقد بدأ الفقهاء والمشرعون بوضع القوانين وتنظيم عمل الموظفين فيها على أسس من الشريعة الإسلامية. وكان الموظفون يعينون من قبل الوالي المركزي على غرار ما كان يطبَّق في بغداد والقاهرة والقدس وغزة وعكا وصفد والكوفة والبصرة.

هذا، وقد عرفت المدينة الإسلامية نظام مراقبة الأجانب الذين يدخلون إلى المدينة، حيث ترصد تحركاتهم سواء من الناحية السياسية أو التجارية. كما عرفت المدينة الإسلامية نظام الشرطة التي كانت تنقسم إلى قسمين: الشرطة النهارية والشرطة الليلية (العسس)، وكانت الأولى تهتم بشؤون الناس في النهار، بينما تقوم الثانية بحراسة الأسواق والمنازل وملاحقة اللصوص. ومن الطريف أن الإدارة الإسلامية عرفت نظام مكافحة الحرائق ذلك أن التجار في القاهرة ودمشق وبغداد وسائر المدن، كان عليهم أن يحتفظوا بأوعية كبيرة مملوءة بالماء خارج حوانيتهم لتستعمل في إطفاء الحريق، على أن وظيفة المحتسب تبقى الوظيفة الأكثر أهمية لأنها الأساس في تنظيم المجتمع.

ثانياً ـ نشوء نظام الحسبة

عرفت الحضارة اليونانية نظاماً أقتصادياً أنتشر مع السيطرة اليونانية في بلاد الشرق، وكان يعرف باليونانية بإسم آغورانوموس (Agoranomos)«صاحب السوق». وكان عمل هذا الموظف الإشراف على أمور الأسواق، وقد أستمرت هذه الوظيفة عند الرومان والبيزنطيين. ولما جاء الإسلام وأنتشرت راية الدولة العربية في الشرق والغرب أبقى الخلفاء والولاة على هذه الوظيفة، ولكن أطلقوا عليها إسم «الحسبة» وعلى صاحبها إسم «المحتسب»، غير أن المسلمين وإنّ أقتبسوا هذا النظام عن الحضارات السابقة فإن ذلك لا يعني أنهم أبقوا عليه كما هو، بل أدخلوا عليه الكثير من المهام والتعديلات والمبادىء المستمدة من تعاليم الإسلام، على أعتبار أن مهمة «الأغورانوموس» كانت مستمدة من تعاليم والبيئة الوثنية ومن ثم المسيحية.

ومن الأهمية بمكان القول، بأن نظام الحسبة نشأ قبل تكوين الدولة الإسلامية، فقد عرف أيام الرسول محمد (ﷺ) كمفهوم ديني إيماني غير مرتبط بالنظام الإداري الذي عرف فيها بعد، حيث أن الرسول كان يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أقتداء بالآية الكريمة: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[٥٢]: والآية الكريمة الأخرى التي تقول: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[٥٣]. كما يستفاد من الأحاديث الشريفة أن الرسول الكريم كان يكافح الغش والمنكر قولاً وعملاً، فهو القائل: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». وقد روى مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ حادثة يستفاد منها أن الرسول غضب من شخص غش في صنعته للطعام فقال له: «من غشنا فليس منا» وفي الراوية «من غشني فليس مني[٥٤]». كما حدث أن عمر بن الخطاب رأى رجلاً شاب اللبن بالماء ليبيعه فأراقه عليه، أما مالك فيرى أن يتصدق باللبن المغشوش فهو أفضل من إلقائه على الأرض.

والجدير بالذكر أن الرسول (ﷺ) كان قد عينّ سعيد بن العاص بن أمية على سوق مكة، كما عين عليها فيما بعد عقاب بن أسيد للإشراف على أوضاعها ومحاربة الفساد فيها. وعّين على الطائف عثمان بن العاص وعلى قرى عرينة خالد بن العاص وبعث علياً ومعاداً وأبا موسى إلى اليمن(٥٥). وقد أتبع الخلفاء الراشدون أسلوب الرسول الكريم في مراقبة الأسواق ومكافحة المنكرات. على أنه يجب التأكيد بأن نظام الحسبة والمحتسب لم يكن نظاماً إدارياً قائماً بحد ذاته في أيام الرسول الكريم والخلفاء، بل كان على غرار بقية الممارسات المنبثقة من تعاليم الدين الجديد. وكان لذلك مبررات موضوعية على أعتبار أنه لم يكن حتى ذلك الوقت قد وجدت الدولة الإسلامية الواسعة الأرجاء، بل كان العمل محصوراً في مناطق محدودة. ولكن الفتوحات الإسلامية لا سيما في زمن الدولة الأموية وما بعدها، أصبح من الضروري إقامة نظام إداري يكون على مستوى الدولة وليس على مستوى القبيلة. ومن أجل ذلك وجدنا بأن الخلفاء المتعاقبين على الدولة الإسلامية أضطروا إلى تنظيمها بأتباع أسلوب متطور يضبط الأوضاع الإدارية والإقتصادية والإجتماعية.

هذا وقد أهتم علماء وفقهاء وفلاسفة المسلمين بنظام الحسبة والمحتسب، فظهرت كتب عديدة تبحث في هذا الموضوع، ومن هذه الكتب على سبيل المثال لا حصر: الماوردي (الأحكام السلطانية)، والغزالي (أحياء علوم الدين جـ ٢) وابن تيمية (الحسبة في الإسلام). إلا أن أقدم الكتب التي وصلتنا هي كتاب (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) للشيزري، و (كشف الأسرار) للجوبري وقد جاء بعدهما ابن بسام صاحب كتاب (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) وابن الأخوة (معالم القربة في أحكام الحسبة). على أن ظهور هذه المؤلفات في المشرق لا يعني عدم ظهور كتب أخرى في المغرب، فقد ظهر في المغرب عدة مؤلفات تبحث في موضوع الحسبة ومنها: ابن خلدون (المقدمة) والسقطي (آداب الحسبة) وأحمد سعيد المجيلدي (التيسير في أحكام التسعين) وسواها من المؤلفات.

ثالثاً ـ صفات المحتسب.

ينبغي على المحتسب أن يتصف بصفات الرفق ولين القول، وطلاقة

الوجه وسهولة الأخلاق، فإن ذلك أبلغ في أستمالة القلوب وحصول المقصود. ويجب أن يكون المحتسب مسلماً ذكراً عاقلاً(٥٦). مواظباً على سنن رسول الله يتعفف عن أموال الناس ويرفض قبول الهداياوالرشاوي. وقد قال (ﷺ): «لعن الله الراشي والمرتشي». كما أن هذه الشروط يجب أن تتوفر في مساعدي المحتسب فإن الغلمان والأعوان إذا ما أرتشوا، فإن ذلك يسيء إلىى المحتسب، مما يستوجب عليه صرف المرتشين من الخدمة لتنتفي عنه الظنون وتنجلي عنه الشبهات(٥٧).

ويتخذ المحتسب سوطاً ودرة (أداة للضرب) وطرطوراً كان يضعه على رأس الغشاش أو المذنب للتشهير به وتجريسه. وكان غلمانه وأعوانه بمثابة عيون له، فإن ذلك أرعب لقلوب العامة، حيث كانوا يلازمون الأسواق والدروب يراقبونها وينقلون أحوالها إلى المحتسب. وإذا حدث أن عثر المحتسب ـ أو أعوانه ـ على بائع ينقص المكيال أو يبخس الميزان أو يغش بضاعة، نهاه عن معصيته ووعظه وأنذره العقوبة والتعزيز(٥٨)، فإن عاد إلى فعله عزره على حسب ما يليق به.

ويضيف «الشيزري»بعض صفات المحتسب فيرى أنه يجب أن يكون فقيهاً عالماً بأحكام الشريعة ليعلم ما يأمر به وينهى عنه. ويجب أن لا يكون قوله مخالفاً لفعله، وإن يتميز بالمهابة والجلالة. وذكر أن السلطان طغتكن المملوكي (المتوفى ٥٢٢ هـ ١١٢٨ م) سلطان دمشق طلب له محتسباً من أهل العلم، وعندما حضر قال له: «إني وليتك أمر الحسبة على الناس، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». قال المحتسب: «إن كان الأمر كذلك فقم عن هذه الطراحة وأرفع هذا المسند، فإنها حرير، وأخلع هذا الخاتم، فإنه ذهب، فقد قال النبي (ﷺ) في الذهب والحرير: إن هذين حرام على ذكور أمتي، حلّ لأناثها، قال: «فنهض السلطان عن طراحته وأمر برفع مسنده وخلع الخاتم من إصبعه وقال: «قد ضممت إليك النظر في أمور الشرطة». ويضيف الشيزري: «فما رأى الناس محتسباً أهيب منه».

من جهة ثانية يورد الشيزري بأن رجلاً حضر عند السلطان محمد بن

سبكتكين ـ (المتوفى ٤٢١ هـ ١٠٣٠ م) سلطان أفغانستان والعراق وفارس ـ وطلب منه الحسبة على مدينة غزنة (عاصمة أفغانستان في تلك الفترة)، فنظر السلطان فرأى شاربه قد غطى فاه من طوله، وأذياله تسحب على الأرض، فقال له السلطان: «ياشيخ! أذهب فأحتسب على نفسك، ثم عد وأطلب الحسبة على الناس[٥٩].

ويمكن القول إن من صفات المحتسب أيضاً، أن يطبق على نفسه ما يطبقه على الناس لا أن يأمر الناس بالبر والابتعاد عن الفواحش، ثم يقوم هو بالمنكرات والفسوق، وذلك أعتماداً على الآية الكريمة: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِر وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[٦٠] و﴿ يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمنوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ ٱللهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[٦١] كما أن عليه أن لا يكون فظاً قاسياً على اعتبار أن القساوة قد تؤدي إلى النفور من المحتسب[٦٢].

رابعاً ـ مهام المحتسب

اتسعت سلطات المحتسب بحيث أصبح يختص بجميع شؤون الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ولذا كان عليه أن يكون على معرفة بالشريعة الإسلامية، ورجلاً حذقاً ملمّاً بأساليب الغش والتحايل. وكان المحتسب ينظر في تطبيق أحكام الشرع، ويشرف على نظام الأسواق ويحول دون بناء الحوانيت في الشوارع العامة لكي لا يتأثر بذلك نظام المرور. ويرى صاحب «الأحكام السلطانية» أنه «إذا بنى قوم في طريق سابل منع منه، وإن اتسع الطريق يأخذهم بهدم ما بنوه ولو كان المبنى مسجداً لأن مرافق الطرق للسلوك لا للأبنية[٦٣]». وكان يستوفي الديون، ويراقب الموازين والمكاييل تجنباً للتطفيف، وكان المحتسب يطلب عادة إلى جميع الباعة والتجار الحضور إلى دارته، ومعهم موازينهم ومكاييلهم وصنجهم[٦٤] فيطلع عليها، فإن وجد فيها غشاً أو خللاً صادرها وطلب من صاحبها استعمال غيرها، وقد اتبع هذا الأسلوب بشكل دقيق في زمن الفاطميين والأيوبيين.

والجدير بالذكر أن المحتسب لم يكتف بمراقبة المكاييل والموازين وفحصها في دارته، بل كان يتفقد الأسواق للتأكد من صحتها ومعاييرها، وكثيراً ما كان

يرسل صبياً لشراء سلعة ما لاختبار هـذا البائـع أو ذاك فيما إذا كـان غشّاشـاً أم مستقيـماً، وإذا ما تـأكد لـه أن البائـع طفّف في الوزن أو غش بضـاعـة، يقـوم المحتسب «بتجريسه» و«تعزيزه» حيث يجمع الناس حوله، ويخـبرهم بما قـام به، وإذا ما كرّر محاولات الغش فإن المحتسب يأمر بوضعه على حمار بشكل مقلوب، ويوعز للغلمان والأطفال بالسير وراءه والتهليل له بغية تجريسه.

ويذكر ابن خلدون بأن الحسبة هي وظيفة من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر الذي هـو فرض عـلى القائم بـأمور المسلمـين وأن عـلى المحتسب أن يبحث عن المنكـرات ويعزر ويؤدِّب عـلى قدرهـا، ويحمل النـاس على المصـالح العامة في المدينة: مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالـة ما يتوقع من ضررهـا على المـارة، ويضرب على أيـدي المعلمين في الكتـاتيب إذا ما ضربوا الصبيان المتعلمـين(٦٥). وللمحتسب أن يمنع أربـاب السفن من حمل مـا لا تسعه ويخاف من غرقها، وكـذلك يمنعهم من المسـير عند اشتـداد الريـح، وإذا حمل فيها الرجال والنساء حجز بينهم بحائل(٦٦).

ويضيف أحمد سعيد المجيلدي(٦٧) بـأنه «لا ينبغي للمحتسب أن يتسـوَّر دار قـوم إذا اتهمهم بمعصية مـا لم ترتفـع فيها أصـوات المـلاهي والمنـاكـر وضجيـج السكارى، فله الهجوم عليهم حينئذ، وتغيير المنكر واجب إذ ذاك».

وقـد أشـار المـاوردي(٦٨) أيضـاً بـأنـه «مـا لم يـظهـر من المحـظورات فليس للمحتسب أن يتجسس عنها ولا يهتك الأستار حذراً من الإستتار بها، وقـد قال النبي عليـه الصلاة والسـلام: «من أتى من هذه القـاذورات شيئاً فليستـتر سـتر الله، فإنه من يُبدِ لنا صفحته نقم حد الله تعالى عليه».

أما فيما يختص بصنـاعة السـلاح، فإذا احتـاج المسلمون إلى السـلاح فإن على الصناعيين أن يقدمـوه بثمنه ولكلفتـه دون زيادة، ولا يمكن لهم أن يحبسـوه على المجاهدين حتى يتسلط العدو أو يبـذل لهم من الأموال مـا يريـدون(٦٩). وعلى

المحتسب أن يقوم بدورٍ بارزٍ في هذا المجال بمراقبة للصناعيين وأماكن السلاح الذي يودعونه.

هذا، وكانت مهام المحتسب تتطور بتطور المنكرات المستجدة في المجتمع الإسلامي، فمثلاً عند ظهور زراعة الحشيش وتناوله، أصدرت المراسيم بمنع زراعته والتحذير من تناوله، وعندما تولى «أزجور بن أولع» محتسبية وشرطة مصر (٢٥٣ هـ - ٨٦٧ م) منع النساء من ارتياد الحمامات والذهاب إلى المقابر، وسجن المخنّثين، وقد صدرت هذه الأوامر بعد تفشي هذه المظاهر في هذه الفترة. وفي عام (٦٦٥ هـ - ١٢٦٦ م) أصدر الظاهر بيبرس أمراً بمنع الخمور والبغاء في كافة أنحاء مصر ولا سيما في القاهرة، فأغلقت الحانات ولوحقت النساء[٧٠].

ومن الأهمية بمكان القول إن نظام المحتسب لم يكن مقتصراً على المجتمع الإسلامي المشرقي، بل أنتشر هذا النظام في المغرب العربي أيضاً، وكانت مدن فاس والجزائر وسواهما من المدن التي عرفت هذا النظام وطبقته بدقة متناهية[٧١].

ويورد «الشيزري» أربعين باباً في كتابه «نهاية الرتبة في طلب الحسبة». لما يجب أن يقوم به المحتسب من مهام، بينما يورد «ابن الأخوة» في «معالم القربة في أحكام الحسبة» في سبعين باباً. أما ابن بسام فيورد مائة باب وأربعة عشر باباً بعد أن يقتبس من الشيزري ويضيف إليها، إلا أنه لا يمكننا أن ندرس جميع هذه الأبواب (المهام) نظراً لاتساعها وكثرتها، ولكن بإمكاننا القيام بدراسة بعض هذه الأبواب التي يمكن بواسطتها الاطلاع على مظهر من مظاهر الحضارة الإسلامية ونظمها وللمقارنة بين تلك الحضارة وبين حضارة القرن العشرين. وعلى هذا فيمكن دراسة مهام المحتسب على النحو التالي:

١ - في النظر في الأسواق والطرقات

يراقب المحتسب الأسواق والطرقات ويحرص على إبقائها من الإتساع والإرتفاع على ما وضعته القوانين، ويكون عادة على جانبي السوق رصيفان يمشي عليهما الناس، ويمنع الباعة من إخراج بضاعتهم ومصاطب

دكاكينهم إلى الخارج، لأن ذلك يعيق مرور المارة. ويذكر ابن تيمية[٧٢] بأن على المحتسب أن يأمر العامة بالصلوات الخمس في مواقيتها ويعاقب من لم يصل بالضرب والحبس... لأن الصلاة هي عمود الإسلام وقد أوردها الله في أكثر من مكان في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾. ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾..

والواقع فإن المحتسب برغم مراقبته للأسواق إلا أنه لم يكن يحق له تسعير البضائع ولا إلزام الباعة بسعر محدد إمتثالاً لما كان يفعله رسول الله (ﷺ)، غير أنه كان ينبغي عليه محاربة الغلاء والإحتكار، فإن رأى أحداً يحتكر صنفاً من سائر الأقوات سبق وأشتراه وقت الرخاء ليحتكره وقت الغلاء، ألزمه ببيعه إجبارياً لأن الإحتكار حرام في الإسلام. وقد قال رسول الله (ﷺ): «الجالب مرزوق والمحتكر ملعون» وقال أيضاً: «لا يحتكر إلا خاطىء» كما كان المحتسب يحارب وسائل المخادعة والغش في التجارة، ويمنع التجار من شراء بضاعة القوافل وهي خارج البلد وقبل وصولها إلى السوق، ذلك لأن هؤلاء التجار قد يقنعون أصحاب البضاعة أن بضاعتهم كاسدة لا راغب لها في الأسواق، وقد يخدعونهم ويبيعونها بأثمان بخسة. هذا ولا بد من القول بأن بعض المذاهب الإسلامية أجازت تحديد الأسعار في بعض الحالات[٧٣].

وفي الأسواق يمنع المحتسب أحمال الحطب والتبن وسواها من الدخول إليها، لأن ذلك فيه إضرار بالناس وبلباسهم كما يمنع في الأسواق بيع الأشياء المحرمة أو المكروهة كآلات اللهو وأواني الخمر[٧٤]. كما يتعين على المحتسب إخراج ذوي العاهات والمجذومين من الأسواق ومنعهم من الشرب والوضوء من الأواني التي يستعملها الأصحاء. ومن واجب المحتسب أيضاً منع نقل الموتى من قبورهم إذا دفنوا، إلا إذا كانت الأرض مغصوبة، كما يهتم بالأمور الإنسانية فيمنع خصاء الآدميين والبهائم ويؤدب عليه[٧٥].

أما الطرقات والدروب فإنه لا يجوز لأحد أن يتصرف بشأنها بما يخالف القوانين ويسيء إلى المصلحة العامة، كالميازيب الظاهرة من الجدران ومجاري

الأوساخ الخارجة من الدور إلى وسط الطريق. فالمحتسب يأمر أصحاب الميازيب بجعلها مخفية في الحائط لتجري فيها المياه، ويأمر أصحاب المجاري بحفر حفرة لرمي الأوساخ فيها.

هذا ولا يجوز التطلع على نساء الجيران من السطوح والنوافذ، ولا أن يجلس الرجال في طرقات النساء، كما أن على النساء أن لا يجلسن على أبواب بيوتهن ولا في طرقات الرجال، فإذا فعلن شيئاً من ذلك عذّرهن المحتسب[٧٦]. لا سيما إذا رأى رجلاً أجنبياً مع أمرأة أجنبية يتحدثان في موضع خلوة فإن ذلك أشد للتهمة في حقهما.

٢- في معرفة الموازين والمكاييل وعيار الأرطال والمثاقيل

ينبغي على المحتسب أن يراقب كل ما يتعلق بعمليات الشراء والبيع سواء بواسطته أو بواسطة أعوانه، ذلك لأن أساليب الغش كثيرة ومتنوعة. فقد أوردت المصادر الخاصة بهذا الموضوع العديد من هذه الأساليب، ومنها أن بعض الباعة لا سيما باعة الذهب يضعون في الميزان كمية معينة من الذهب لوزنها، فيعمد البائع إلى نفخ الكفة التي فيها الذهب نفخاً خفيفاً، بينما يكون الشاري مركزاً نظره على الميزان وليس على فم البائع. وهذا الأسلوب يسمى «البخس الخفي». وقد يعمد بعض الباعة إلى رمي المادة الموزونة رمياً ثقيلاً لكي تزن أكثر من وزنها، وبسرعة خاطفة ينزعها من الكفة لئلا ينتبه الزبون إلى ذلك التدليس[٧٧].

ومن الواجبات الملقاة على عاتق البائع أن يتخذ الأرطال والأواقي من الحديد وليس من الحجارة، لأنها تنتحت بأستمرار وتنتقص. وإذا دعت الحاجة إلى إتخاذها من الحجارة، أمره المحتسب بتجليدها وختمها بعد التأكد من صحة عيارها. ويجدد المحتسب النظر فيها بعد كل حين لئلا يتخذها البائع من الخشب، ويكون تفقد الباعة عادة على حين غرة.

أما بالنسبة إلى المكاييل، فينبغي على المحتسب مراقبتها أيضاً، لأن بإمكان الباعة أن يجعلوا المكيال يتسع أقل من الكمية الصحيحة، كأن يصب في

أسفله «الجبس المدبر» فيلصق به لصقاً لا يعرف مما يؤدي إلى تطفيف المكيال.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[٧٨].

إن غش المبيعات وتدليس الأثمان منكر وممنوع ويؤدب عليه. وإن كان الغش تدليساً على المشتري ويخفى عليه فهو أغلظ الغش تحريماً وأعظمها إثماً فالإنكار عليه أغلظ والتأديب عليه أشد[٧٩].

٣- في الحسبة على السمانين ومعاصر الزيت

يقوم المحتسب بمراقبة مكاييل وموازين وأرطال السمانين وينهاهم عن خلط البضاعة الرديئة بالجيدة، كأن يخلطوا عتيق التمر والزبيب بجديده. كما يمنعهم من رش الماء على التمر والزبيب لأن ذلك زيادة لوزنه، ومن مزج العسل بالماء الحار. ومن السمانين من يغش الخل بالماء، ومعرفة غشه أن الخالص إذا صب منه شيء على الأرض نش، والمشوب بالماء لا ينش، وإذا وضعت فيه حشيشة الطحلب فإنها تشرب الماء دون الخل. أما إذا فسد أو دوّد شيء من الجبن المكسود في الخوابي فلا يجوز للسمانين بيعه لما فيه من الضرر بالناس، وقد يغشون الدبس البعلبكي بدقيق الحنطة الناعم، ومعرفة غشه إنه إذا جعل منه شيء في الماء رسب الدقيق في أسفل الأناء وقد يبقى للماء رغوة.

هذا، وينبغي أن تكون بضائع السمانين مصونة في القطارميز لئلا يصل إليها شيء من الذباب أو هوام الأرض أو يقع فيها شيء من التراب والغبار، ويجب أن تغطى البضاعة برداء على أن تكون المذبة بيد السمان يطرد بها الذباب عن البضاعة. ويأمرهم المحتسب بنظافة أثوابهم ويغسل مغارفهم وآنيتهم وأيديهم ومسح موازينهم ومكاييلهم. وينبغي على المحتسب أن يتفقد أصحاب الحوانيت المنفردة في الحارات والدروب الخارجة عن الأسواق لأن أكثرهم يدلس بما سبق ذكره. ذلك أن الغش يدخل في البيوع بكتمان العيوب وتدليس السلع مثل أن يكون ظاهر المبيع خيراً من باطنه[٨٠]

أما بالنسبة إلى الزيت فيذكر «إبن بسام» غش المشتغلين بعصر الزيت فيذكر بأن هؤلاء يعمدون إلى عصر برز الكتان ويخلطونه مع الزيت الحلو، وهو إذا قلي عرف غشه، وظهرت رائحته. كما أن زيت القرطم (نبات) يخلط مع الزيت الصافي الطيب، وضرره كبير لا سيما على النساء الحوامل، كما أنه يؤدي إلى سقوط شعرهن إذا شربن منه أو أستعملته[٨١]. ومعرفة غشه إنه إذا ترك على النار يكون له دخان عظيم يخنق.

٤- في الحسبة على الخبازين والفرانين

ينبغي على الخبازين أن يرفعوا سقائف حوانيتهم على أن يكون في هذه السقوف منافس واسعة يخرج منها الدخان، لئلا يتضرر بذلك الناس. وإذا فرغ الخباز من إحماء الفرن مسح داخل التنور بخرقة نظيفة، ثم شرع في الخبز. ويأمر المحتسب الخبازين بنظافة أوعية الماء وتغطيتها وغسل المعاجن وتنظيفها. ويراقب المحتسب الخبازين ويأمرهم بعدم عجن العجين بأقدامهم ولا بركباتهم ولا بمرافقهم لأن في ذلك مهانة وإتساخاً للطعام. وربما سقط في العجين شيء من عرق إبط الخباز وبدنه، لذا لا يعجن إلا وعليه ثوب يلبسه أو بشت مقطوع الأكمام. وعلى الخباز أن يكون ملثماً أيضاً لأنه ربما عطس أو تكلم، فقطر شيء من بصاقه أو مخاطه في العجين، وعليه أن يشد على جبينه عصابة بيضاء لئلا يعرق فيتقطر منه شيء ويحلق ذراعيه لئلا يسقط منه شيء في العجين. وإذا عجن في النهار فليكن لديه عامل بيده مذبة يطرد بها الذباب.

والجدير بالذكر أنه كان على المحتسب أن يراقب عمليات ما قبل العجن، كأن يراقب نخل الدقيق ويلاحق الخبازين الذين يغشون الخبز فيخلطونه مع الجلبان (البقول) والبيسار (نوع من أنواع الفول)، ومنهم من يغشه بدقيق الحمص ودقيق الأرز لأنهما يثقلانه، ومنهم من يعجن الخشكار (الدقيق) أو دقيق الشعير أو الدقيق المزون (دقيق مخلوط بالزوان) ثم يبطن به الخبز الخاص عند نفاقه. ومن مهام المحتسب الإشراف على مصلحة الزبائن فمن أشترى خبزاً ووجد فيه حجارة فبإستطاعته أن يرد ما بقي منه، وينهي المحتسب صاحب

الفرن عن هذا الإهمال، فإن عاد لمثله سجن وأخرج من السوق(٨٢). كما أنه إذا كثرت أطباق العجين عند الفران فعليه أن يميز كل طبق بعلامة يتميز بها عن غيره، لئلا يختلط الجميع فلا يعرف كل طبق يخص مَن مِنَ الناس. وينبغي أن يكون للفران مخبزان: أحدهما للخبز والآخر للسمك، ويجعل السمك بمعزل عن الخبز لئلا يسيل شيء من دهنه على الخبز. أما أعمال الفرانين وغلمانهم وإجراؤهم فيجب أن يكونوا دون سن البلوغ لأنهم يدخلون بيوت الناس وعلى نسائهم.

٥- في الحسبة على الجزارين والقصابين والمكارية

يستحب أن يكون الجزار مسلماً بالغاً عاقلاً، يذكر اسم الله على الذبيحة، وأن يستقبل القبلة، وأن يذبح البقر والغنم مضطجعة على الجنب الأيسر، ولا يجر الشاة برجلها جراً عنيفاً، ولا يذبح بسكين غير قاطعة لأن في ذلك تعذيب للحيوان(٨٣) اعتماداً على ما ذكره رسول الله (ﷺ) بقوله: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته». كما يمنع من ذبح البقر الحوامل، فجميع ذلك ورد في السنة النبوية. هذا ويجب أن لا تسلخ شاة مذبوحة إلى أن تبرد. ويقوم المحتسب بدورٍ هام في هذا المجال حيث يراقب وأعوانه عمليات الذبح وما بعدها، ذلك أن بعض الجزارين ينفخون لحم الشاة بعد سلخها، ومنهم من ينفخ الماء في أجزاء مخفية من الشاة وكل ذلك يغير من نكهة اللحم وطعمة ووزنه(٨٤).

أما القصابون، فيمنعهم المحتسب من تعليق اللحوم على أبواب حوانيتهم لئلا تلاصقها ثياب الناس فيتضررون بها. ومنعاً للغش يأمرهم بفصل لحوم المعز عن لحوم الضأن، وبإبقاء أذناب المعز معلقة على لحومها إلى آخر البيع، كما يأمرهم ببيع الدهون منفصلة عن اللحم(٨٥). وإذا فرغ القصاب من البيع وأراد الإنصراف أخذ ملحاً مسحوقاً ونثره على قرمية الخشب التي يقصب عليها اللحم، لئلا تلحسها الكلاب أو يدب عليها شيء من هوام الأراض، فإن لم يجد ملحاً، فعليه أستعمال نبات الأشنان المسحوق الذي يميل طعمه إلى الملوحة.

ويقوم المحتسب بالحفاظ على مصلحة الأمة ورعاية صحتها، فإذا ساورته الشكوك فيما إذا كانت اللحوم لشاة ميتة أم مذبوحة بشكل غير طبيعي فإنه يلقيها في الماء، فإن رسبت فهي مذبوحة وإن لم ترسب فهي ميتة.

وترتبط صناعة «النقانق» (المقانق) بمهنة القصابين، فينبغي عليهم تنقية اللحم الذي يجب أن يكون من لحم الضأن، وأن لا يخلط بالشحم ولا بالدهن ولا شيئاً من بطون البهيمة. ثم يحشون اللحم في «المصارين» النقية المغسولة بالماء والملح. ومنهم من يغش النقانق بلحوم المعز أو لحوم الإبل أو اللحوم الهزيلة، فينبغي على المحتسب أن يراقب هؤلاء، ويمنعهم من التدليس والغش.

وعن الرفق بالحيوان فقد عرف الإسلام هذا النظام منذ أيام الرسول محمد (ﷺ) قبل غيره من الأنظمة الحديثة بقرون عديدة. فقد كان المحتسب يراقب «المكارية» ويمنعهم من أن يحمّلوا الدواب أكثر من قدرتها، ولا يسوقونها سوقاً شديداً تحت الأحمال، ولا يضربونها ضرباً قوياً ولا يوقفونها في مكان وعلى ظهورها أحمالها، فإن في ذلك ضرر وتعذيب لها، وقد نهى رسول الله عن تعذيب الحيوان لغير مأكله، هذا، وعلى «المكارية» أن يراقبوا الله عز وجل في علف الدابة وعليقها، ويكون موفوراً لها غير مبخوس.

٦ـ في الحسبة على الصيرفة

التعيش بالصرف خطر على دين متعاطيه، بل لا بقاء للدين معه إذا كان الصيرفي جاهلاً بالشريعة، غير عالم بأحكام الربا، لذا من أراد الاشتغال بالصيرفة عليه معرفة أصول الشريعة الإسلامية ليتجنب الوقوع في المحظور.

وفي هذا المجال ينبغي على المحتسب أن يتفقد سوقهم ويتجسس عليهم فإن عثر بمن رابى أو تصرف في الصيرفة ما لا يجوز في الشريعة عزّره وأقامه من السوق. كما لا يجوز لأحد من الصيارفة بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة إلا مثلاً بمثل، يداً بيد، فإن أخذ الصيرفي زيادة على المثل أو تصرف بغياب الشاري أو البائع ونال سمسرة بدون علمهما أو علم أحدهما فإن الشرع حرّم ذلك. وقد نهي الرسول (ﷺ) أسلوب السمسرة بقوله: «دعوا الناس يرزق الله بعضهم من

بعض[٨٦]». كما لا يجوز بيع الخالص من الذهب والفضة بالمغشوش ولا بيع المغشوش بالمغشوش، كما لا يجوز بيع الدنانير المصرية (الفاطمية) بالدنانير الصورية (الفاطمية)، ولا دينار قاشاني بدينار سابوري وهكذا. وعلى المحتسب أن ينتبه لجميع هذه الأمور ويلاحقها ويمنع التدليس فيها.

٧- في الحسبة على الصيادلة

تعتبر مهنة الصيدلة في الدولة الإسلامية مهنة تؤثر مباشرة في صحة الناس، لذا أهتم المعنيون بهذا الأمر أهتماماً بالغاً نظراً لخطورة إدخال الغش في الدواء أو إعطاء دواء بدلاً من دواء آخر. ومن هنا قام المحتسب بدور مؤثر في حياة الجماعة والأفراد، فكان عليه في هذا المجال أن يراقب الصيادلة يومياً وأسبوعياً، إذ أن من غشوشهم المشهورة أنهم يغشون «الأفيون المصري» بـ «شياف الماميتا» المر الطعم الأزرق اللون، ويغشونه أيضاً بعصارة ورق الخس البري ويغشونه أيضاً بالصمغ. ولمعرفة غشه أنه إذا أذيب بالماء ظهرت رائحته كرائحة الزعفران إن كان مغشوشاً بالماميتا، وإن كانت رائحته ضعيفة كان مغشوشاً بعصارة الخس، وإن كان مراً صافياً يكون مغشوشاً بالصمغ.

ومن الصيادلة من يغش الشمع بشحم المعز، وقد يذوبون فيه عند سبكة دقيق الباقلا أو الرمل الناعم أو الكحل الأسود المسحوق، ثم يغشى بالشمع الخالص ومعرفة غشه إنه إذا أشتعلت الشمعة ظهر فيها أثر ذلك.

ومن الصيادلة من يأخذ «اللّك[٨٧]» ويسبكه على النار ويخلط معه الآجر المسحوق والطين الأحمر، واما جميع الأدهان الطبية فإنهم يغشونها بدهن الخل بعد أن يغلي على النار ويطرح فيه جوز ولوز مسحوق لإزالة رائحته وطعمه، ثم يمزجونه بالأدهان والمراهم..

٨- في الحسبة على الأطباء والكحالين (أطباء العيون) والمجبرين والجراحين (أطباء الجراحة) (أطباء العظام)

يقول «الشيزري»، «الطب علم نظري وعملي أباحت الشريعة علمه

وعمله لما فيه من حفظ الصحة ودفع العلل والأمراض عن هذه البنية الشريفة[٨٨].

هذا وينبغي على الطبيب في الدولة الإسلامية أن يكون مطلعاً على أجزاء الجسم وعمل كل عضو فيه، والأمراض التي أن يتعرض لها وأسبابها وأعراضها وعلاماتها والأدوية النافعة لها، وأستبدالها بأخرى إنْ لم توجد تلك. ومن لم يكن ملماً بهذه الأمور فلا يحق له مداواة المرضى وعلاجهم.

والجدير بالذكر أن الطبيب إذا دخل على مريض ينبغي أن يسأله عن سبب مرضه، ومن أية جهة من بدنه يتألم، ثم يفحصه ويأخذ نبضه، ثم يصف له دواء من الأشربة أو سواها ثم يكتب الطبيب وصفة طبية للمريض فيها أيضاً وصفاً لحالته المرضية ويسلم نسخة لأولياء المريض. وفي اليوم الثاني يسأل عن المريض لمتابعة حالته ويكتب له نسخة أيضاً، وفي اليوم الثالث والرابع أيضاً يقوم بزيارته وهكذا إلى أن يبرأ المريض أو يموت، فإن شفي من مرضه أخذ الطبيب أجره وزيادة عليه، وإن مات حضر أولياؤه عند الحكيم المشهور (حكيم الحكماء) وعرضوا عليه النسخ التي كتبها لهم الطبيب، فإن وجدها على مقتضى الحكمة وصناعة الطب من غير تفريط ولا تقصير من الطبيب أعلمهم بذلك، وإن رأى الأمر بخلاف ذلك قال لهم: «خذوا دية صاحبكم من الطبيب، فإنه هو الذي قتله بسوء صناعته وتفريطه».

أما المحتسب فينبغي عليه في هذا الصدد أن يحلّف الأطباء ألا يعطوا أحداً دواء مضراً ولا يركبوا له سماً ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنّة ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل. وعلى الأطباء أن يقسموا على شرف المهنة، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى، ولا يفشوا الأسرار ولا يهتكوا الأستار.

وأما الكحالون (أطباء العيون) فيمتحنهم المحتسب بكتاب «حنين بن إسحق[٨٩]»، فمن وجده فيما أمتحنه به عارفاً بتشريح عدد طبقات العين السبع، وعدد أجزائها وأمراضها وكان خبيراً بتركيب العقاقير، أذن له المحتسب بمداواة أعين الناس.

وأما المجبرون (أطباء العظام) فلا يسمح لأحد أن يمارس التجبير إلا بعد أن يعرف المقالة السادسة من مقالة «بولس الأجانيطي» (Paul D'Egine) ـ المتوفى سنة ٦٨٠ م ـ في التجبير، وأن يعلم عدد عظام الإنسان ـ وهي ٢٤٨ عظمة ـ وشكل كل عظم منها ووظيفتها، حتى إذا انكسر منها شيء أو خلع رده إلى موضعه وعلى الهيئة التي كان عليها.

أما الجراحون فعليهم معرفة كتاب «جالينوس» الخاص بتركيب الأدوية والجراحة والمراهم، كما عليهم أن يعرفوا كتاب «الزهراوي»، (التصريف لمن عجز عن التأليف) وأن يعرفوا التشريح وأعضاء الإنسان وما فيه من العضل والعروق والشرايين والأعصاب، ليتجنب الجرّاح أي طارىء أثناء إجراء العمليات الجراحية.

٩ـ في الحسبة على المساجد

يشرف المحتسب على المساجد ويأمر بكنسها وتنظيفها من الأوساخ في كل يوم، ونفض حصرها من الغبار ومسح جدرانها وغسل قناديلها وإشعالها في كل ليلة. ويأمر بغلق أبوابها عقب كل صلاة، ويأمر بصيانتها من عبث الصبيان والمجانين ومن يأكل الطعام أو ينام فيها، أو يعمل صناعة أو بيع سلعة أو ينشد ضالة أو يتحدث بحديث الدنيا. وينبغي على المؤذن إذا ما صعد منارة المسجد أن يغض بصره عن النظر إلى دور الناس، فجميع ذلك قد أورده الشرع بتنزيه المساجد عنه وكراهية فعله. وقد أضاف «أحمد سعيد المجيلدي» بقوله: إنه على المحتسب أن يحتسب على المؤذنين في حفظ أوقات الصلاة ويأمر الناس بالصلاة، كما يأمر غلمانه بضرب الباعة الذين لا يزالون في الحوانيت ضرباً مبرحاً، ولا سيما إذا شرع خطيب الجمعة بالخطبة[٩٠]. ويأمر المحتسب قراءة القرآن مرتلاً كما أمر الله سبحانه وتعالى، وينهاهم عن تلحينه وقراءته بالأصوات الملحنة كما تلحن الأغاني والأشعار.

١٠ـ في الحسبة على الحمامات

الحمام مظهر إسلامي يرتبط بمبادىء الدين الإسلامي، ذلك أن إقامة

الحمامات لم تكن تهدف إلى النظافة البدنية فحسب، وإنما لأسباب تتعلق بالطهارة التي تتطلبها الصلاة في ظروف خاصة. ومن المعلوم أن أكثر البيوت الإسلامية كانت تفتقد إلى وجود الحمامات، ولذا فقد كان المسلمون يتجهون إلى الحمامات العامة للإغتسال والتطهر قبل الدخول إلى المساجد.

أما دور المحتسب في هذا المجال فيقوم على إشرافه المستمر على الحمامات وتنبيه المشرفين عليها من ضرورة غسلها وكنسها وتنظيفها بالماء الطاهر يومياً وبغير ماء الغسالة، وضرورة دلك بلاط الحمامات لئلا يعلق بها الأوساخ والادران والصابون المتسخ كي لا تنزلق أرجل الناس، وعلى المحتسب أن يأمر صاحب الحمام بإشعال البخور في الحمامات مرتين في كل يوم.

ويقوم المحتسب بدورٍ هامٍ في الحفاظ على الصحة العامة، إذ يمنع من الدخول إلى الحمام المجذوم والأبرص ويأمر صاحب الحمام بتخصيص ميازر يؤجرها أو يعيرها للغرباء والضعفاء. كما يأمره بفتح الحمام في السحر لحاجة الناس إليها للتطهر فيها قبل وقت صلاة الفجر. هذا وإن رأى المحتسب أحداً قد كشف عورته عزره على ذلك، لأن كشف العورة حرام. كما يلزم المسؤول حفظ الثياب، فإن ضاع منها شيء حمّله مسؤولية ذلك.

وأما الصور المثبتة على باب الحمام أو داخله، فيجب إزالتها لأن ذلك منكر، كما أن قراءة القرآن لا تجوز في الحمام إلا سراً وليس علانية.

١١- في الحسبة على النساء والمخنثين وشاربي الخمر

إن المعاملات المنكرة كالزنا والبيوع الفاسده وما يمنع الشرع منه مع تراضي المتعاقدين به إذا كان متفقاً على حظره، فعلى والي الحسبة إنكاره والمنع منه والزجر عليه، وأمره في التأديب مختلف بحسب الأحوال وشدة الحظر[٩١].

ويهتم المحتسب بالأمور الإجتماعية للمسلمين ويتبع تعاليم الشرع ويطبقها بحق المخالفين، فمثلاً إن كان الرجل زانياً بإمرأة وهو بكر[٩٢] جلده على مرأى من الناس، أما المرأة فيجلدها وهي في ثيابها، وأما الزاني المحصَّن فيجمع المحتسب الناس حوله خارج البلد ويأمرهم برجمه، كما كان يفعل رسول الله (ﷺ)،

وإن كانت إمرأة محصنة حفر لها في الأرض وأجلسها فيها إلى وسطها، ثم يأمر الناس برجمها. وإن كان المذنب لاط بغلام القاه المحتسب من أعلى شاهق في البلد، على أن المحتسب لا يستطيع أن يتخذ الأحكام، إنما يحول هذه الحالات إلى الأمام ويقوم المحتسب بتنفيذها. غير أن ابن خلدون يرى أن المحتسب «لا يتوقف حكمه على تنازع أو أستعداد بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه» ولكن «ليس له إمضاء الحكم في الدعاوى مطلقاً بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها وفي المكاييل والموازين[٩٣]. . . .».

وأما التعزيز، فعلى قدر الجناية، فمن الناس من يكون تعزيره بالقول والتوبيخ، ومنهم من يضرب بالسوط، ومنهم من يلبس الطرطور حيث يقوم بتجريسه[٩٤].

وإذا رأى المحتسب رجلاً أجنبياً مع إمرأة أجنبية في خلوة أو طريق منعهما من ذلك وعزرهما. وينبغي على المحتسب أن يتفقد الأماكن التي تجتمع فيها النساء مثل: سوق الغزل والكتان وشطوط الأنهار وأبواب حمامات النساء، فإن رأى شاباً منفرداً بإمرأة أو معترضاً لها ويكلمها بموضوع غير البيع والشراء عزّره ومنعه من الوقوف معها، فكثير من الشبان المفسدين يقفون في هذه المواضع «وليس لهم حاجة غير التلاعب على النسوان» ثم يتفقد المحتسب مجالس الوعاظ فلا يدع الرجال يختلطون بالنساء ويجعل بينهم ستارة، فإذا أنفض المجلس خرج الرجال من طريق والنساء من آخر، فمن وقف من الشباب في طريقهن لغير حاجة عزره المحتسب. وإن تكلم رجل مع إمرأة أجنبية فخف الله تعالى من خلوة تؤد بك إلى معصية الله تعالى، وليكن زجره بحسب الأمارات[٩٥].

هذا، ويتفقد المحتسب المآتم والمقابر، فإذا سمع نادبة أو نائحة عزرها ومنعها لأن النواح حرام قال رسول الله (ﷺ): «النائحة ومن حولها في النار»، وقال أيضاً «ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية.» ويمنع المحتسب النساء من زيارة القبور لأن رسول الله قال: «لعن الله زائرات القبور».

أما فيما يختص بالمغنيات وسواهن، فإن سمع المحتسب بإمرأة عاهرة أو مغنية أستتابها عن معصيتها، فإن عادت عزرها ونفاها من البلد. كما يجوز له إتلاف آلات الملاهي لا سيما آلة الطنبور، وقد أقر ذلك أكثر الفقهاء على حد قول إبن تيمية.

أما المخنثون والمردان المشهورون بالفساد مع الرجال، فإن المحتسب ينهاهم عن فسادهم ويعزرهم فإن عادوا نفاهم من البلد، كما يمنع المحتسب المخنث من حلق لحيته ودخوله على النساء، وكذلك الأمردالنكريش(٩٦) متى حلق لحيته كان ذلك دليلاً على فساده فيعزره المحتسب على فعل ذلك. ومن أجل وضع حد للفساد منع الخليفة عمر بن الخطاب اجتماع الصبيان بمن كانوا يُتهمون بالفاحشة.

وبالنسبة لشاربي الخمر، فإن رأى المحتسب رجلاً يحمل خمراً عزره حسب ما يراه من المصلحة في حقه بعد إراقة الخمر وكسر الآنية. وإذا عثر على شارب خمر جلده كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما يمكن أيضاً للمحتسب أن يحرق الحانوت الذي يباع فيه الخمر على غرار ما فعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما أمر بإحراق قرية لأن الخمر كان يباع فيها(٩٧) وعلى حد قول إبن تيمية فإن كل مسكر في الطعام والشراب لهو حرام وقد أدخل في ذلك التبغ والمزر والحشيشة القنبية.

النظام الإقتصادي والنقدي

أهتم الخلفاء الراشدون بأوضاع المسلمين وغير المسلمين لا سيما أوضاعهم المعيشية فأنشأوا «بيت مال المسلمين» الذي كان يمول من ضرائب الخراج على الأرض ومن الزكاة والجزية والغنائم. وكانت تصرف أموال بيت المسلمين على الفقراء والمعوزين ودفع مرتبات الجند والشرطة والمحتسب والقضاء كما تصرف على تحسين أوضاع الأقاليم والأمصار ووسائل أعداد المعدات الحربية وبناء المساجد(٩٨).

ولا بـد من الإشارة إلى أن حـركة تعـريب النقـود في عهـد الخليفـة عبـد الملك بن مروان مرتبطة إلى حد كبير بالنظام المالي والإقتصـادي للدولة العـربية، فقـد كان هـذا الخليفة الأمـوي يرى أن ضرب العمـلات العربيـة والإسـلاميـة ضرورة اقتضتها الظروف لتدعيم البناء الإقتصـادي والسياسي للدولـة العربيـة، خاصة بعد أن انتقلت الدولة من مرحلة الفـوضى والإضطراب إلى مـرحلة البناء والإستقرار. ولتحقيق الإستقلال الإقتصادي للدولة العربية أنشـأ عبد الملك بن مروان داراً لضرب السكة. ثم قام بإلغاء النقود البيزنطيـة والفارسيـة والحميريـة وأمـر بجمعها وتـذويبها وسـك نقود عـربية جـديدة. ولهـذا فإن عبـد الملك بن مروان يعتبر رائد التعريب في مجال النقود والدواوين أيضاً.

وقـد استطاع عبـد الملك بن مروان أن يحقق استقـلال الـدولـة العـربيـة إقتصادياً عن بقية الدول المجاورة. وكان إشراف الدولة على ضرب نقود موحدة قد نجمت عنه فوائد جمة إذ عمدت الدولة إلـى مراقبـة ومحاربـة الزيف والغش والتمييز بين الجيد والرديء. وأصبحت هذه العملة الإسلاميـة تمثل أعـلى درجة في الجودة والنقاء[٩٩].

ونـظراً لما كـان للنقود من أهميـة في الإقتصاد القـومي والإسلامي للدولـة العـربية، فقـد كانت إدارة الـولايـات في الـدولـة الإسـلاميـة تهتم في تـنـظيم الناحية المالية فيها، وكان إصلاح هذه النـاحية أول مـا أتجهت إليه همـة عمر بن عبد العزيز وفي مقدمة ذلك نظام الخراج.

أما فيما يختص بالإنشطة الاقتصادية الأخرى في أطار الدولة العـربية فقـد اهتم العرب بالزراعة لا سيما بعد انتشارهم في مصر وبلاد الشام والأندلس، فاستغلوا الأنهار المـوجـودة في مصر (النيـل) والعـراق (الفـرات ودجلة) وبنـوا السـدود والقنوات، وأستخدموا مواد جديدة لتحسـين مستوى الـزراعة. ومن المنتجـات الزراعية التي زرعها العرب: القطن والبرتقال وقصب السكر والتفـاح والزيتـون والنخيـل والبـطيـخ والأرز والقمـح والـذرة والخضروات المتنـوعـة ولعـل تنـوع المنتجـات الزراعيـة سهل لهم ابتكـار مـأكـولات جـديـدة لا سيـما في العصرين الأموي والعباسي.

أما الصناعة فقد تطورت لديهم أكثر مما كانت عليه في شبه الجزيرة العربية ذلك لأن الأنتشار العربي أهّل العرب لوضع أيديهم على مواد خام عديدة في المناطق التي سيطروا عليها، فحصلوا على الحديد والنحاس والذهب والفضة واللؤلؤ الأمر الذي دعاهم للإشتغال بالصناعة المرتبطة بهذه المواد، علماً بأن العرب منذ القدم تعرفوا إلى البترول الذي كان يطفوا على وجه الأرض. . . فأناروا به منازلهم وشوارعهم. أضف إلى ذلك بأن العرب استطاعوا تحويل بعض المزروعات إلى صناعات مثل الزيوت من الزيتون، والنسيج من القطن والقنب والكتان.

وعلى هامش هذا النشاط الإقتصادي وبمرور العهود العربية المتلاحقة تكونت النقابات والطوائف المهنية، وكان يرأس كل نقابة: النقيب أو المعلم أو الأسطه الذي كان مسؤولاً عن العمال ضمن المهنة الواحدة.

وأستطاع العرب القيام برحلات تجارية سبق أن تعودوا عليها منذ ما قبل الإسلام لا سيما رحلتي الشتاء والصيف، فإذا بالدولة الإسلامية تفتح للتجار العرب آفاقاً واسعة براً وبحراً للأتجار وللبيع والشراء، فأقاموا علاقات تجارية مع بلاد الشام ومصر واليمن وإفريقية وإسبانيا والغرب الأوروبي والسودان والحبشة والصومال والهند والصين والفلبين، وأدخل العرب معهم إلى جانب تجارتهم الدين الإسلامي، ذلك أن مناطق عديدة من العالم دخلت الإسلام بواسطة التجار المسلمين. وتحولت المدن الإسلامية لا سيما الساحلية منها إلى مراكز تجارية هامة استقطبت تجار العالم. وتكون للتجار نقابات يرأسها «شهبندر التجار» أو «نقيب التجار» كما أوجد العرب أنظمة مالية مرتبطة بالعمل التجاري مثل الحوالات المالية والشيكات.

ولما جاء القرن الرابع الهجري أصبح التاجر الغني هو ممثل الحضارة الإسلامية التي صارت من الناحية المادية كثيرة المطالب باعثة على الإستطالة في ذلك: ولم يترفع «بدر بن حسنويه» في آواخر القرن الثالث الهجري ـ وكان في منصب هام من المناصب الجليلة في الدولة الإسلامية ـ عن أن يبتاع خاناً في مدينة همدان ويفرده باسمه، ويقيم فيه من يبيع ما يرد من الأمتعة المختارة في

أعماله، وقدرت أرباحـه من وراء هذه التجـارة نحواً من ألف ألف ومـائتي ألف درهم(١٠٠) ويرى آدم متز بأن التجارة الإسـلامية في القـرن الرابـع الهجري كـانت تعتبر مظهراً من مظاهـر أبهة الإسـلام. وكانت سفن المسلمـين وقوافلهم تجـوب كل البحار والبـلاد، وأخذت تجـارة المسلمين المكـان الأول في التجارة العـالمية، وكانت الإسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم في ذلك العصر(١٠١).

أما فيما يختص بالنقود الإسلامية فقد اعتبرت مظهراً من مـظاهر الحضـارة الإسلامية نتيجة أهميتها الإقتصـادية والمـالية في الـدولة الإسـلامية، ونـظراً لهذه الأهمية ولهذا المظهر الحضـاري، فقد جـرت حروب من أجـل الاستقلال المـالي والأقتصادي الإسلامي عن الدولتين البيزنطية والفارسية وكذلك الدولة الحميرية، لأنه لا يمكن للحضارة الإسلامية أن تبرز بمظهرها اللائق، وسياستها النقديـة لا تزال خاضعة للنفوذ والسيطرة الأجنبية.

هذا وقد عرفت الحضارة العـربية الإسـلامية نشـاطات علمية عديـدة في ميـادين الأدب والشعر والنـثر والـطب والهنـدسـة والفلك والكيميـاء والفيـزيـاء والمـوسيقى والريـاضيات والصيـدلة وعلم النبـات والفنون والعـمارة والجغرافيـة والتاريخ ونظم التعليم والجامعات(١٠٢).

يتبـين لنا من خـلال تاريـخ هـذه الحضـارات، بـأن الانسـان في الشرق والغـرب، مر بتـطورات حضاريـة متعـددة الـوجـوه في المجـالات الاقتصـاديـة والاجتماعية والسياسية والعسكرية والثقافية والدينية. ويـلاحظ الدارس التبـاين في أنماط هذه الحضـارات تبعاً للظروف ولـلأسباب التي أدت إلى إنشـائها وتبعـاً للبيئة. ولكن يلاحظ في الوقت نفسه تأثر الحضارات بعضها بـالبعض الآخر من خـلال عمليات التبـادل والتمازج البشري والاقتصـادي، ومن خلال التـواصـل والانتقال من وإلى مناطق أخرى.

ويتبين أيضاً من خلال هذه الدراسة المتواضعة، أن الحضارة ليست وليدة عهد معين أو حقبة زمنية معينة، بل هي نتيجة تفاعلات ونشاطـات حضاريـة، تكشفت عبر الزمن فـأدت إلى ولادة نمط حضاري معـين. ومما لا شـك فيه بـأن

عوامل عديدة قامت بدور بارز في تكوين الحضارات الاقليمية والحضارة العالمية مثل: العوامل الطبيعية الملائمة، السلم والاستقرار، الزراعة والصناعة والتجارة، المفاهيم الدينية والأخلاقية، تكوين الأسرة، نشوء الدولة، التنظيمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، اكتشاف الحرف واستخدام الكتابة، تسخير العلوم لمصلحة الانسان أينما كان.

---

(١) حول موضوع العرب قبل الإسلام، توجد دراسة متخصصة على غاية من الأهمية للدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة (مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام) دار النهضة العربية - بيروت ١٩٧٨.

(٢) للمزيد من التفصيلات عن العلوم والمعارف المتنوعة في العراق القديم انظر: محمد عزة دروزة: تاريخ الجنس العربي، جـ٣، ص ١٦٩ - ١٨٦.

(٣) للمزيد من التفصيلات انظر: د. محمد عبد السلام كفافي: الحضارة العربية، طابعها ومقوماتها العامة، ص ١٦ - ٢٠.

(٤) انظر: د. زاهية قدورة: شبه الجزيرة العربية، ص ١٤ - ١٥.

(٥) للمزيد من التفصيلات عن هذه الأنظمة انظر: حسان حلاق: تاريخ الحضارات، ص ٥٧ - ٧٥، الدار الجامعية - بيروت ١٩٨٤.

(٦) سورة الزلزلة، الآية ٧ - ٨.

(٧) نظام الخلافة استحدث بعد وفاة الرسول (ﷺ) وهو من خلفه في المسؤولية في الدين والدنيا ولهذا سمي من أتى بعده بإسم الخليفة أي خليفة الرسول (ﷺ) وليس خليفة الله، وقد اختلف كثيراً في هذا الموضوع ويمكن العودة للماوردي في الأحكام السلطانية للاطلاع على وجهات النظر الشرعية حول هذا الموضوع.

(٨) سورة النساء، الآية ٥٨.

(٩) الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ٤. طبعة بيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، دار الكتب العلمية.

(١٠) سورة النساء الآية ٥٩.

(١١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٥ - ١٣.

(١٢) الماوردي: المصدر نفسه، ص ٦، انظر أيضاً ابن خلدون، المقدمة، ص ١٩٣ - ١٩٦.

(١٣) الماوردي: المصدر السابق، ص ٧.

(١٤) سورة الأنعام، الآية ١٦٥. انظر أيضاً: سورة فاطر، الآية ٣٩.

(١٥) سورة ص، الآية ٢٦.

(١٦) سورة البقرة، الآية ٣٠.

(١٧) ابن خلدون: المقدمة، ص ١٩١.

=

. . . .

= (١٨) ابن خلدون: المقدمة، ص ١٩٠.

(١٩) ابن خلدون: المقدمة، ص ١٩١. انظر أيضاً للمزيد من التفصيلات حول الوزارة والوزراء: آدم متز: الحضارة الإسلامية، م ١، الفصل السابع، ص ١٦٨ - ٢٠٦. انظر أيضاً: د. توفيق اليوزبكي، الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية، ص ١٥ - ٢٤. دار الكتب للطباعة والنشر جامعة الموصل ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م.

(٢٠) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٣٦.

(٢١) سورة طه، الآية ٢٩.

(٢٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٣٨.

(٢٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٣٨.

(٢٤) د. أحمد مختار العبادي: محاضرات في الحضارة الإسلامية (نظم الحكم والإدارة في المغرب والأندلس)، ص ٧٠، مطبعة كريدية - بيروت ١٩٧٨.

(٢٥) للمزيد من التفصيلات حول الوزارة والحجابة في المغرب والأندلس انظر: د. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ٧١ - ١١٨.

(٢٦) الماوردي، المصدر السابق، ص ٢٢.

(٢٧) الماوردي، المصدر السابق، ص ٢٧.

(٢٨) للمزيد من التفصيلات انظر: الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٢٠٣ - ٢٠٦.
انظر كتابنا: تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي. انظر أيضاً دراسة جيدة ومتخصصة للدكتورخالد جاسم الجناني: تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام - العراق، ١٩٨٤.

(٢٩) انظر كتاب: أ. عبد الحميد فايد: المرأة وأثرها في الحياة العربية، دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة، الطبعة الثانية ١٩٨٣.

(٣٠) انظر: ف. بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية (في فصوله الستة) تعريب حمزة طاهر، دار المعارف - مصر الطبعة الخامسة، ١٩٨٣. أنظر أيضاً كتابنا: تاريخ العلوم والتكنولوجيا، الدار الجامعية بيروت ١٩٩٠ م.

(٣١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٦٥ - ٦٦. للمزيد من التفصيلات حول منصب القضاء في الإسلام، انظر المارودي، المصدر نفسه، صفحات ٦٥ - ٩٣.

(٣٢) للمزيد من التفصيلات انظر: فصل النظام القضائي الإداري الإسلامي.

(٣٣) المقريزي (المواعظ والاعتبار) م ٢ ص ٣٣ تحقيق:
G. Wiet; Le Caire Imprimerie de L'Institut Francais « 1913 »
انظر أيضاً: .Encyclopédie de L'Islam - Art Dıwan - P. 1006, Vol. 1.
للمزيد من التفصيلات أيضاً: أنظر الموسوعة ذاتها طبعة ١٩٦٥.

Encyclopédie de L'Islam (Nouvelle Edition) Tom II, PP. 332 - 345.

(٣٤) المقريزي، المصدر نفسه م ٢ ص ٣٣، (ديوانه تعج بالفارسية مجون) انظر أحمد لواساني (مدخل إلى اللغة الفارسية) ص ٢٦٨، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٢.

(٣٥) الموسوعة العربية الميسرة ص ٨٤٠.

(٣٦) الطبري (تاريخ الرسل والملوك) جـ ٣، ص ١٧٣، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف في مصر ١٩٦٢.

(٣٧) محمد كرد علي: الإدارة الإسلامية في عز العرب، ص ١٤ مطبعة مصر، القاهرة ١٩٣٤.

(٣٨) محمد كرد علي، المرجع نفسه. ص ١٩.

(٣٩) محمد كرد علي، المرجع السابق، ص ١٩ نقلاً عن سيرة ابن هشام.

(٤٠) انظر: E. Browne; A Literary History of Persia, P 205, Vol 1 « London 1909 ».

(٤١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ ٣ ص ٦١٤.

(٤٢) المصدر نفسه ص ٦١٤.

(٤٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٦٣٥، ٦٣٦. الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص ١٦، ١٧، الطبعة الأولى تحقيق ونشر مصطفى السقا وآخرين، مطبعة الحلبي القاهرة، ١٩٣٨

(٤٤) البلاذري، المصدر السابق، ص ٦٣٠.

(٤٥) محمد كرد علي: الإدارة الإسلامية في عز العرب، ص ٤٤.

(٤٦) محمد كرد علي، المرجع نفسه، ص ٤٥ نقلاً عن «نهاية الأرب للنويري» و«صبح الأعشى» للقلقشندي.

(٤٧) سيدة كاشف: عبد العزيز بن مروان، ص ٩٩ نقلاً عن ابن عبد الحكم والمقريزي.

(٤٨) Denys; Chronique, Publication et traduite par chabot, P. 10 « Paris 1895 »

(٤٩) أنظر: نقولا زيادة: الحسبة والمحتسب في الإسلام، ص ٢٠.
للمزيد من التفصيلات عن الوضع الإداري في الدولة العربية أنظر أيضاً: يوليوس فلهوزن: تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ص ٢٥- ٢٩.

(٥٠) للمزيد من التفصيلات أنظر: د. محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية (الفصل الأول، نشأة المدينة الإسلامية، ص ٤٩- ٨٧) سلسلة عالم المعرفة - الكويت ١٩٨٨.

(٥١) للمزيد من التفصيلات عن حركة التعريب أنظر كتابنا: تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي.

(٥٢) سورة آل عمران - الآية ١٠٤.

(٥٣) سورة آل عمران - الآية ١١٠.

(٥٤) ابن تيمية: الحسبة ومسؤولية الحكومة الإسلامية، ص ١٦.

(٥٥) ابن تيمية، المصدر نفسه، ص ٢٥.

(٥٦) ولى الخليفة عمر بن الخطاب «أم الشفاء» بنت عبدالله أمور الحسبة على سوق من أسواق المدينة، وذلك في نطاق ضيق وتتعلق بأمور النسوة، أنظر: أحمد سعيد المجيلدي: التيسير في أحكام التسعير، ص ٤٢، أنظر أيضاً: علي الخفيف، الحسبة، ص ٥٧٢ ـ ٥٧٣، من كتاب مهرجان الإمام ابن تيمية.

(٥٧) أنظر شروط من يتولى الحسبة في: الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

(٥٨) التعزيز: عقاب المذنب أو المخالف لأمور الشرع، ويختلف التعزيز بحسب الذنوب وهو أنواع مثل: التوبيخ، الزجر، السجن، النفي، والضرب. هذا مع الإشارة إلى أن لفظ التعزيز لا يزال يستعمل حتى اليوم في الديار الشامية والمصرية.

(٥٩) عبد الرحمن بن نصر الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ٦ ـ ٩. أنظر أيضاً: ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص ١٣.

(٦٠) سورة البقرة، الآية ٤٤.

(٦١) سورة الصف، الآية، ٢، ٣.

(٦٢) للمزيد من التفصيلات: أنظر: عبد الرحمن بن نصر الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ٨، ٩، ٣٨، ابن الإخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة ص ٣٠ ـ ١٩٥.

(٦٣) الماوردي: ألأحكام السلطانية، ص ٢٥٨.

(٦٤) الصنج: المعايير، وهي تكون عادة زجاجية أو معدنية أو حجرية.

(٦٥) إبن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، م ١، ص ٣٩٨.

(٦٦) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٢٥٧.

(٦٧) أحمد سعيد المجيلدي: التيسير في أحكام التسعير، ص ٤٦.

(٦٨) الماوردي: الإحكام السلطانية، ص ٢٥٢.

(٦٩) إبن تيمية، المصدر السابق، ص ٣١.

(٧٠) أنظر حول هذا الموضوع: إبراهيم دسوقي الشهاوي: الحسبة في الإسلام ص ١١٣ ـ ١١٦.

(٧١) للمزيد من التفصيلات أنظر: ثلاث رسائل أندلسية (إبن عبدون، إبن عبد الرؤوف، الجرسيفي)، ص ٢٠، ٢١، ٦٩، ١١٩.

(٧٢) إبن تيمية: الحسبة ومسؤولية الحكومة الإسلامية، ص ١٤، ١٥.

(٧٣) أنظر: إبن تيمية، المصدر السابق، ص ٢٢، ٣٤، ٣٥، ٤٥.

(٧٤) أحمد سعيد المجيلدي: التيسير في أحكام التسعير، ص ٦٥.

(٧٥) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٢٥٨.

(٧٦) أنظر: إبن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص ٧٩.

(٧٧) عبد الرحمن بن نصر الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ١٨، أنظر أيضاً: ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص ٨٣، أنظر أيضاً: إبن بسام: نهاية الرتبة في طلب =

= الحسبة، ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

(٧٨) سورة المطففين، الآية ١ ـ ٣ .

(٧٩) الماوردي، المصدر السابق، ص ٢٥٣ .

(٨٠) إبن تيمية، المصدر السابق، ص ١٧ .

(٨١) ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ١٨٩ .

(٨٢) أنظر: أحمد سعيد المجيلدي: المصدر السابق، ص ٨٣.

(٨٣) الشيزري: المصدر السابق، ص ٢٧ .

(٨٤) أبن الأخوة: المصدر السابق، ص ٩٨.

(٨٥) ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ٣٥، ٣٦.

(٨٦) ابن تيمية، المصدر السابق، ص ٤٥ .

(٨٧) نبات يستخدم في الطب والصبغة والطلاء.

(٨٨) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ٩٧، أنظر أيضاً: ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ١٠٨ ، وما يليها.

(٨٩) كتاب «محنة الطبيب» وله كتاب باسم «العشر مقالات في العين». وقد عاش حنين في العهد العباسي (٨٠٩ م ـ ٨٧٧ م) ـ (١٩٤ هـ ٢٦٤هـ) .

(٩٠) أحمد سعيد المجيلدي: التيسير في أحكام التسعير، ص ٧٢ .

(٩١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٢٥٣ .

(٩٢) البكر: الزوج الّذي لم يطأ زوجة بنكاح صحيح .

(٩٣) ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المجلد الأول، ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩.

(٩٤) للمزيد من التفصيلات عن العقوبات الشرعية أنظر: إبن تيمية، المصدر السابق، ص ٥٠ ـ ٦١.

(٩٥) أنظر: الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٢٤٩ .

(٩٦) النكريش: لفظ فارسي معناه، ذو اللحية الجميلة.

(٩٧) إبن تيميه، المصدر السابق، ص ٥٦ .

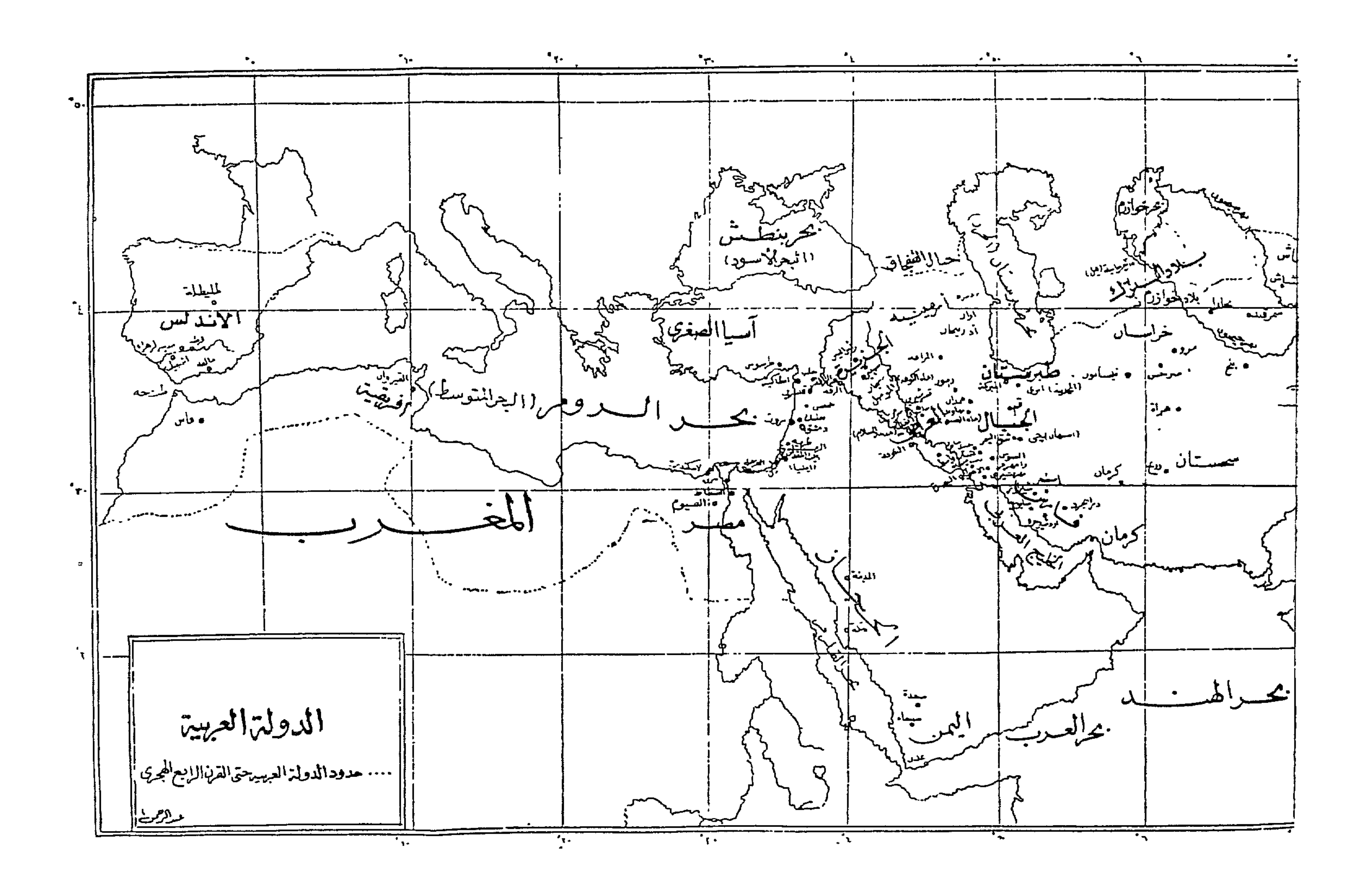
(٩٨) أنظر: آدم متز: الحضارة الإسلامية، الفصل الثامن، ص ٢٠٧ ـ ٢٥٤ والمتعلق بالمسائل المالية وما يستتبعها من خراج وضرائب وبيت مال ونظم مالية وسواها.

(٩٩) أنظر كتابنا: تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨٨ .

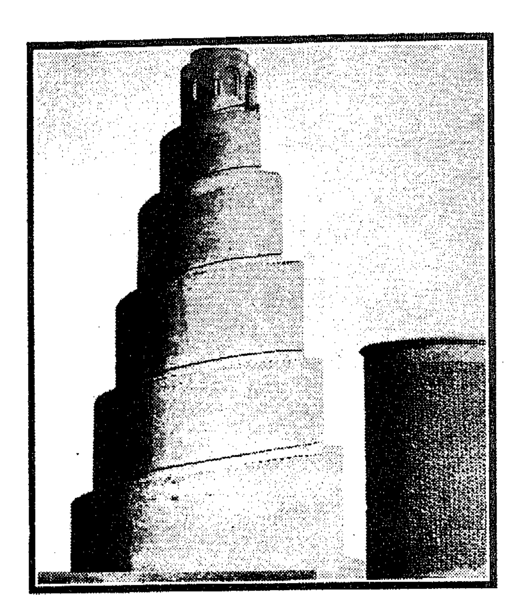
(١٠٠) آدم متز: الحضارة الإسلامية، م ٢، ص ٣٧٠.

(١٠١) آدم متز: المرجع نفسه، م ٢، ص ٣٧١.

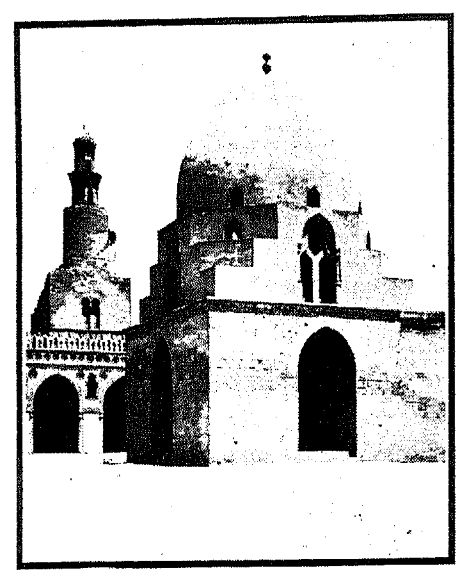
(١٠٢) يمكن الإطلاع على هذه المعالم العلمية في كتابنا تاريخ العلوم والتكنولوجيا، الدار الجامعية ـ بيروت ١٩٩٠ أنظر أيضاً كتابنا المشترك مع د. عمر فروخ، د. ماهر عبد القادر: تاريخ العلوم عند العرب، دار النهضة العربية ـ بيروت ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م.

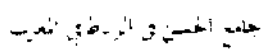


الدولة العربية
...... حدود الدولة العربية حتى القرن الرابع الهجري
الأندلس
المغرب
إفريقية
فاس
بحر الروم (البحر المتوسط)
آسيا الصغرى
بحر بنطس (البحر الأسود)
جبال القبق
أرمينية
الجزيرة
مصر
الفسطاط
الحجاز
اليمن
بحر العرب
بحر الهند
الجبال
طبرستان
خراسان
سجستان
كرمان
فارس
بلاد خوارزم
بحر خوارزم
دمشق
حمص
حلب
نيسابور
مرو
بلخ
هراة

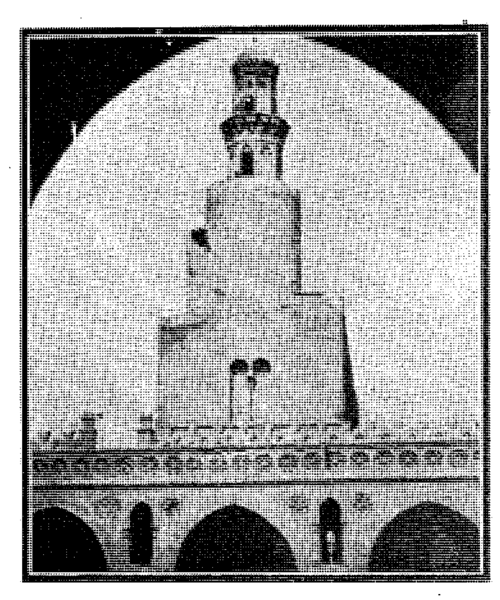


جامع سامراء في العراق.





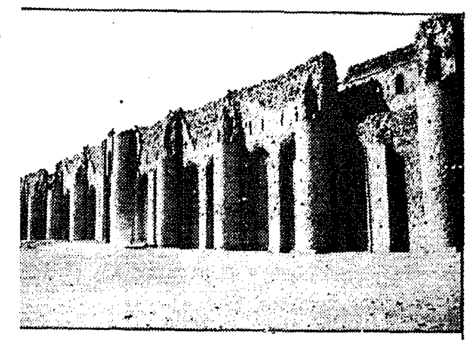
جامع الحسن في الرباط في المغرب



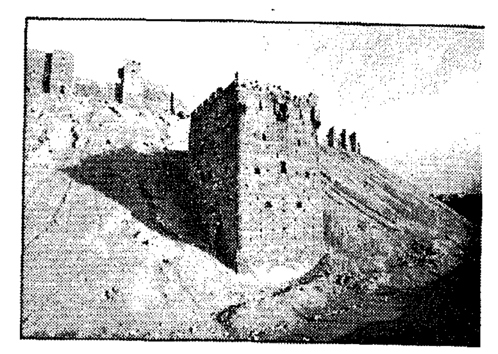
جامع ابن طولون في مصر



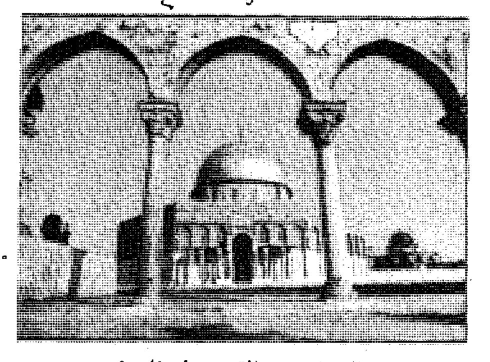
جامع السلطان سليمان في أدرنه في تركيا



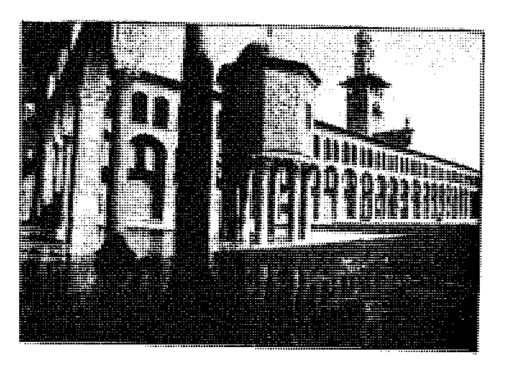
قصر الاخيضر في كربلاء في العراق



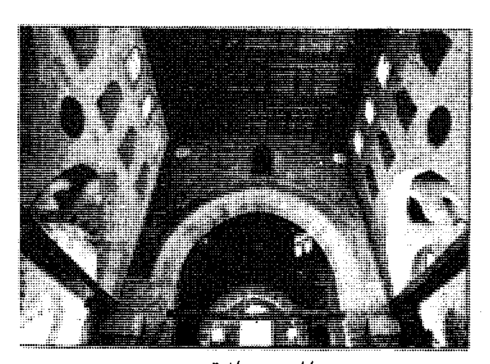
قلعة حلب



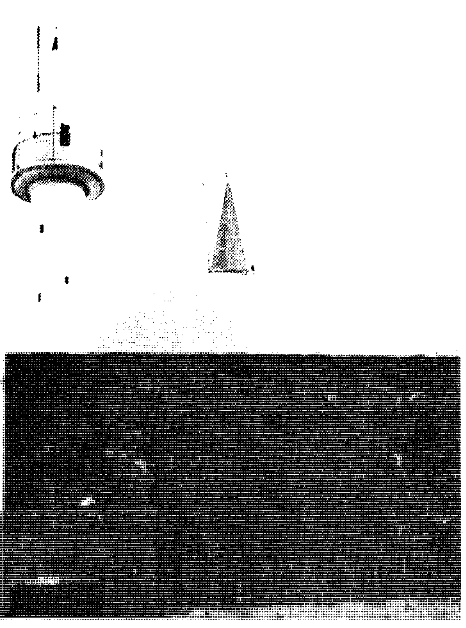
قبه الصخرة في القدس في فلسطين



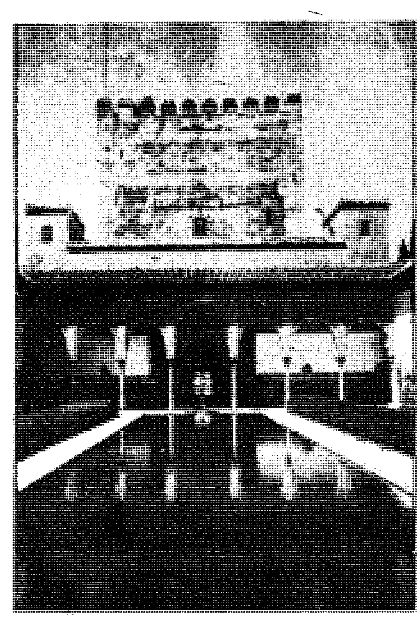
المسجد الأموي في دمشق



المسجد الاقصى



جامع ومقام الإمام الأوزاعي في بيروت



باحة الرياحين في قصر الحمراء في غرناطة



آنية نحاسية عليها رسوم وحفر تمثل الفن الإسلامي



الانكباب على العلم من مظاهر الحضارة الإسلامية ـ إحدى المدارس الزوايا العلمية في القاهرة



بائع السجاد وسط حي إسلامي مع مظاهر العمارة الإسلامية

